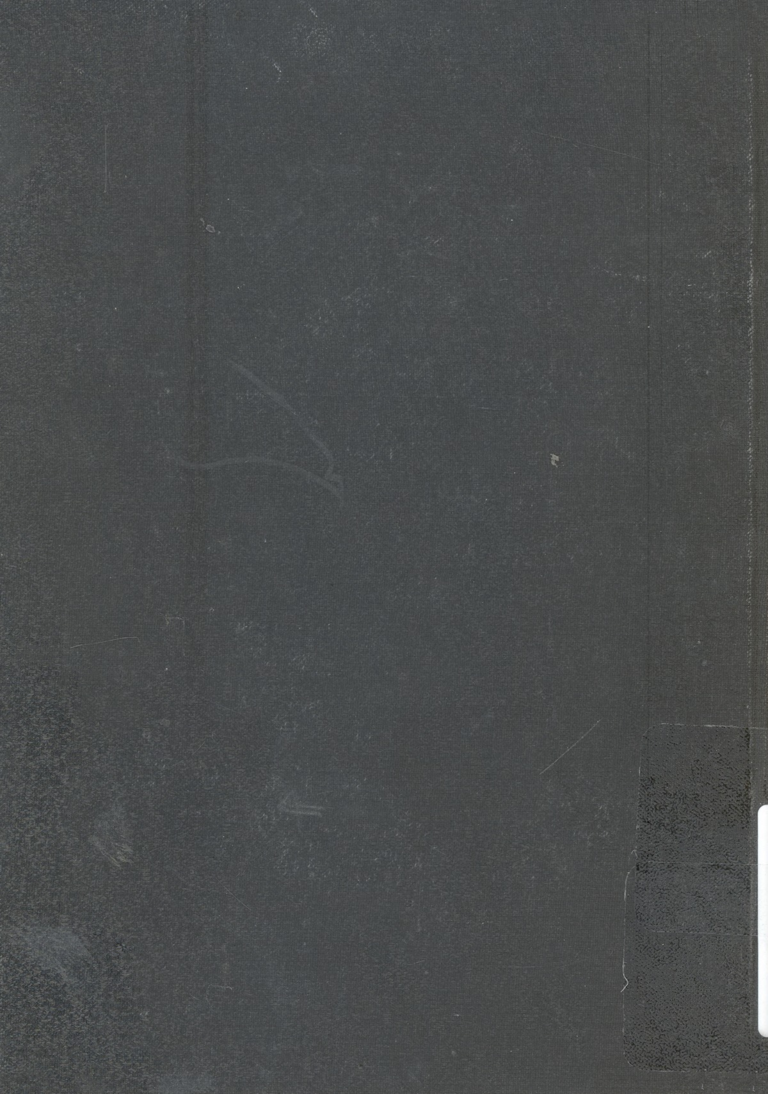
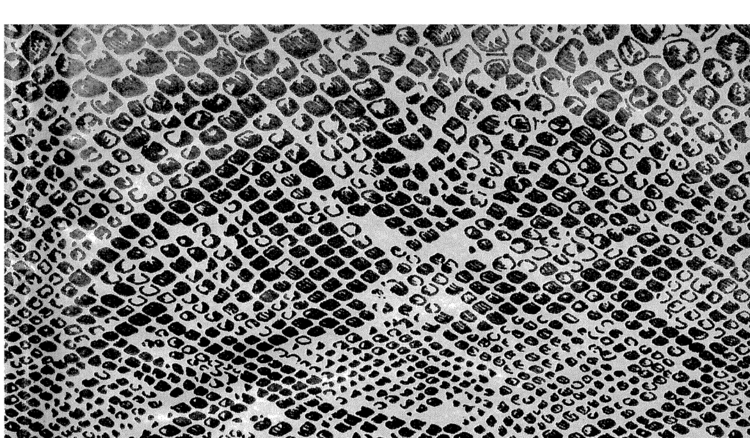
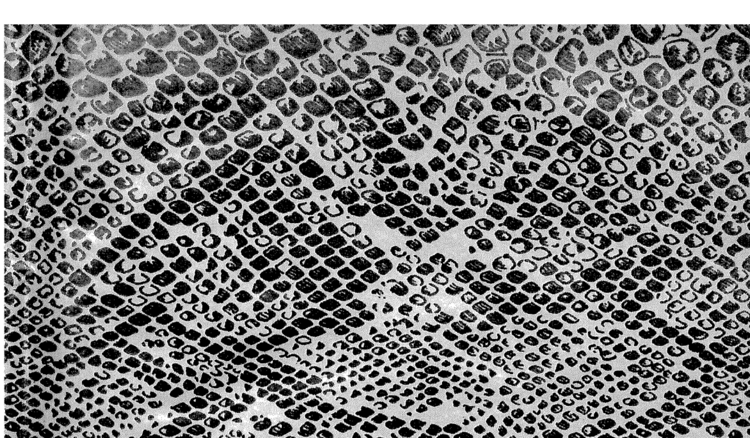
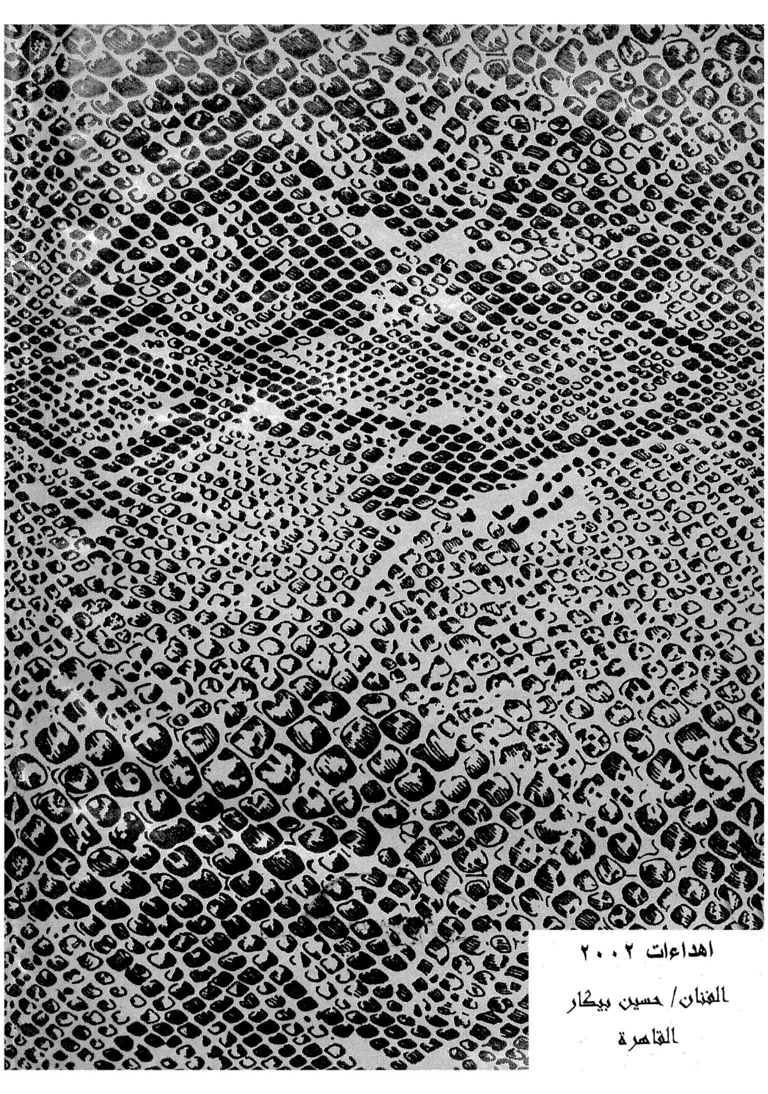








القرن العشرون

ما كان وما سيكون

نشر هذا الكتاب بالاشـــتراك

مع

مؤســـسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

القرن العشرون

ما كان وما سيكون

بقلم
عباس محمود العقاد

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

This book, THE TWENTIETH CENTURY by Abbas Mahmud El-Akkad is in part original writing in the Arabic Language, and in part is based on THE NEXT HUNDRED YEARS by Harrison Brown, James Bonner and John Weir; and THE TWENTIETH CENTURY by Hans Kohn.

فهرس

صفحة

صفحة

مُقَدِّمَة

اقتربت مطالع القرن العشرين وأبناء القرن التاسع عشر يحسبون أنهم مقتربون من عصر خامل الى عصر يشبهه فى خموله ، وكانوا قد عبروا الأعوام العشرة الأخيرة من القرن وهم يمرون بها مرور الملل وقلة الاكتراث : ركود لا يستغربونه لأنهم أطلقوا عليه كلمة « آخر القرن » Fin de Siècle كما نقول نحن فى اللغة العربية « آخر زمن » ونفسر به كل فعل منتظر على غراره ومن معدنه : معدن الاسفاف والابتذال ، فلا اكتراث له ولا غرابة فيه ، لأن الشيء من معدنه لا يستغرب ، كما يقال ويعاد .

وليس أدل على جهل الناس بغدهم القريب من هذه الغفلة فى نهاية القرن التاسع عشر عن ضخامة القرن العشرين بين قرون التاريخ القديم والحديث منذ عرف التاريخ ، فلم يكد هذا القرن ينتصف حتى التفت العالم من جميع أركانه وأقطاره الى هذا القرن الذى خيل اليه أنه بقية العكارة من أعقاب التاريخ الأخير ، فاذا هو عصر العصور فى حوادثه وفى مكتشفاته ومخترعاته ، وفيما يتوقع بعده من جلائل الآمال . نعم ، وجلائل الأهوال .

حربان عالميتان من عشرته الثانية الى عشرته الرابعة ، واقتحام للفضاء ، وفتح للقمقم عن مارد الطبيعة الأكبر ، وهو القمقم الذى يحتويه أصغر ما فيها من ذرات لا تدركها الأبصار .

هل تعجل الانسانية الى النصر على الطبيعة أو تعجل الى الدمار على يدى الانسان بما كشفه من أسرارها ؟ وهل اقترب الانسان حقا من

الحرب التى تختم الحروب فلا حرب بعدها ولا محاربون ، أم هو يقترب شيئا فشيئا من يوم النصر على الطبيعة وعلى ما فى طبيعته هو من بوائق الشر والدمار ؟

وذهبت السكرة وجاءت الفكرة : ذهبت نشوة الفتح والانتصار على المارد المكنون فى ذرات المادة وانجلت المفاجأة عن حساب طويل لهذا الفتح المبين ، بل حساب عسير .

ماذا فى وسع العلم أن يهب لنا من علانيته وسره ؟ ماذا عنده من الوعد وماذا عنده من الوفاء ؟ وماذا فيه من الخير المأمول ؟ بل ماذا فى الخير المأمول من محذور يتستر وراءه النفع المنظور ؟

ان غلبة الانسان على الطبيعة سوف تؤتيه الغلبة على السقم والوباء، وسوف يزداد الناس ببركة العلم فماذا عند العلم لهؤلاء الناس من الأزواد ومن الشواغل والأعمال ؟ أعنده الكفاية لهم من القوت والمأوى أم هو مرسلهم الى عالم يتغالبون عليه ثم يلتمسون الغلب بذلك السلاح الجديد : ذلك السلاح المبيد ؟

وعاد الباحثون الى نذير « مالثوس » يدرسونه وينقدونه وينقصون منه أو يزيدون عليه . فوضح لهم أن نذير الأمس قد أصاب فى كل شىء الا فيما اعتمد عليه من معلومات وأسانيد . ولم يخطىء حين أنذر بالخطر من زيادة الأحياء على الكفاية فى الأرض من الطعام ، ولعله قد ذكر بعض المخاوف ونسى بعضها الذى توارى عنه فلم يبلغ فى زمنه مبلغ الخطر الملموس ، وهو زيادة الآلات والأدوات على ما يلزمها من غذائها المدخر فى الأرض ، وهو مناجم الوقود .

ولجأ الباحثون الى نبوءاتهم يستخبرونها عن الغد المخبوء قبل نهاية القرن العشرين ، ولكنها نبوءات تتسم بطابع القرن وصبغة العلم

والصناعة ، كأنها نبوءة المتحدث عن سيار فى السماء أو فى الأرض ، يعرف مداره ويعرف كم يدور .

نبوءات أقرب الى التقديرات والاحصاءات ، ليست من نبوءات الطوبى ولا من نبوءات الأحلام ولا من نبوءات العصور الذهبية ، ولكنها أشبه بأرصاد الفلك ، لو لم يكن فيها شيء من الغيب المجهول قد يخطىء فيه الحساب .

ماذا عند هذا العصر — عصر الصناعة — من وعود ؟ وماذا من هذه الوعود حقيق أن يتبعه الوفاء ؟ وماذا يحول دون وفائه بوعوده مما يقع فى الحساب ، ومما يقع وراء كل حساب .

هذه هى الأسئلة التى تدور على جوابها فصول هذا الكتاب ، ونرجو أن نوفق للاجابة عنها غاية ما تلهمنا ظواهر الأمور ، وغاية ما نهتدى اليه بهداية تلك الظواهر ، وهداية الأمل المصدوق .

وسنحاول أن نجيب عنه جوابين متلاحقين لا متقابلين ولا متناقضين ، يضيف أحدهما الى الآخر ، ولا يزحزحه عن مكانه ليلغيه أو يطغى عليه .

فمن حيث انتهى بالقرن العشرين تطوره الصناعى يبتدىء النظر الى ما يليه من الممكنات وما يعترض تلك الممكنات من العوائق والعراقيل ، وهذا هو الشطر الأول من الكتاب الذى نعول فيه على خبراء الصناعة حيث بلغت الصناعة غايتها واستعدت للمضى فى تقدمها الى ما بعد تلك الغاية ، فى حدود القرن العشرين وفيما يليه ، وسننقل فى هذا القسم خلاصة كافية للمشكلة التى أحدثتها الصناعة والمشكلة التى تعالجها الصناعة ، ومدارها على تقدير سعة الأرض من المئونة ومن السكان ، وعلى ما يشتبك بذلك من قضايا السلام وقضايا السلاح ، وبخاصة فى القرن العشرين .

وننتقل بعد العرض الموجز لتقديرات الخبراء الى الشطر الثانى من الكتاب — شطر التعقيب والمراجعة فنأخذ فيه بحق العلم الذى تحراه أولئك الخبراء الثقات ، ونضيف اليه واجب العلم الذى لا يسقط عنه ولا يخليه منه الحفاظ على حقه . فمن واجب العلم أن يفرض وأن يستكشف ، وأن يجمع بين أشتات اليقين كلما وسعه أن يجمعها الى فكرة مقبولة تهدى الى مزيد من اليقين ، ومن واجبه أن يفتح أبواب الاحتمال فلا يغلق منها بابا يفضى الى المجهول ، ويربط بين الماضى والمستقبل بسبب موصول ، وعلى أضواء هذا الواجب العلمى ننظر الى مشكلات الانسانية ، والى أكبرها فى القرن العشرين مشكلة الصناعة ، لنقابل بين ماضيها وحاضرها ونحاول أن نضعها فى مكانها من تاريخ الانسان ، هل هى فلتات مبعثرة فى غياهب من الفوضى وأخلاط من الطوارىء والمصادفات ، أو هى سلسلة متلاحقة تتتبعها — أو تتتبع المعلوم من حلقاتها — فنفهمها على اتصال بين ماضيها وحاضرها ، ثم نفهمها على اتصال بين حاضرها وما يليه من لواحق الغد المنظور ؟

والذى نفرضه — على أساس الفرض العلمى — أن المقابلة بين مشكلات الانسانية وبين أدوار الصناعة فى تاريخها تسفر عن معنى يفهم ، ولا تتيه بالذهن فى فراغ مبهم خلو من كل معنى مجرد من كل نسق . فمشكلات الانسانية جزء من معالم الطريق لم ينفصل عن فتوحها وأطوار انتصارها وارتقائها ، والصناعة — منذ وجدت الآلة البدائية — هى السمة الأولى التى غيرت بين ملامح الحيوان الأعجم وملامح الحيوان الناطق منذ أقدم الأزمان ، وعلى هذه الصورة لا ينقطع المستقبل ولا تزال الصورة آخذة فى التمام على استقامة واطراد ، وان تخللتها الفجوات والظلال .

ودعوانا التى تؤكدها ولا تتردد فى توكيدها أن نظرة التفاؤل والرجاء الى الغد قائمة على أسبابها التى توازن أسباب التشاؤم والقنوط ، وان القول بعبث التاريخ أصعب دليلا من القول بمعنى التاريخ ، واننا نختار معناه — على بصيرة بينة ، دون معانيه التى يؤثرها المتشائمون القانطون ، وبحسبنا منه أن يكون معنى واضح المدلول ، أسبابه التى تعززه أوضح من الأسباب التى تنفيه .

البابُ الأوّل

عرض وبيَان

المحتـــويات

يشتمل هذا الشطر من الكتاب — وهو الباب الأول منه — على الفصول الآتية :

١ — فصل عن الطعام والطاقة فى العالم ، ملخص من « كتاب مائة السنة التالية — موارد الانسان الطبيعية والصناعية » تأليف هاريسون براون ، وجيمس بونر ، وجون وير من أعضاء مؤسسة كليفورنيا للمباحث الفنية :

The Next Hundred Years by Harrison Brown, James Bonner. John Weir... California Institute of Technology.

٢ — فصل عن التعليم، ملخص من الكتاب المتقدم وبعض المراجع .

٣ — فصل عن الفضاء منظور فيه الى مراجعه المذكورة فيه .

٤ — فصل عن حكم العالم منظور فيه الى كتاب برتراند رسل « آمال جديدة » وكتاب هانزكون عن القرن العشرين .

٥ — فصل عن العالم الى مليون سنة ، ملخص من كتاب مليون السنة التالية تأليف شارلز جالتون داروين .

٦ — بين تعقيب وتمهيد .

١ — الطعام والطاقة

طعام الانسان يؤخذ مباشرة أو بالواسطة من النبات ، وهو ذو خاصة تمكنه من تحويل ثانى أكسيد الكربون من الجو الى المركبات الكيمية الضرورية لتغذية الانسان ، ونحن نأكل بعض النبات كالحبوب والخضر مباشرة ، ونأكل بعضه بعد تحوله الى اللحم واللبن والبيض فى الحيوانات المدجنة . ويمكن أن يقال بعبارة أخرى : « كل لحم نبات » .

ولابد للفرد الانسانى — ليعيش عيشة صحيحة عاملة — من ثلاثة آلاف سعر حرارة فى اليوم ، وعليه اذن أن يستنفد كل يوم ما يساوى نحو رطل وثمانية أعشار الرطل من النبات يحتوى سبعة أعشار الرطل من الكربون ، وهو داخل على أشكال كثيرة فى التركيبات التى يتكون منها النبات . فلابد للفرد الانسانى اذن من مائتين وستين رطلا من الكربون كل سنة ... ويتحول على ظهر الأرض فى كل سنة نحو مائة وخمسين بليون طن كربون من ثانى أكسيد الكربون الى مادة نباتية ، وهو مقدار اذا استنفده الناس وخلصت فائدته كله للتغذية كان كافيا لتموين عدد من السكان يساوى خمسمائة ضعف الموجودين على الأرض فى الوقت الحاضر . ولكن مصدره من ضوء الشمس يذهب كثير منه — لسوء الحظ — الى ماء البحر ولا ينتفع به الانسان فى طعامه ، ولو بقى ما يقع على اليابسة من مصدره الشمسى وقفا على الغذاء لكان كافيا لعدد من الناس يساوى خمسين مثلا من سكان الأرض الموجودين. اذ كان من عادات الانسان فى التغذية أن يقصر طعامه على النبات المزروع والحيوان الذى يتغذى به ، ولا يستنفد هذا ولا ذاك أكثر من ربع

مصادر الغذاء الضوئية التى تنصب على سطح الكرة الأرضية . على أن هذا القسط — لو خلص أيضا للتغذية — لكان كافيا لعشرة أمثال سكانها .

« فمحصول الأرض الزراعية لا يكفينا الآن لما يصاب به من ألوان النقص فى نظام تدبيرنا للأطعمة . اذ يستخدم نصف المحصول على وجه التقريب فى اطعام الحيوانات الداجنة ، وانما يأكل الحيوان جزءا من النبات ويعطينا منه أغذية حيوانية كاللحم واللبن والبيض ونحوها مما يتألف منه عشر أسعار الحرارة ، أى أننا نعطى الحيوان مائة سعر يستنفد تسعين منها ويعطينا عشرة .

« ويعرض للمحصول نقص آخر من أن الانسان لا يأكل جميع النبات . بل يأخذ حبة القمح مثلا ويدع القشور والجذور ويقدر ما يأكله بنحو عشرين فى المائة من جملته . وليس الغذاء بعد هذا خالصا للانسان والحيوان الداجن ، لأن الأحياء الأخرى من الحشرات وجراثيم الأوبئة تلتهم نحو الثلث من محصول النبات الذى كان للانسان أن يستأثر به لولا ذاك ، ولهذه العوارض لا يبقى من محصول الأرض الا ما يكاد يكفى سكانها الموجودين .

« والعالم فى الواقع يربى محصوله من المادة الغذائية الصالحة على الحاجة الضرورية ، اذ هو ينتج مائة وخمسين طنا لكل فرد انسانى لا تزيد حاجته منها على ثلاثة أعشار الطن الواحد ، فلولا تلك العوارض لكان لدينا وفر من الطعام .

« ويجرى توزيع الطعام على حسب المواقع الأرضية . فيبلغ على الأرض الآن بليونين وأربعة أعشار البليون من الأفدنة المزروعة ، أى فدان على وجه التقريب لكل انسان ، ولكن سكان الأرض موزعون

توزيعا سيئا على هذه المساحة ، فيخص الساكن فى الولايات المتحدة فدانان مزروعان ، ويخص الساكن فى كندا حيث تتسع الأرض ويقل السكان ثلاثة أفدنة وستة أعشار الفدان لكل ساكن ، على حين أن الساكن فى اليابان لا تزيد حصته على خمسى فدان من الأرض المزروعة ، ولا تزيد حصة الساكن فى القارة الأسيوية على خمسى فدان . أما فى أوربة الغربية فحصة الانسان الفرد أقل من فدان .

« وتستخرج المحاصيل من الأرض الزراعية فى العالم على أساليب متفاوتة فى الانتاج ، فنحن فى الولايات المتحدة نحصل يوميا على نحو أربعة آلاف سعر من مادة الغذاء من الفدان الواحد ، وهو مقدار يزيد على انتاج آسيا الذى يبلغ أربعة آلاف سعر مع الفرق بين تربة الشرق والجنوب الشرقى حيث تزيد الأولى على الثانية . وتحصل أوربة الغربية بوسائلها المركزة على مقدار يتفاوت بين سبعة آلاف وثمانية آلاف ، وأشد ما يكون تركيز الوسائل الزراعية فى اليابان حيث يؤتى الفدان ثلاثة عشر ألف سعر ، أى نحو ثلاثة أمثال ونصف المثل من متوسط انتاج الفدان فى العالم ، وهو ثلاثة آلاف وثمانمائة .

« ... والأمريكى يطعم حيواناته معظم محصول أرضه من القمح والشوفان ولا يستنفد طعام الانسان منهما على حالتهما الطبيعية غير النزر القليل . اذ يأخذ الأمريكى نحو الثلث من أسعار غذائه من اللحم واللبن والبيض ، وعلى خلاف ذلك الآسيوى الذى يأكل معظم نباتاته ولا يزيد غذاءه من المواد الحيوانية على خمسة فى المائة ، ويأتى الأوربى وسطا بينهما فيعطى الحيوانات ما يزيد على النصف بقليل ، ويأخذ عشرين فى المائة من أسعار الغذاء من المواد الحيوانية . وترتبط عادات التغذية بنسبة مساحة الأرض المزروعة فلا يقدر السكان على ترف استخلاص

الغذاء من الحيوان الا حيث تزيد حصة الفرد الواحد من الأفدنة .

« ولا يبدو أن الاختلاف فى مقادير المحصول راجع الى أسباب تتعلق بالخصب والاقليم ، وانما يرجع على الأرجح الى درجة المعرفة الفنية ووفرة السكان . فنحن فى الولايات المتحدة نعلم كل ما يعلمه اليابانيون من أساليب الزراعة ولا نعنى مثل عنايتهم بتركيزها لأن هذا التركيز لا تدعو اليه الضرورة بعد ، مع زيادة حصة الفرد من الأفدنة . أما فى آسيا — عدا اليابان — فالناس يجوعون ، والحاجة تدعو الى مضاعفة الانتاج ، ولكنهم لا يستخدمون وسائل التركيز لنقص المعرفة الفنية وصعوبة الحصول على أدواتها التى يحصل عليها فى أوربة الغربية.

« ويستعمل الأوربى مقدارا من المخصبات يساوى أكثر من ضعف ما يستعمله الأمريكى ، وما يستعمله اليابانى يساوى ضعف ما يستعمله الأوربى منها ، وقلما تستعمل المخصبات فى الهند لندرتها وقلة ما يعلمه الفلاح الهندى عنها . ويقال مثل ذلك عن الخبرة بتحسين النبات على حساب وسائل انمائه وتربيته ووقايته من الآفات والأوبئة ، مما يجهله أبناء الأمم المتخلفة .. وقد ساعد ارتقاء الآلات كما ساعد ارتقاء وسائل التربية والوقاية على توفير محاصيل النبات . ولكننا حريون ألا نبالغ فى جدوى الآلات فيما يتعلق بغلة الفدان ، فان أكبر ما تجديه الآلات أن تزيد المحصول بنسبة اليد العاملة وتنقص ساعات العمل ، فيخلو الوقت للاشتغال بأعمال الصناعة ، وتلاحظ فى الواقع علاقة وثيقة حيث تتقدم الصناعة بين نسبة التركيز وعدد الأيدى المتفرغة للزراعة . ففى اليابان التى تبلغ نسبة التركيز فيها أقصاها يستخدم نصف قوتها العاملة فى انتاج هذه النسبة ، ويستخدم فى أوربة الغربية عدد يتراوح بين الربع والثلث ، ولا يزيد عمال الزراعة فى الولايات المتحدة على تسعة من كل

مائة عامل . فلا غنى لتركيز وسائل الزرع من تركيز القوى العاملة .

« ويفهم من المقارنة اذن أن المقصود هو أن يكون من المتيسر رفع نسبة الانتاج فى الأرض الصالحة للزراعة وأن يتيسر ذلك بنشر المعرفة الفنية ونشر أدواتها بين أبنـاء البـلاد المتخلفة ، وينبغى أن تتيسر المضاعفة — وأكثر من المضاعفة — برفع نسبة الانتاج هناك الى مثل نسبتها فى بلاد أوربا الغربية .

« ولنسأل : ما مبلغ السرعة التى نترقبها نتيجة لنشر المعرفة الفنية وأدواتها الفعالة ؟ فعلينا لمواجهة هذا البحث أن نراجع مدى التقدم حيث تستخدم هذه الأدوات الآن . فاليـابان بدأت فيها الثورة فى أساليب الزراعة منذ منتصف القرن التاسع عشر وظل عـدد سكانها من قبل سنة ١٨٧٠ ثابتا كما ثبتت مثله مقادير انتاج الأرز ومقادير انتاج المواد الغذائية ، ويمكن الرجوع الى الاحصاءات منذ سنة ١٨٧٨ الى الآن ... فمن عشرة السبعين ارتفع محصول الأرز ارتفاعا بطيئا مطردا حتى زاد على الضعف خلال فترة من خمسين الى ستين سنة ، وجاء ذلك نتيجة لزيادة غلة المحصول من كل فدان ، تبعا لزيادة المخصبات وزيادة العناية بتوليد النباتات ، وقد قوبلت زيادة الغلات اليابانية خلال ربع القرن الأخير — من القرن التاسع عشر وربع القرن الأول من القرن العشرين — بما يوازنها فى غلات أوربة الغربية . فكانت نسبة الزيادة هنا وهناك بمقدار اثنين فى المائة كل سنة تؤدى الى ضعف المحصول بعد خمسين أو ستين سنة ، مما يفهم منه أن زيادة الزراعة بطيئة بالقياس الى زيادة الصناعة ، اذ قد علمنا أن محصـول الحديد والصلب فى اليابان كان يتضاعف كل خمس سنوات خلال هذه الفترة . ولنلاحظ أن الانتـاج الزراعى يترقى من مستوى هابط الى حده الأعلى ، فلم تتغير النسبة

الا قليلا فى اليابان منذ سنة ١٩٣٥ على الرغم من جهود التركيز الفنية .

« ففى الماضى اذن كانت زيادة الانتاج الزراعى بنسبة اثنين فى المائة كل سنة ، سواء فى آسيا أو أوربة الغربية . فهل ينتظر الوصول الى نسبة أكبر من هذه النسبة فى المستقبل بعد تقدم المعرفة الفنية وتقدم وسائل النشر والتلقين ؟ وجواب هذا السؤال أننا نعلم فعلا كيف نزيد مقدار الغذاء وكيف نزيد سرعة انتاجه ، ولكن زيادة غير كبيرة . ففى الولايات المتحدة — مثلا — زاد الانتاج الزراعى خلال العشرين سنة الأخيرة بنسبة اثنين فى المائة كل سنة ، بعد ما توافر لدينا من المعرفة بعلوم الحياة وعلوم الزراعة ووسائل الارشاد والمشورة ، وتكاد نسبة الزيادة فى الطعام — على هذا — تضارع نسبة الزيادة فى عدد السكان . ومن المعلوم أن سكان الولايات المتحدة يحصلون على الكفاية من الغذاء فلا تلح الحاجة بتعجيل النظر فى مضاعفة المنتجات . فلنوجه النظر اذن الى بلد معرض لنقص الأرزاق والثمرات .

« لقد أفاد برنامج حسن التحضير من مؤسسة روكفلر فى زيادة الانتاج بأرض المكسيك بنسبة ثمانين فى المائة خلال عشرين سنة ، تعادل أربعة فى المائة كل سنة . وقد ارتفعت نسبة الطعام بحساب الفرد الواحد ارتفاعا مناسبا مع تكاثر عدد السكان بنسبة ثلاثة فى المائة كل سنة ، وهذه الزيادة الملحوظة انما تيسرت بتوسيع مساحة الأرض المزروعة نتيجة لتحسين الرى وتعليم الزراعة وشتى المباحث الفنية ، وحصلت المكسيك أثناء ذلك على معونة فنية من الولايات المتحدة ساعدت على انجاز هذا التطور ، ومنه نرى مبلغ ما نترقبه — حدا أقصى — للتقدم الزراعى على الأقل فى حالة الافتقار الى التطورات الاجتماعية . أما البلاد الآسيوية فقد كان التقدم فيها دون هذا فى السرعة ولم تتجاوز نسبته نسبة

الزيادة فى عدد السكان الا بشىء يسير . ويصدق هذا حتى على بلاد كالهند بذلت فيها ولا تزال تبذل مجهودات قوية لتحسين أحوال التغذية، اذ يبلغ المال المخصص للزراعة فى مشروع السنوات الخمس نحو خمس نفقات المشروع كله ، فتقررت أعمال الرى وأنشئت معامل السماد ونشرت دروس التعليم ، وأدت هذه الجهود الى زيادة نحو خمس عشرة فى المائة ، أى بمعدل ثلاثة فى المائة كل سنة ، ولا يزال نصيب أهل الهند من الغذاء مع هذا أقل مما كان قبل الحرب العالمية الثانية ، اذ بقى انتاج الطعام على حاله اثنتى عشرة سنة قبل الابتداء فى مشروع السنوات الخمس على حين كان عدد السكان مستمرا فى الزيادة .

« ... وقد علم من جداول الاحصاء والمقابلة أن زيادة الانتاج بوسائل الزراعة التقليدية لا تزال ترتفع حتى تنتهى الى مستوى يصعب المزيد عليه . فمما يسوغ لنا الأمل فى مضاعفة الغلات أن كثيرا من المساحات الزراعية فى العالم لا تزال بحالتها الهابطة قابلة للمزيد من التحسين . فكم من الناس على ظهر الكرة الأرضية نستطيع أن نزودهم بالمئونة الكافية بعد الانتهاء الى الحد الأقصى ؟

« ... بعد تذليل الصعوبات الاقليمية فى مناطق الأرض المختلفة يمكن تقدير المساحة التى يتم استصلاحها بنحو بليون فدان تظهر فوائدها الكبرى فى القارتين الأمريكتين حيث تزداد المساحة بمقدار خمسين أو ستين فى المائة ، وأقل من ذلك فوائدها للقارة الآسيوية حيث تقدر الزيادة بثلاثين فى المائة . فاذا تم ارتفاع الانتاج فى هذه المساحات على النسبة المعهودة بالقارة الأوربية بلغ محصولها نحو ضعفى محصول الكرة الأرضية فى الوقت الحاضر واحتاج اتمام العمل فيه الى زمن يتراوح بين ثلاثين وخمسين سنة والى مقدار من المال يبلغ نحو خمسمائة

بليون دولار تنفق لاقامة مراكز الارشاد على جوانب الكرة الأرضية وانشاء معامل السماد ونشر التعليم ... ويكفى المحصول — متى تمت جميع هذه المجهودات — لتموين عدد من السكان يتراوح بين أربعة بلايين أو خمسة ، وهذا على اعتبار أن سكان آسيا يظلون فى تغذيتهم مكتفين بنسبة قليلة من المواد الحيوانية ، وأن سائر سكان العالم يظلون مكتفين بتمثيل عشرين فى المائة من أسعار الحرارة فى الأغذية الحيوانية ، وهو مقدار مناسب ملائم للصحة ، وان لم يكن على أحسن ما يشتهى فى ألوان الطعام .

« ... ولكن ماذا ينتظر متى بلغت غلة الفدان فى العالم ما يقارب غلته فى أوربة الغربية ؟ هل لنا أن نأمل مزيدا من ارتفاع النسبة على أساس التجربة فى اليابان ؟ قد نجازف بجواب عن هذا السؤال وننتظر مضاعفة النسبة بالاعتماد على مزيد من التركيز واستخدام التجارب العلمية والاكثار من جهود الأيدى العاملة . فاذا تأتى لنا بهذه الوسائل أن نرفع النسبة فى ثلث المساحة المزروعة من الكرة الأرضية وأن نبلغ بثلثيها ما يعادل النسبة الحاضرة فى أوربة الغربية أمكننا — نظريا — أن نزود بالمؤونة عددا يتراوح بين سبعة بلايين وثمانية على معدل مناسب من التغذية الصالحة .

« والخلاصة أن توفير الأزواد الغذائية مستطاع بالتوسع فى تطبيق الأساليب الفنية ، وأن مضاعفة الغلات الزراعية تتأتى بزيادة الرى ، وزيادة المخصبات ، وزيادة المطهرات من الحشرات وجراثيم الآفات ، وزيادة التحسين فى أنواع النبات ، وزيادة التركيز على المثال المتبع فى اليابان . ونسبة هذه الزيادة فى السنة بين اثنين وأربعة فى المائة كل سنة ينبغى أن تجرى على وتيرة الزيادة فى عدد سكان العالم ، ومتى وصلنا الى هذا

المستوى فى زمن يقدر بما بين خمس وسبعين سنة ومائة سنة يكون عدد السكان قد بلغ مستوى الاستقرار .

وكل هذا عن الأطعمة التقليدية ووسائل التحضير الشائعة فى الرى والزراعـــة .

« غير أننا نستطيع أن نعالج بالكيمياء أجزاء من النبات تنبـــذ ولا تؤكل من قبيل الخشب والهشيم . ومن الممكن أن تعالج هذه النفايات بالأحماض الحارة فنجنى منها شرابا عسليا بمقدار النصف من زنتها ، ويكلفنا ذلك عشرة أمثال تكاليف العسل الذى نستخرجه من الســـكر والبنجر ، بل يمكن بعد ذلك أن تعالج هذه الأشربة بالخمائر لنجنى منها مادة غنية بالبروتين ، كما أن الخمائر المستخرجة من العسل تصلح لتغذية الانسان .

« والخطوة العملية التى تجدى فى تحقيق الغاية الثابتة من تنمية الغذاء العالمى ينبغى أن تتصل بتدبير الماء . اذ هناك بقاع شاسعة تثمر الغذاء الوافر اذا استطيع تخصيبها بالأمواه الكافية . فالبقاع المزروعة الآن بالوسائل التقليدية تساوى مساحتها نحو أحد عشر فى المائة من الأرض المزروعة ، وهى تزداد زيادة سريعة فى أمريكا الجنوبية وآسيا ، ويقدرون أن أربع عشرة فى المـــائة من الأرض يروى بتلك الوســـائل التقليدية اذا حسن تصريف أمواه الأنهار فى أرجاء العالم ، وقد يرتفع هذا المقدار الى عشرين فى المائة ، يجرى ريها وزرعها بالنفقات العادية ، وقلما تكفى مياه الأنهار والينابيع لزراعة مساحة أكبر من تلك المساحة ، فلا أمل اذن فى تخصيب الصحارى والسهوب بالوسائل التقليدية وهى تزيد فى اتساعها على مثلى سعة الأرض المزروعة ، وعلينا أن نلجأ الى ماء البحر لاستخدامه فى اصلاح الأرض البور وزرعها . فكيف يتأتى

ذلك بالطرق الاقتصادية ؟ ان تكاليف الفدان الواحد من ماء البحر بعد تصفيته واعداده للري تساوي ضعف ثمن الغلة التي تجنى منه ، فضلا عن تكاليف الأقنية والقناطر والأنابيب الموصلة للماء ، ولكن اصلاح الصحاري البور يظل مع هذا بابا مفتوحا عند الاضطرار .

« ... أما عن الطاقة اللازمة فان الوقود الذي يستنفده العالم — اذا بقي على حاله ولم يطرد في الزيادة — يظل كافيا الى زمن غير محدود ، حتى لو نفدت جميع موارد الفحوم والحفريات ، وذلك باستخدام القوى المائية والانتفاع بأحطاب الغابات ، ولكن هذا الوقود اذا ازداد عليه الطلب كما رأينا وامتد الازدياد بعد نفاد البترول فلا مناص للانسان من اللجوء الى أنواع من الطاقة غير أنواعها التقليدية . ونعرض لأنواع هذه — الطاقة المحتملة — فنرى أن ما كان منها من قبيل حرارة الأرض وقوى الرياح والتيارات المائية — على أحسن ما يرجى منها — محدود الفائدة ، اذ المواقع التي يستفاد فيها من تسخير هذه القوى قليلة اليوم بين أرجاء المسكونة ، وهي متى حسبت تكاليفها تبين أنها أقل بكثير مما يتطلبه سكانها ، ولنذكر على نطاق واسع أن معولنا الأكبر يزداد شيئا فشيئا على الطاقة المستمدة من الشمس والطاقة النووية ، وكلتاهما كما نعلم الآن من الوجهة الفنية ميسور الاستغلال ، وانما المسألة في أيهما أوفر نفعا تئول الى المسألة الاقتصادية .. وقد وضعت تركيبات شتى لتحويل الطاقة الشمسية الى كهربا ولكنها كانت كلها كبيرة النفقة . ففي الأقاليم الحارة يستطاع استبدال الطاقة الشمسية بوقود الحفريات في توليد الكهربا من تسخين الماء ، وينبغي لتحقيق ذلك أن تقام الصفائح المعدنية لاستجماع الأشعة ، وربما بلغت نفقات العدد المقامة على كل فدان نحو عشرين ألف دولار ، تربى تكاليف كهربائها على جميع التكاليف

المعهودة . ويمكن توليد الكهرباء أيضا من تسليط الأشعة على ما يشبه الموصلات الكهربائية Semi Conductors ، وينتفع بها فى بعض الصناعات الصغيرة ، ولكن توسيع العمل بها يقتضى من النفقات ما لا يطاق .

« وبين وسائل الانتفاع بالطاقة الشمسية غرس الأشجار فى الشمس واحراق أحطابها ، أو تخمير السكر الذى نحصل عليه من غرس القصب والبنجر ، ويستخرج منه الكحول أو الغازات والسوائل لاستخدامها فى توليد الكهرباء ، ولكن الحاجة الىالأرض المزروعة لتدبير الطعام لا تبقى من مساحاتها بقية تذكر لغرس أشجار الوقود . وثمة وسيلة بارعة وضعت أخيرا لتوليد الطاقة من طحلب يربى فى مناطق مشبعة بثـانى أكسيد الكربون ، ويجمع الطحلب ويخمر لتكوين الميثين والهيدروجين ، ثم تحرق هذه الغازات لتوليد الكهرباء ، ثم يرد ثانى أكسيد الكربون لتربية الطحلب ، ويتأتى بهذه المثابة فى الاحوال الملائمة أن يتحول من واحد الى ثلاثة فى المائة من الطاقة الشمسية الى كهرباء ، والجهاز الذى يقام على هذا الأساس يمكن أن نحصل منه على الكهرباء بسعر يتراوح بين سنتين ونصف سنت وبين خمسة سنتات للكيلووات فى الساعة ، وتقدر قيمة الوقود السائل المستخرج منه بمائة وخمسين دولارا للطن الواحد ، ومع الشك فى امكان مزاحمة الطاقة الشمسية للطاقة النووية فى توليد الكهرباء فى نطاق واسع يلوح لنا أنها نافعة جدا فى النطاق المحدود ... والأرجح أن أهم وجوه النفع من الطاقة الشمسية فى المستقبل انما يقوم على تدفئة الفضاء ، ونحن نعلم أن المنازل يمكن أن تبنى فى الأقاليم الحافلة بالسكان بحيث يعتمد فى تدفئتها على الطاقة الشمسية دون غيرها الى ما يوازى مدينة بوسطن فى الشمال ، وربما حالت التكاليف الاضافية اللازمة لتشييد المساكن دون استخدامها على سعة ، ولكن المأمول عندما

تعلو أسعار الوقود أن يبنى معظم المساكن بحيث تنتفع غاية الانتفاع بالطاقة الشمسية .

« واننا لعلى يقين معقول الآن من امكان الحصول على الكهرباء من الطاقة النووية بسعر يقل عن سنت واحد للكيلووات فى الساعة ، (عشرة ملات Mills) ... وفى مؤتمر المصالح السلمية للطاقة النووية الذى انعقد بمدينة جنيف سنة ١٩٥٥ هبط التقدير الى أربعة ملات ، والمنظور فى الولايات المتحدة أن يساوى فى المستقبل من أربعة ملات الى ستة . وقد درس سابير Sapir ، وفان هيننج Van Hyning حالة الطاقة النووية فى اليابان فتبين لهما أنه من الممكن الحصول على الكيلووات فى الساعة بسعر عشرة ملات حوالى سنة ١٩٦٠ وبسعر سبعة ملات حوالى منتصف سنة ١٩٧٠ تقارب تكاليفه خمسة ملات . ويقابل هذا السعر ستة أو سبعة ملات لما يستخرج من الفحم حديثا فى الولايات المتحدة وثمانية عشر ملا فى اليابان . ويرى — من ثم — أن الطاقة النووية قد تنافس الفحم فى مستقبل غير بعيد وأنها وشيكة أن تعم أقطار العالم فى حينها .

« وتختلف الأحوال فى معظم بلاد العالم عما هى عليه فى الولايات المتحدة فيما يتعلق بوفرة الوقود .. فاذا أضيف الى هذا الاختلاف بعض العوامل الأخرى كان للفارق مظهر أدعى الى الالتفات ، وأحد هذه العوامل فرق العملة الأجنبية . فان البلاد التى تعانى أزمة التوريد وتتكلف الكثير لمقابلة الواردات من الفحم والبترول بما يساوى قيمتها من محصولاتها — قد ينتهى بها الأمر الى تفضيل الاعتماد على الطاقة النووية مع ارتفاع سعرها . وهناك عامل آخر من عوامل الاختلاف يرجع الى اجتهاد كل أمة فى تدبير وسائل الكفاية الذاتية ، وليس تدبير أمر البترول

بالأمر الموثوق به ، اذ كان شطر كبير من ينابيع بترول العالم كامنا فى الشرق الأوسط حيث تغلب الحساسية لأطوار العلاقات الدولية ، وكثير من الأمم تحتمل التكاليف العالية لاستخدام الطاقة النووية وتفضل ذلك على مورد أرخص منها ولكنه غير مضمون .

« ويظهر أن الاتحاد السوفيتى له حالة خاصة فيما يتعلق بلوازم الطاقة الذرية . فان بلاد الاتحاد — علـى ما تملكه من مناجم الفحم الغنية — يقع فيها معظم هذه المناجم بين أرجاء سيبريا ، وتظل بقيتها مفتقرة الى الوقود ، ولهذا يستورد فى كل سـنة على ما يظهر نحو خمسة عشر مليون طن من الفحم من قره غنده وقازاقستان الى روسيا الأوربية ، وهى مسافة تبلغ من ألف وخمسمائة ميل الى ألفى ميل ، وهذا أحد الأسباب التى حملت الحكومة السوفيتية على الاهتمام بتصنيع سيبريا ، وهو كذلك أحد الأسباب التى دعت الى اقامة خمس محطات لتوليد الطاقة النووية فى موسكو ولننجراد وجبال الأورال . ومن خلاصة ما تقدم يرى جليا أن الطاقة النووية سيكون لها دور هام فى بقاع كثيرة من العالم وبخاصة فى أوربة وأمريكا الجنوبية والشرق الجنوبى من آسيا واليابان ، وان ذلك يتم حالما يتهيأ اعداد الأجهزة الصالحة لتوليد الكهرباء بسعر عشرة ملات للكيلووات الواحد فى الساعة أو أقل من ذلك . ومن سخرية المصادفات أن الولايات المتحدة التى تملك — على الأرجح — أتم المعدات الفنية لاستخدام الطاقة النووية لا تشعر بالحاجة اليها فى الوقت الحاضر الا فيما يلزم للمقاصد العسكرية ، وانها عندما تشعر بالحاجة اليها سوف يأتى ذلك على بطء بالقياس الى الكثير من بلدان العالم .

« .. وكلما قاربت ودائع العالم من البترول أن تنفد — كثر الاقبال على استخراج الوقود السائل من الصفائح الصخرية ورمال القطران

وتقطير الفحم ، ومن حوالى سنة ١٩٧٥ ينتظر أن تتسع الفجوة بين البترول والفحم باعتبارهما ينابيع أولية لتوليد الطاقة ، وينبغى بعد سنة ١٩٨٠ أن تكون للطاقة النووية نسبتها المحســوسة باعتبارها بديلا للوقود المستخرج من الحفريات فى توليد الكهرباء ، وقد تبلغ هذه النسبة ثلث المستنفد من الطاقة حوالى نهاية القرن العشرين .. فاذا قارب القرن المقبل منتصفه ، فالغالب أن يكون المعول على الطاقة النووية فى أكثر ما نحتاج اليه مع الاحتفاظ بودائع الفحم لتوليد الوقود السائل وبعض المواد الكيمية .

« ولنسأل الآن : كم من الزمن ننتظر أن تبقى فى الكرة الأرضية ذخائرها من عنصر الأورانوم وعنصر الثوريوم صالحة لتزويد هذا العالم الصناعى بالوقود ؟.. ان هذين العنصرين هما — كالفحم والبترول — من وقود الحفــريات ، تكونت كلها مع تكوين العناصر الأرضــية ولا يتكونان الآن من جديد ، فمقدار ما نحصل عليه منهما محدود ، ولكنهما — على هذا — ينتجان من الطاقة أضعاف ما يحتويه الفحم والبترول ، ويرجع ذلك الى أن العنصرين موجودان فى الطبقات السفلى بمقادير وافرة من بقية القشرة الأرضية .

« وتحتوى القطعة العادية من الصخر المحبب — الجرانيت — أجزاء عنصر الأورانيوم بنسبة أربعة من المليون وأجزاء عنصر الثوريوم بنسبة اثنى عشر من المليون ، الا أن كلا من العنصرين فى الطن المتوسط يحتوى ما يساوى طاقة خمسين طنا من الفحم ، ومن الطبيعى ان هذه الطاقة ليست كلها ميسرة للانتفاع بها لما تستلزمه عملية اخراج العنصرين من التكاليف بين كسر الحجارة وسحقها ونقل صفوتها الى المعمل الكيمى ، ولا حاجة الى القول بأن هذه العملية لا تجدى شيئا اذا تساوت تكاليف

الطاقة اللازمة لها وتكاليف الطاقة التى تستمد بعد ذلك من العنصرين.

« على أنه قد تبين أن العنصرين يوجدان فى الصخر على نحو يجعل الطاقة اللازمة لاستخلاصها جد قليلة ، ويستطاع لهذا أن يستخلص من طن الصخر ما يعادل الطاقة المستمدة من خمســـة عشر طنا من الفحم بتكاليف معقولة من الوجهة الاقتصادية ومعنى هذا أن الانسان غير مفتقر الى استخدام أجود أنواع الأورانيوم والثوريوم لتوليد الكهرباء ، اذ يستطيع أن يعول على الموجود منهما فى القشرة الأرضية .

« ويحتمل على طول المدى أن تتولد الطـــاقة من تفاعل الحرارة والطاقة النووية ، أى من التحام الهيدروجين باعتباره عملا مستقلا عن انشقاق الأورانيوم ، ولا يعلم الى الآن كيف تجرى هذه العملية وان كان امكانها حقيقة مسلمة ، فاذا تمكن العلم من تذليل المصاعب الفنية فكل ما على الأرض من البحار مدد صالح للانتفاع به فى توليد هذه الطاقة . وقد تكون هذه العملية أكبر كلفة من عملية شق الأورانيوم . الا أنها حاضرة للانتفاع بها فى حينها يوم يحتاج اليها .

« ... ويتضح فى الختام أن ذخائر الطاقة التى يعتمد عليها الانسان موفورة الى زمن بعيد ، وعلينا أن نحول هذه الذخائر من قوة مخزونة الى قوة فعالة ، وأن السؤال عن امكان هذا التحويل فى الوقت المناسب لسؤال حقيقى بالتوجيه والتأمل . اذ يتوقف جوابه على خليط مشتبك من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية »[1] .

---

(١) هذا الفصل ملخص بتصرف من كتاب « مائة السنة التالية » .

٢ — التعـــــليم

أخذ الغربيون اسم المدرسة من كلمة يونانية بمعنى الفراغ · لأن طلب العلم كان فى الزمن القديم شاغلا من شواغل الفراغ يستطيعه من يستغنى عن العمل أو يعجز عنه . فمن علامات الزمن أن تصبح المدرسة مدار العمل كله ، لا يستغنى عنه أحد فى جميع الوظائف الاجتماعية ، وتدعو اليه ضرورات المعيشة كما تدعو اليه مطالب الفهم والتهذيب .

لابد من المصانع لتزويد العالم بمعرفة المعيشة ، ولابد من الخبراء والصناع لادارة المصانع ، ولابد من المدرسة لتخريج الخبراء والصناع. ويكاد المختصون بتدبير مطالب التعليم الفنى فى الحاضر والمستقبل أن يشعروا بأن الحاجة أكثر من العدد المطلوب .

يقول مؤلفو كتاب مائة السنة التالية :

« تعتبر الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر أدق المجتمعات تركيبا صناعيا فى العالم · اذ تمهد الفرص التى تكاد لا تحصى للتعليم من شتى فروعه مع الحرية فى اختيار الوظائف والأغراض الفنيـــة . فاذا درسنا الموارد التى تؤخذ منها القوى الفكرية دراسة نقد وتحليل تسنى لنا أن نلم بمثال حسن لقضايا العرض والطلب فى مسألة تدبير المهندسين والعلماء مع الحرية الاقتصادية .

« ومنذ سنوات عدة يلاحظ النقص فى عدد العلماء والمهندسين ، وهو نقص يزداد حرجا ولا نرى له الآن نهاية قريبة · وبلغ من حرجه أن المنظمات الصناعية تحد من جهود البحث والتحسين لقلة العاملين المدربين ..

« ... وتتباين الآراء عن السبب الصحيح لهذا النقص الحاضر ، فيرى بعضهم أنه راجع الى نقص المواليد فى سنوات الكساد وما تلاه من نقص الاقبال على معاهد التعليم العليا حوالى سنة ١٩٥٠ ، ويرى آخرون أن كثرة الطلب على الخبراء من جراء النفقات الكبيرة على شئون الدفاع هى التى أدت الى الشعور بذلك النقص . وسنرى على أية حال ان النقص انما جاء من دقة التركيب الصناعى فى الولايات المتحدة وقصور وسائل التدريب والتحضير عن مداركة الطلب على حسب الحاجة » .

وبعد الافاضة على هذا النحو فى شرح وجوه الحاجة الى الطاقة الفكرية وازدياد هذه الحاجة على توالى الأيام عقد مؤلفو الكتاب فصلا بعنوان « مدى الطاقة الفكرية المدخرة » بدءوه بهذا السؤال : ما هو أقصى ما يتيسر لنا من ذخيرة الطاقة الفكرية ؟ ثم أجابوا عنه بما يلى :

« اننا نستطيع أن نحصل على ضعفى عدد العلماء والمهندسين اذا أزلنا العوائق التى تتعرض من جرائها لنقص التعليم بين الفئة الصالحة لاتمام تعليم الكليات فى العلوم والهندسة . ويتضاعف هذا العدد مرة أخرى اذا فتح باب التعليم الفنى للنساء وأمكن اغراؤهن بالاقبال عليه وشجعن على هذا الاقبال . وهذه الزيادة المضاعفة تعطينا أربعة أمثال العدد الذى نخرجه الآن من العلماء والمهندسين دون أن نمس بمطالب الصناعات الأخرى . وكذلك يزداد نفع ذوى الكفايات الفنية اذا نحن أحسنا استخدام قواهم كما ينبغى وشجعناهم على المزيد من الانتاج والابتكار . فتصبح ذخيرتنا من الطاقة الفكرية ثمانية أضعاف ما نحصل عليه الآن . وقد تقدم أن لاحظنا أن المحصول السنوى وعدد المتخرجين من العلماء والمهندسين يبلغ عشرة أضعافه كل خمسين سنة فى الولايات

المتحدة منذ سنة ١٨٠٠ وتساءلنا هل يمكن تكرار ذلك فى نصف القرن الباقى منذ اليوم الى سنة ألفين ؟ فنقول ان تكرار ذلك مرجح ، وأنه فيما يتعلق بالولايات المتحدة يستطاع الوصول الى عشرة أضعاف مالدينا من المحصـــول الفنى وعـــدد العلماء والمهندسين . وربمـــا كان ذلك هو الختام .

« ومن المهم أن ننبه أن هذه النتيجة ميسرة بغير حاجة الى حمل الطلاب على ترك الدراسات الأخرى التى تساوى هذه الدراسات فى اللزوم والفائدة . فليس فى تقديرنا أن يزيد عدد الخريجين من العلماء والمهندسين وأن تتغير نسبتهم المطردة منذ ثلاثين سنة بل تبقى على حالتها الى نهاية القرن العشرين .

« ومن المهم كذلك أن نذكر أن المدد الذى يتوافر لنا من العلماء والمهندسين لن يظل على ازدياد الى غير نهاية فى المستقبل على نسبة هذه الزيادة فيما مضى ... وفى أوربة — كما فى الولايات المتحدة — ينقص مدد الطاقة الفكرية ، فيبلغ عدد العلماء والمهندسين فى أوربة الغربية أربعمائة وخمسة وعشرين ألفا من مجموعة السكان الذين يبلغون مائة وأربعة وخمسين مليون نسمة ، ويقابل ذلك فى الولايات المتحدة سبعمائة وستون ألف مهندس من عدد السكان الذى يبلغ مائة وثمانية وستين مليون نسمة ، وينطبق على الحالة فى القارة الأوربية كل ما ينطبق عليها فى الولايات المتحدة ، مع ملاحظة الفارق بين التعليم الجامعى هنـــاك والتعليم الجامعى عندنا ، ففى الولايات المتحدة يلاحظ أن ثلاثين فى المائة من كل طبقة من طبقات السن ينبغى أن يتمموا التعليم فى الكلية ، على حين أن التعليم العالى فى أوربة مقصور على النخبة القليلة ولا تزيد نسبة المتممين للتعليم بالكليات على خمسة فى المائة ، وسيزداد عدد العلماء

والمهندسين زيادة كبيرة كلما اتسع نطاق التعليم الحر وتمكن الطالب من المضى فيه الى غاية استعداده .

« على أن الحالة فى الاتحاد السوفيتى تختلف عن كلتا الحالتين وتتيح لنا بابا نافعا من أبواب المقارنة بين النظم والاجراءات . ففى الاتحــاد السوفيتى ينظم التعليم العام بحيث يوافق حاجة الدولة وينظر الى مهمة التعليم نظرة عالية ، والشاب الروسى يشجع على الترقى فى درجات التعليم الى أعلى ذروتها وينال من الامتيازات والوظائف بقدر ما ينال من محصول الدراسة ، وينتقل الطالب من درجة الى درجة فى مراحل الدراسة حسب نجاحه فى امتحانات المسابقة ، وتتكفل الدولة بنفقات التعليم وقد يمنح بعض الطلاب معونة فى أثناء سنواته المدرسية ، وتتجه العناية فى التعليم العالى الى العلوم الفنية كما تتجه الى الطب والزراعة وصناعة التدريس . ونحو نصف طلاب المعاهد العليا يتفرغون لهذه الدراسات ، وستون فى المائة منهم متخصصون للدراسة الفنية والعلوم الطبيعية .

« فالاتحاد السوفيتى يشعر بمسيس الحاجة الى التعليم الفنى لمتابعة التقدم السريع فى سياسة التصنيع ، وينجم عن ذلك أن يلاحظ فى نظام التعليم أن يجور عدد الفنيين على عدد المتخصصين للمباحث الذهنية ، واذا تخرج الطالب من المدرسة العليا يكون قد أمضى ست سنوات فى علم الحياة (البيولوجى) وخمس سنوات فى العلوم الطبيعية وأربع سنوات فى الكيمياء وأربعا فى الرياضيات ، يقابل ذلك عندنا أن الطالب الذى يريد أن يتخصص للعلم يمضى سنتين فى دراسة علم الحياة وسنة فى العلوم الطبيعية وسنة فى الكيمياء وثلاث سنوات فى الرياضيات . والطالب الروسى فى مستوى تعليم الكلية يعتبر من السعداء المجدودين اذا استطاع أن يصل الى مدرسة فنية ، لأنه يتمكن بذلك من الارتقاء

الى الطبقة الممتازة فى البلاد الروسية اليوم ، وفى وسعه بوظيفته العلمية أو الهندسية أن يقتنى سيارة ويسكن فى جناح مستقل ويحصل على مرتب حسن ويشغل مركزا من مراكز التقدم والنفوذ ، وعلى هذا نجد أن الروسيين قد عملوا بكثير من النظم والاجراءات التى بحثناها فيما تقدم ورأينا أنها مجدية فى الاستكثار من المهندسين والعلماء فى الولايات المتحدة . فالاتحاد السوفيتى اذن قدوة يحتذى بها فيما يمكن ادراكه اذا روعى فى نظام التعليم كله أن يدار لغرض واحد وهو تخريج أكبر عدد مستطاع من العلماء والمهندسين والأطباء والمدرسين مع التضحية القريبة بالدراسات الأخرى من قبيل العلوم الانسانية والأشغال والتجارة . وقد كان من نتيجة هذه الخطوة أن الاتحـاد السوفيتى يسبق الولايات المتحدة ويخرج ضعف ما تخرجه من المهندسين والعلماء .

ويلوح لنا من المحتمل أيضا أن هذه الفجوة ستتسع فترة أخرى من الوقت . ويضاف الى هذا أن جميع المهندسين والعلماء فى الاتحـاد السوفيتى يعملون فى صناعاتهم على حين أن الذين يعملون فى صناعاتهم عندنا حوالى ثلثى المهندسين وثلث العلماء ، وأن نحو الثلث من الفنيين فى الاتحاد السوفيتى نساء ، ومعدل النسبة فى تخرج المهندسين والعلماء هناك توحى الينا أن الأمة التى تريد أن تقتدى بالاتحاد السوفيتى وتتخذ لها خطة كخطته الصارمة فى التهوين من شأن الدراسات غير الصناعية سوف تصل الى نتيجة أكبر من النتيجة التى أشرنا اليها آنفا ، ولكن مع تضحية ذات بال بالحرية .

وفى وسعنا عند تقدير الطاقة الفكرية المدخرة فى الأمم المتخلفة أن نجرى على المنهج الذى توخيناه عند الكلام على الولايات المتحدة . لأن توزيع الملكات الذهنية على قدر ما نعلم مشابه لتوزيعها بيننا ، ويكاد

أن يكون المتوسط من ثلث أبناء الأمة الى نصفهم قادرين من وجهة الملكات الذهنية على كسب معرفتهم فى معاهد التعليم العليا .

« وهنالك كما لا يخفى عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية يرى معها أنه من البعيد — ان لم يكن من المستحيل — أن تقدر تلك الأمم اليوم على تخريج المتعلمين فى الكليات بهذه النسبة . فليس ثمة دلائل على التقدم الذهنى ظاهرة فى المجتمعات البدائية أو فى تلك المجتمعات التى لابد لها من تركيز جهودها المباشرة لتحصيل ضروراتها من الطعام والمأوى ، مما يسمح لنا — نظريا — أن نقدر وجود ودائع من الطاقة الفكرية لم تمس الى الآن فى أرجاء العالم ، وبينما تتناقص هذه الودائع فى الولايات المتحدة وأوربة الغربية تظل فى العالم بجملته ودائع عظيمة منها . فاذا استطاعت الهند بما فيها من سكان يبلغون ثلثمائة وستين مليونا أن تخرج من المهندسين والعلماء عددا يضارع فى نسبته أقصى ما نستطيع تخريجه — أى أربعة أمثال عددهم الحاضر — ففى وسعها أن تخرج أربعمائة وخمسمائة ألف كل سنة ، وهو عدد يكاد يساوى عدد المتعلمين من حاملى البكالورية العلمية عندنا فى الوقت الحاضر .

« وظاهر — من ثم — أن رصيد الطاقة الفكرية العالمية — عظيم جدا . وكلما مضت الأمم الأخرى فى التصنيع تضاعف العمل الذى يبقى على الطاقة الفكرية أن تنجزه ، وقد يتيسر لنا فى الولايات المتحدة أن نستورد الخبراء من الخارج ونعتمد على الاستيراد كوسيلة موقوتة الى حين ، اذ لابد أن يأتى الزمن الذى يوجب استبقاء هؤلاء الخبراء فى البلدان التى نشئوا بين ظهرانيها ، ومتى نظرنا الى الأمد الطويل جاز لنا أن نقدر أن العالم سيعتمد على محصوله من الطاقة الفكرية فى أعمال التصنيع كما نعتمد نحن على طاقتنا الفكرية الآن » .

وبعد عرض هذه التقديرات عن مطالب العالم من الطاقة الفكرية استجابة لضرورات التصنيع والتموين ، عرج مؤلفو الكتاب على تقدير عوامل النكسة التى قد تعرض لبرامج التنظيم فى المجتمعات المصنعة على احتمال وقوع الحرب أو توقعها وما يستدعيه هذا التوقع من صرف الجهود الى أعمال الدفاع والتسليم .

قالوا من فصل عنوانه : نظرة الى الأمد البعيد :

« ان المجتمع المصنع أشد استهدافا للخلل والتهدم مما يخطر للكثيرين . لاشتماله على شبكة متوشجة من المناجم والمصانع يصل بينها مباشرة — وغير مباشرة — نظام متماسك من المواصلات ، مما ينجم عنه شل الحركة فى المجتمع كله اذا أصيبت مفاتيحه المحكمة ، ويتبع ذلك امتناع وسائل الاصلاح بعد وقوع التعطيل ، فلا تتأتى اعادة الشبكة الى العمل قبل تعريض المجتمع كله للهلاك » .

واستطرد المؤلفون من ذلك الى بيان أثره فى البلاد التى لم يتم تصنيعها فضربوا المثل باقليم كجزيرة سيلان وقالوا : « انها اذا حدث — مثلا — انها لم تستطع أن تحصل على المادة المطهرة المعروفة بالدى دى تى فقد يفضى هذا النقص الى تفشى الوباء وزيادة الوفيات فجأة زيادة جائحة تمتنع معها أساليب الوقاية السهلة ، فيسرى الوباء الى البلاد التى تجاورها وتأوى مئات الملايين كالهند والصين ، وتتعرض هذه البلاد للدمار الجائح كما تعرضت له مجتمعات وافية التصنيع » .

قالوا : « وأهم من ذلك أن القدرة على الحرب تزداد بازدياد القدرة على التصنيع ، فالأمة التى تملك معدات الحرب لابد أن تملك نظاما صناعيا واسع النطاق أو أن تزود بهذه المعدات ممن يملكونها . وكلما امتدت حركة التصنيع زاد عدد الأمم التى تقدر على الحرب وعلى تزويد

نفسها بأسلحتها من المدافع والطائرات والقذائف النووية ، وقد رأينا أن اليابان وبلاد الاتحاد السوفيتى كانت بين أحدث الأمم التى دخلت ميدان التصنيع وآل بها الأمر الى المواقف الخطرة كلما تهيأت لها معدات القدرة على شن الحروب الحديثة .. ترى ماذا عسى أن يحدث اذا تسنى لأمم كالهند والصين أن تملك هذه المعدات ؟

ومن جوانب الخطر التى تواجهنـــا ذلك التلهف المعقول من قبل الشعوب على تحسين أحوالها . فالتصنيع عمل بطىء عند النظر الى عمر الانسان ، ومدة سنوات خمس أو عشر ، تبدو من حيث التصنيع خطوة سريعة جدا من خطى النمو والتقدم . ولكن الانسان الفرد يحتاج الى أمد من الزمن كى يشعر بالتحسن فى معيشته ، ويعود سبب من أسباب ذلك الى أن الجهود الأولى من محاولات التصنيع ينبغى أن تخصص لاقامة العدد والمعامل التى تستعد للانتاج بعد ذلك . فتبنى المعامل التى تصنع الآلات والأدوات ويقصر انتاج السلع والبضائع المستنفدة على أقله وألزمه . ومعنى ذلك بلغة الاقتصاد أن يكون هناك ادخار ورأس مال متجمع يترتب عليه تأجيل انتفاع المستنفد بالصناعة الى حين ، ثم يترتب على هذا التأجيل فى المدن الناشئة على الخصوص شعور بالقلق يؤدى الى الاضطراب والعنف ، ويشتد هذا القلق مع ابطاء تهيئة المطلوب من الأغذية على حسب الاستعداد الحاضر . وقد رأينا أنه من الممكن فى السنين الخمسين التالية زراعة وجه الأرض للحصول على غذاء يكفى سكان الكرة الأرضية المتكاثرين اذا استطعنا تجويد العمل الذى نقوم به الآن ، وقد يتسنى لنا تدبير الغذاء فى القرن المقبل اذا توخينا فى الانتاج وسائل أفضل من بعض الوسائل غير الاقتصادية التى تتوخاها الآن . ولكن مما يؤسف له أن انتاج الطعام الكافى لا يمنعه مانع من الوجهة

النظرية فى حين أنه من وجهة التنفيذ لا يستطاع سنة بعد سنة حسب الزيادة فى عدد الأنفس خلال تلك السنة . وما لم يتيسر لنا اقلال النسل أو التعجيل بالانتاج فعلينا أن تتوقع من أعمال التصنيع أن أقاليم يجوع سكانها ويظلون زمنا طويلا فى المستقبل جائعين . وثمة خطر آخر نواجهه اذا أفضى قلق الشعوب المتخلفة الى اقامة الحكومات المستبدة محاكاة للاتحاد السوفيتى أملا فى التعجيل بخطوات الادخار والتصنيع وتعميم الزراعة . وقد وقع ذلك فعلا فى الصين ، وتحاول الهند أن تحقق برامج التصنيع على أساس النظم الديمقراطية فى بيئة اقتصادية بعضها على نمط اشتراكى وبعضها خاضع للولاية الخاصة . فاذا استمر التصنيع واستمرت زيادة السكان وقلت الأطعمة واشتد القلق والتذمر فلا ندرى هل تقوى الديمقراطية هنالك على مقاومة الطوارىء التى خلقتها ويجوز أن تقضى عليها ؟ ففى هذه الأيام التى يتأتى فيها قلب النظام الديمقراطى بين ليلة ونهار يتعذر التحول من الاستبداد الى الديمقراطية ، لما يتوافر للحكام من ذرائع الاقناع والاخضاع .

« فاذا أمكن فى الحقبة التالية أن تتجنب الحرب النووية ، وأمكن الأقاليم المتخلفة فى الوقت الحاضر أن تحقق برامج التصنيع فقد اقتربنا من الزمن الذى يتم فيه تصنيع العالم ويستطاع فيه أن نقيم أودنا باستخدام الأردأ فالأردأ من المواد الصالحة حتى نلجأ أخيرا الى صخور القشرة الأرضية والى غازات الهواء وأمواه البحار ، ويومئذ تكون صناعة المناجم قد زالت وخلفتها مصانع كيمية متشعبة الأغراض تتزود من الصخر والهواء وأمواه البحار وتفيض منها موارد تشمل الماء العذب والقوى الكهربائية ومواد الوقود السائل والمعادن . ومتى أفضى الانسان الى هــذه المرحلة من ثقافته فقــد بلغ الى الطريق التى لا رجعــة فيها ،

فلا استئناف بعدها للطريق اذا وقع الخلل والانتقاض فى نظم التصنيع العالمية . فان السير على برامج التنظيم انما سهل الابتداء به والمضى فيه بما كان فى حوزة الانسان من موارد الحديد والفحم والنحاس والنفط والكبريت وغيرها من المواد النافعة ، وكلها صائرة الى النفاد بعد حين ، ولكن معارفنا النفيسة تتيح لنا أن نستغنى عنها ما دامت حضارة التصنيع قائمة . أما اذا وقعت الواقعة واختلف صوت الحضارة فمن المشكوك فيه أن نقدر بعد ذلك على النهوض فوق طبقة المعيشة الزراعية .

« ان المصادر اللازمة لاعادة الانتفاع بالصخر وماء البحر واعادة تركيب النظم المتشابكة من برامج التصنيع قد تكون أعظم جدا مما يستطاع السيطرة عليه . وتصور مثلا أن القوة اللازمة لاعادة الشبكة الصناعية لابد أن تستمد من مصادر نووية وأن هذه المصادر لابد أن تقام بوقود غير وقود الفحم والنفط وكل وقود عدا الصخور ، ففى هذه الحالة — مع فقدان الطاقة الصالحة — يتعذر الانتفاع ببقايا الحضارة الصناعية ، وسيأتى اليوم الذى قد تنسحب فيه المعرفة الفنية وتجنح الى الاحتجاب ، وقد حدث فى القرون الوسطى أن أمناء تلك العصور استخدموا وجهات الرخام الرومانية فى المبانى الجديدة حقبة من الدهر بعد نسيان الكثير مما عرفه الرومان من هندسة البناء ، وان الذى يحدث غدا فى مثل هذه الحالة لأعظم مما حدث من قبل بكثير .

« وكذلك نرى أن مشكلات الغد كثيرة خطيرة ، واننا من الوجهة النظرية قادرون على تدبير حلولها بما نملكه من القدرة الفكرية ، ومثال ذلك أن بعض الأخطار يسهل اتقاؤها باقامة الهيئات الدولية التى يراد بها منع الحروب كهيئة الأمم المتحدة وسائر الهيئات التى تشرف عليها ، وغير هذه الأخطار قد يسهل اتقاؤه ببذل الجهد فى الاقلال من ظروف

التعرض والاستهداف ، وغيرها قد يسهل اتقاؤه بالاتفاق بين المجتمعات المصنعة على تمهيد دور الانتقال الى التصنيع فى المجتمعات المتخلفة بأقل ما يستطاع من المشقة ، ويتم هذا الانتقال باعارة رأس المال والاعانة بالخبرة الفنية ، كما يتم أيضا بابتداع أساليب مستحدثة فى الصناعة والزراعة والتعليم وتحديد النسل ، وهى أساليب لم تستخدم فى الغرب حتى الآن لقلة الحاجة اليها ، ولكنها قد تجدى كبير الجدوى فى البلاد التى لا تزال آخذة ببرنامج التطور .

« وقد شرعنا منذ خمس وعشرين سنة فى جمع المعلومات النافعة للاهتداء الى أفضل الأساليب لمعونة البلاد المتخلفة على انتاج طعامها ، وأخذنا ندرك بعض العقد والعوائق التى تحد من محاصيل الزراعة ، ورأينا أن سير العمل بطىء فى مشروعات الزراعة لأنه يستدعى تعليم العدد الكبير من الزراع وتعديل طرائقهم وأساليب تفكيرهم وآرائهم الثقافية ومأثوراتهم التقليدية ، وهى جميعا مما يعسر تغييره فى وقت قريب . واننا لفى مسيس الحاجة الى مزيد من الفهم والاحاطة بعوامل نشر الأساليب الزراعية الجديدة وتشجيع المجتمعات المتخلفة على قبول المعرفة المستحدثة ، وكذلك ينبغى النظر فى أمر تحديد النسل عند البحث فى ترقية الأحوال الاقتصادية ، ولعل الصعوبة فى تحديد النسل فى المجتمعات الزراعية ترجع الى الآراء والمعتقدات . على أن تحديد النسل عندها يفيد فى التطور الاقتصادى ويعتبر بمثابة الزيادة فى محصول الزراعة والصناعة ، ومن الواضح أن الشعوب التى تريد المحافظة على نقص نسبة الوفيات ينبغى أن تقابل ذلك بنقص المواليد ، ومؤدى ذلك قبول تحديد النسل وأن تكون الحيطة لاتقاء الجوع والفاقة بمقدار قبوله فى أوسع نطاق .

بيد أننا اذا أمعنا النظر وأبعدناه الى أقصى المدى فيما تترقب للعالم الواسع من الأطوار خلال القرن المقبل — فالمشاكل الكبرى من قبل الصناعة أهون من مشاكل العلاقات بين الناس ودواعى التفاهم بينهم على التعاون والاتفاق ، وأن ينظموا أنفسهم بحيث تنصرف عبقريتهم وتصورهم الى المشكلات التى تواجههم ، وتتلخص مشكلتهم الكبرى فى موالاة قوانا الفكرية بالتوسيع والتوفير والتحسين والتعبئة والتجهيز .

« ان العلماء السلوكيين والأخلاقيين أخذوا يكشفون الغطاء عن بعض مبادىء السلوك الانسانى ، وسيزدادون بها علما ويعولون عليها فى تربية أطفال أهم وأسلم ، وفى تمكين الناشئين من الانتفاع — أتم انتفاع — بملكاتهم ومواهبهم ، ولنا أن نأمل الاهتداء الى آراء خير من آرائنا الحاضرة فى ادراك طبائع الانسان وأسرار التفكير المنتج وأسرار التخيل والبصيرة الباطنة ، وكلما ازددنا علما بدوافع حركات الجماعات وبواطن السلوك الاجتماعى والسياسى أعان هذا العلم على توجيه العواطف والأحاسيس الى العمل البنائى والأهداف الصالحة ، وعلى صرفه عن أعمال الهدم والعدوان ، والاكثار شيئا فشيئا من عدد الشبان القادرين على الابتكار والابداع .. ولكن هل تتوافق المساعى الموجهة الى الاصلاح الحيوى والسلامة البدنية والمساعى الموجهة الى تنمية الادراك وسلامة التفكير ؟ وهل يتخذ الانسان الخطوة اللازمة فى الوقت اللازم لحسن التصرف فى مسائل التصنيع التى تفتأ تتشابك وتتركب على الدوام ؟ هل يسوس الانسان دوافع شعوره قبل أن تهلكه وتقضى عليه ؟ ذلك هو محور المشكلات جمعاء .

« لقد رأينا أن الانسان قادر — من حيث المبدأ — اذا أراد أن يعيش عيشة الوفر والانشاء فى نطاق الحرية ، وظاهر أن الصعوبات جمة

والأخطار كثيرة ، ولكن الأمر الواضح هو ما ينبغي على الانسان أن يقوم به لتذليل العقبات ، ويبقى علينا أن نرى غدا هل يدرك هذه المشكلات فى حينها ليبلغ الى حظ من السلامة أوفر وأعلى ، أو يسمح بضياع حظه الراهن من الحضارة وذهابه الى حيث لا نجاة ولا مآب . ومصير المجتمع الصناعى يدور حول السؤال عن اقتدار الانسان على العيش مع أخيه الانسان » .

* * *

هذه البحوث التى لخصنا بعضها وترجمنا بعضها بقليل من التصرف ، قد ألمت بمستقبل التعليم فيما يواجه ضرورات التموين والتصنيع ، وفيما يواجه ضرورات التفاهم والتعاون بين الأمم خلال الفترة التى تنقضى فى تعميم هذا التعليم والترغيب فيه ، ويرى الخبراء أن اعداد العالم للمعيشة الحرة الرخية أمر مستطاع ميسر الأسباب اذا صحت عزيمة الانسان عليه.

وليس أوسع من آفاق التعليم وأغراضه عند الكلام على أثره فى حاضر العالم ومستقبله ، ومن هذه الآفاق الواسعة أفق التعليم فيما يحدثه الآن وما يحدثه غدا من الأثر السريع فى تكوين المجتمع وتأليف طبقاته وهيئاته التى تتولى شئون معيشته ومعاملاته ، وهو ذلك التكوين الذى يرتبط بكل مصير قريب تتصوره لسياسة الأمم فى داخلها وسياسة الأمم المشتركة بينها . ومن أهم البحوث التى اطلعنا عليها أخيرا بحث للخبير الاقتصادى الأمريكى الأستاذ بيتر دراكر Drucker عن تكوين الكثرة الاجتماعية من أصحاب المرتبات ونتائج هذا التكوين فيما يتعلق بمذاهب الاجتماع وأطوار الشعوب وخطط السياسة الكبرى . وقد افتتح الأستاذ بحثه مشيرا الى الزيادة المطردة منذ سنوات ثلاث فى عدد أبناء الطبقة المكونة من ذوى المهن الصناعية والفنية والادارية بين سكان

الولايات المتحدة ، وقال انه يعنى بها الطبقة التى تجملها كلمة الطبقة الوسطى من أصحاب المرتبات ، ثم قال :

« منذ ثلاث عشرة سنة — يوم خرجنا من الحرب العالمية الثانية — كان عمال الصناعة لا يزالون أكبر طائفة من طوائف المجتمع الأمريكى ، ينتمى اليها واحد من كل أربعة فى المجتمع ، وكان ذلك ختام فترة بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر حين نشأت عندنا معامل المصنوعات .. أما الآن فواحد من كل خمسة ينتمى الى طائفة أصحاب المرتبات المختصين بالفن والادارة ويقرب عددهم من ثلاثة عشر مليونا » .. الى أن قال : « وفى سنة ١٩٧٥ أى بعد سبع عشرة سنة فحسب — تترقب أن يبلغ تاجنا الصناعى ضعفى تاجنا فى الوقت الحاضر وأن يزداد عدد الصناع بيننا بمقدار الثلث ، ولكن الطائفة التى تعلو نسبة زيادتها على نسبة الصناع ونسبة السكان جميعا هى الطبقة الوسطى من أصحاب المرتبات ، ومتى تمت دراسة الصبية والبنات الذين يدخلون المدارس الآن ، ومضت سبع عشرة سنة .. تضاعف عدد أبناء هذه الطبقة ضعفين ووجب أن تكون نسبتهم نحو الخمسين من جملة القوى الصناعية » .

ثم لاحظ الأستاذ داكر ظواهر الزيادة فى أنواع المصنوعات التى صاحبت نمو هـــذه الطبقة فقال انها تتمثل على الخصوص فى زيادة المطبوع والمتداول من الكتب الشعبية ، وان أثر هذه الطبقة ينجلى شيئا فشيئا فى ثقافة الأمة وسياستها وقيمها وعلاقاتها الاجتماعية .. الى أن قال بعد الاشارة الى نظريات كارل ماركس : « انه قد مضى عليها الآن قرن من الزمان ، وانها كانت تقوم على نظرة جريئة تنبىء عن ظهور الصانع وعامل المكنة قوة نامية محركة فى المجتمع . ومضت بعد ذلك خمس وسبعون سنة كان الصناع وعمال المكنات فيها حقا أكثر الطوائف

نموا وان لم يبلغوا قط نصاب الكثرة فى مجتمع من المجتمعات الصناعية غير أنهم كانوا على حدة أكثر الطوائف عددا فى كل مجتمع منها ، مما أكسب الماركسية قوتها ونفاذها باعتبارها عقيدة وفلسفة على الرغم من مواطن ضعفها . واليوم — فى الولايات المتحدة وغيرها — تنجم طبقة جديدة وتسرع فى نموها الذى يجعلها أكبر طائفة مستقلة بين مختلف الطوائف ، وهؤلاء هم الفنيون أصحاب المرتبات الذين لا هم بأصحاب رؤوس الأموال ولا بالصعاليك ، ولا هم بالمستغلين ولا بالمستغلين » ..

* * *

وفى بحث آخر يجمل الأستاذ داكر احصاءات التعليم بالنسبة الى هذه الطبقة فينقل عن احصاءات مكتب العمل أن حملة الشهادات العليا أصبحوا فى السنة الماضية — ١٩٥٧ — هم الكثرة الغالبة بين المشتغلين بالصناعة فى الولايات المتحدة . قال : « اننى لما بدأت العمل منذ نحو ثلاثين سنة كان التعليم الثانوى هو الندرة المستثناة ، وكنت أنا يومئذ منفردا وحدى باتمام هذا التعليم بين الكتبة الشبان فى مكتب من مكاتب التصدير ، ولم يكن رؤسائى يكتمون عنى أن هذا التعليم كان عقبة — لا عدة صالحة — فى سبيل الأعمال التجارية . وكان الذهاب الى الجامعة فى ذلك الحين مقصورا على القلة النادرة جدا بين المتعلمين ، ولعلها كانت أكثر يومئذ من مثيلاتها فى بلاد أوربة الغربية .. » .

* * *

والنتيجة الطبيعية لتعميم التعليم الصناعى على هذه السعة ، وبهذه السرعة ، أن تصبح الكفاءة البدنية أقل الكفاءات المطلوبة لتدبير لوازم المجتمع وتنظيم معاملاته وعلاقاته ، وأن تتوزع الأعمال بين كفاءات كثيرة ، فكرية ونفسية وذوقية ، لا يتأتى حصرها فى طائفة واحـدة

ولا يتأتى — من ثم — أن تطغى على المجتمع لتسليط مشيئتها عليه دون أن يلحقها شيء من الضرر الذى يلحق سائر الطوائف ، وقد يأتى اليوم الذى تناط فيه الجهود الانسانية بالأعمال التى يغنى فيها الانسان على تفاوت ملكاته ولا تؤديها الآلات مستقلة بها أو باشراف من يديرها . فلا يتولى الفنيون عملا تقوم به المكنات فى الوقت الحاضر والمكنات التى تترقى وتبلغ غايتها من الدقة بافتنان المخترعين والمقترحين من نوابغ الفكر والصناعة فى المستقبل . وبعض هذه المكنات يقال عنه اليوم انه « يفكر » على سبيل المجاز ويجرى العمل فيه على نسق يشبه عمل الدماغ الانسانى فى تلقى الاشارة ونقل التنبيهات وتنفيذ المقترحات ، وكلما استدقت معارف العلماء بالكهربية الدماغية وروقبت حركات الدماغ أثناء انفعالاته وتوجيهاته لحركات الأعضاء تبين الفارق بين عمله العقلى الخاص بالانسان وعمله الجسدى من قبيل رد الفعل الذى تستطاع محاكاته فى المكنات ، وسيكشف الغد عن حدود هذه المكنات فى أداء الأعمال التى لم توكل قبل الآن لغير الانسان العاقل ، فليس من المنتظر أن تجمع المكنة بين وظائف الأمر والتنفيذ ووظائف الابتكار والتقليد ، ولكنها ستؤدى — ولا شك — كثيرا من المساعدات الفكرية التى تستنفد الآن جهود الملايين من حذاق المتعلمين .

يقول الدكتور جورج تومسون Dr. George Thomson من أصحاب جائزة نوبل فى العلوم من فصل بعنوان الفكر الصناعى والطبيعى فى كتاب المستقبل المكشوف The Foreseeable future .

« من السائغ أن نترقب زمنا تحل فيه المعرفة الحقة بعمل الدماغ محل هذه المعرفة المترددة ، وأصعب من ذلك أن نقدر أثر هذه المعرفة فى الحياة الانسانية . وأتكلم عما أعلم فأرى أن قليلا من المعرفة السطحية

قد ارتفعت ارتفاعا عظيما باعجابى وتقديرى للانسانية . فان هذه المكنة المعقدة التى نملكها جميعا — أو التى هى نحن ان شئت — بما احتوته من دقائق تبلغ عشرة آلاف الملايين ، وبما بينها من خيوط الاشتباك فى العمل — لتفوق كل حد ترتقى اليه أية صنعة نقدر عليها وتخالف كل ما نعهده من هذه الكائنات التى ندرسها تحن الطبيعيين مخالفة الصور فى طلاء الجدران للبلورات الحقيقية » .

ثم قال : « ان عرفاننا كيف نشعر قد يكون أعظم أثرا فى أعمالنا من عرفاننا كيف نفكر وتتصور . وقد يدهشنا كيف يمكن أن نبقى نوازع العصبية الجامحة بعد العلم — من الوجهة الكهربية — بمجراها الذى جرت عليه عند تكوينها .

ولننظر الى الفكاهة مثل هذه النظرة فانما النكتة — كما هو ظاهر — مسألة انطلاق تيار أو افلات مجموعة من الدوافع المتناقضة لتتخذ لها نسقا آخر ، فهل تبقى فيها أعجوبتها اذا علمنا بهذا النسق الآخر : ما هو وكيف يكون ؟ اننى لأرجو ذلك حقا ، فلا ينقص من متعتنا بالمسرحية أو القصة علمنا بأنها مؤلفة . ولعل الأمور التى يجب على الناس أن يكبروا من خطرها هى التى تصاب أشد المصاب من جراء ذلك . فان المبادىء ليعسر الثبات عليها بعد العلم بأنها أشبه شىء بالدورة الكهربية . وقد ينجم من ثمة ضرر على الخصوص لتلك العقول — غير القليلة — التى يخيل اليها أن الرجوع بأصول الانسان الى أصول الأحياء الدنيا يغض من كرامة البشرية . وانه لمن المهم عند من يحرصون على استبقاء المبادىء — وليس منا من لا يحرص عليها — أن يوطنوا أنفسهم على ما يكون من هذه الحقيقة وأن يتعلموا كيف يحافظون على ما نشعر الآن انه جدير بالمحافظة عليه وان تبدلت منه الصورة دون الجوهر ، وانه

لمن الخطأ أن يرد على الخاطر أن العلم والقيم شيئان مختلفان لا يؤثر أحدهما على الآخر ، فان الكون الذى يحيط بأفكارنا وأحاسيسنا واحد ، وليس فيه جزء ينفصل كل الانفصال عن سائر أجزائه .. » .

* * *

الى هذا الأمد يمتد الأمل فى التعليم والصناعة ، وتتعدد الآمال فتتفق ولا تتفق ، ولكنها على الحالين لا ينتفى منها الأمل فى انتفاع الفكر بالصناعة وانتفاع الصناعة بالتفكير .

٣ ـ الفضـــــاء

كان السؤال الشائع بين المشغولين بأمر الطيران فى مطلع القرن العشرين : هل من الممكن أن يطير فى الفضاء جسم أثقل من الهواء ؟

وكان المرتابون فى امكان ذلك كثيرين بينهم فئة معدودة من العلماء وخبراء الصناعة ، غلب على اعتقادهم وتفكيرهم أن الطيران لا يتأتى بغير وسيلة واحدة ، وهى وسيلة المناطيد التى تحملها القباب مملوءة بأنواع من الغاز أخف من الهواء ، وما عدا ذلك فهو خرق لقانون الطبيعة كما فهموه .

وتقدم القرن العشرون الى منتصفه ، ثم جاوز منتصفه بسنوات فأصبح السؤال الشائع بعد نيف وخمسين سنة : هل من الممكن أن نستغنى عن الهواء فى تسيير الطيارات ؟

لم يتغير شىء فى هذه السنين من قوانين الحركة ولا من العلم الذى يرصدها ويتولى تطبيقها ، وانما تغير التطبيق فأصبح خبراء العلم نفسه يسألون عن امكان الاستغناء عن الهواء بعد أن كان السابقون لهم فى مدى سنوات يحسبونه « وسطا » لا يصلح للطيران .

وجواب الثقة عن هذا السؤال : نعم ! ان تزويد الطائرة بالأجهزة التى تدفعها فى فضاء لا هواء فيه ممكن ، وان استخدام الوسائل الكيمية والكهربية يذلل الصعوبة التى كانت قبل الآن عصية على التذليل بغير الدفع الجوى ، فليس من المستحيل ولا من البعيد فى الواقع أن تصنع الطيارة التى تجوب الأفلاك العليا فوق جو الأرض وبين آفاق السيارات ، ولا تعرف الآن صعوبة فنية تحـول دون الرحـلة الى الكواكب اذا

استطاعها الانسان ، أما استطاعة الطائرات أن تصمد لتلك الرحلة فليس فيها الآن خلاف .

يقول سير جورج تومسون صاحب جائزة نوبل فى الطبيعيات : « ومهما تكن الطريقة المتبعة فان تسارع الصاروخ على مهل بعد مجاوزته جو الأرض أمر لا يعرف له مانع ولا يعارض قاعدة من القواعد الطبيعية، ورد الفعل النووى كفيل بتدبير الطاقة الطرفية ، ولا خوف من الافراط فى التسخين مع استخدامه على مهل ، فى حين أن المواد اللازمة ليست مما يمتنع تدبيره ، مع الدفع بهذه السرعة . وقد يحوم هذا الصاروخ فى مدار المنظومة الشمسية ويطيف بالسيارات وبالقمر ، ويعتمد على الأجنحة عند عودته الى الأرض لنقص السرعة بمقاومة الطبقات العليا من الجو » .

ويرى هذا العالم المحقق أن اتخاذ المراكز من الأقمار الصناعية لتجديد الاندفاع الى الآفاق العليا يدخل فى نطاق المعلومات الصناعية الميسرة للخبراء فى العصر الحاضر ، قال :- « وهناك مشروع يهتم به فون برون Von Braun الذى رسم القمر المسمى بالراند الثانى (V. 2) فى الولايات المتحدة يرمى به الى ادارة قمر دائم حول الكرة الأرضية ويمكن اتخاذه محطة وسطى للسفر الى السيارات ، ويحتاج تركيبه الى اطلاق أجزاء صغيرة بالصواريخ تتجمع فى الفضاء على النحو الذى قدمناه ... ويستطاع تزويد هذا القمر بجاذبية مصنوعة اذا تم تركيبه على شكل اطار يدور دورة سريعة تطرد كل شىء فى وسطه بالقوة المركزية الى جداره »[1] .

وبعد أن شرح الأستاذ تومسون كل ما يرد على خاطر العالم من

---

(١) المستقبل المنظور تأليف سير جورج تومسون
The Foreseeable Future by Sir George Thomson

مصاعب السفر الى الكواكب قال : « ان الظاهر من هذه العجالة ان صعوبات السفر بين الكواكب كثيرة عدا صعوبة الافلات من أفق الأرض، ولكن لا يرى أن هناك صعوبة أساسية ولا يسعنا الا أن نطمئن على ثقة بأن براعة المهندسين تتغلب عليها خلال الخمسين أو المائة السنة التاليـــة » .

* * *

وأحدث ما اطلعنا عليه فى هذا الموضوع كتاب عنوانه « صاروخ الى القمر » ألفه المهنــدس النرويجى اريك برجوست ، وخبير الطيران والقذائف الأمريكية سبروك هل ، وقدم له فون برون مهندس الأقمار الصناعية — المتقدم ذكره — عجل فيه المؤلفان بالموعد المنتظر من خمسين سنة الى سبع سنوات وقالا فى الفصل الأول منه : « ان الخطوة التالية — بغير ركب انسانى — تحتاج الى أجهزة من الأقمار الصناعية أفضل وأكبر ، ثم الى أقمار تحمل الحيوانات ، ثم الى أقمار تحمـــل الحيوانات وتعود بها سالمة الى الكرة الأرضية ، ومتى تم ذلك استطاع الانسان أن يذهب الى الفضاء ، ولكن الفتح العظيم الذى يقارن باطلاق القمر الصناعى الأول انما هو استطاعة الانسان أن يهبط على سطح القمر ويرجى أن يتم ذلك — بل قد يتم فعلا — قبل سنة ١٩٦٥ فى أقل من سبع سنوات » (١) .

ويقول مهندس الأقمار الصناعية فى مقدمته لهذا الكتاب أن تحقيق المخترعات الصاروخية المطلوبة لا يعوزه شىء من معرفة المبادىء العلمية والصناعية ، وكل ما يحتاج اليه عزيمة ومال .

والمؤلفان يستهلان كتابهما ببيان الأغراض التى توجب على أبناء

(١) Rocket to the Moon by Erick Bergaüst and Seabrook Hull.

العصر الحاضر متابعة النظر فى تحقيق رحلات الفضاء ، فيذكران فى مقدمتها حب الاستطلاع ويستشهدان بكلام للمهندس الكبير فون برون يقول فيه : « ان سببا من أول أسباب البحث فى كل كشف أو ارتياد جديد يتلخص فى مجرد التشوف وحب الاستطلاع ، وليس من الحكمة ولا من الخبرة الواقعية أن نصر — سلفا — على المسوغات لكل بحث من هذا القبيل على أساس المنفعة العاجلة والنتائج العملية المحتملة . فان تاريخ الفنون والمعارف الصناعية زاخر بالأمثلة التى تثبت أنها لا تقدر على دراية الانسان بالأنباء عما تسفر عنه الكشوف والمخترعات .. » .

ويلى هذا السبب المفروض فى جميع البحوث والمحاولات سبب معروف النتيجة يقوم على غريزة حب الحياة والدفاع عن الذات ، ويكفى أن يكون الاختراع صالحا لاستخدامه فى هجوم أمة على أمة كى يكون العلم به واجبا لاتخاذ الحيطة والدفاع ، ويقول المؤلفان : ان تنظيم البعثات المشتركة لارتياد الفضاء فوق القمر محتمل ، بل قريب الاحتمال ، ولكن الاتفاق على احتلال القمر بعيد لأن استخدامه فى الأغراض الحربية يغرى السابقين اليه بالاستئثار واجتناب المشاركة فيه جهد المستطاع .

أما السبب الذى لاشك فيه ولا اختلاف عليه فهو جمع المعلومات وكشف الحقائق عن أسرار العناصر المادية وأسرار الضـــوء والطاقة المغناطيسية والجاذبية وما اليها من الأسرار التى تنفتح مغاليق الطبيعة أمام من يعلمها ، وتزيده عرفانا بحقائق الكون وما فيه ومن فيه من الأحياء العاقلة ، ان كان فيه أحياء عاقلة غير الانسان . وقد يشهد البشر يومئذ شهادة العيان أمورا من خفايا الغيب ظلت آلاف السنين حيرة للأفكار ومسبحا لشوارد الظن والخيال .

٤ ــ حكم العــــالم

يتفق الراســخون فى علوم الاجتمــاع ــ من أصــدقاء السلم والانسانية ــ على رأى واحد فى أنظمة الحكم التى تصلح للعالم بعد القرن العشرين ، قوامه أن يمتنع طغيان الدول القوية على السياسة العالمية ، وأن يكون تدبير مصالحه موكولا الى هيئة دولية ، لا يضيع فيهــا صــوت أمــة من الأمم ولا تنسى فيهــا مصــالح المتخلفين والمستضعفين .

ويكتب الجلة من ذوى الخبرة والنية الصالحة عن هذا الرأى كأنه المخلص الوحيد من شواجر النزاع والصدام بين الأقوياء ، وبينهم وبين الضعفاء . فاذا جعلوه أملا مرموقا فهم لا يجعلونه كذلك لأنهم على ثقة بينة من بلوغه وامكانه ، وانما يتعلقون به لأنه المخلص الوحيد من أخطار الحكم فى المســتقبل . فينبغى أن يكون الأمل الوحيــد لأنه المخلص الوحيد .

وهؤلاء الثقات المتعلقون بهذا الرجاء يقاربونه على منهجين : منهج أقرب الى الفلسفة العلمية ، ومنهج آخر أقرب الى السياسة والاحصاء ، ولعلهم على هذين المنهجين يتمثلون على أحسن الوجوه فى كاتبين من أبرز كتاب العصر فى هذه الموضوعات ، وهما الفيلسوف الرياضى برتراند رسل ، والمؤرخ الاجتماعى هانس كون ، وكلاهما معدود اليوم فى طليعة الكتاب العالميين .

آراء برتراند رسل فى الحكم العالمى ومصير الانسانية مبسوطة فى كتبه الكثيرة ، ملخصة فى آخر ما صدر منها عند منتصف القرن العشرين،

وهو الكتاب الذى سماه « آمال جديدة لدنيا متغيرة » [1] وجمع رءوس موضوعاته فى بضعة أسطر يقول فيها : « ان الحياة فى العصر الذرى معنية بوسائل العلاج الثلاث من المشكلات التى طالما ابتلى بها نوع الانسان ، وهى مشكلة النزاع بين الانسان والطبيعة ومشكلة النزاع بين الانسان وسائر الناس ، ومشكلة النزاع بينه وبين نفسه . والمشكلة الأولى من شأن العلم ، والثانية من شأن السياسة ، والثالثة من شأن الدين والدراسات النفسية » .

وعنده أن الفقر لم يعد فى عصر الصناعة الحديثة ضربة لازمة ولا محنة محتومة على الأكثرين من بنى الانسان ، وانما يعود الاخفاق فى علاج مشكلته الى رسيس من العقائد والعادات البالية لا موضع لها من الحياة الحديثة ، وان هذه الحياة الحديثة قد أبطلت الحاجة الى المزاحمة على الأرزاق وجعلتها أقل ما يكون لزوما لمن كانوا يتزاحمون عليها ، وان المخاوف الرثة التى خامرت النفوس دهرا طويلا لا ضرورة لها الآن ، وان الانسان العصرى فى وسعه أن يزيل وساوس الخوف والقنوط .

واستطرد الى الفريضة التى يتطلبها تحقيق هذه الغاية فيما تتولاه أنظمة الحكم فقال : « ينبغى أن تكون هناك هيئة عالمية تشرف على تدبير الأغذية والخامات ، وأن يكون فى وسعها منع الأساليب الزراعية التى استنفدت التربة فى افريقية الشمالية والولايات المتحدة . فلا يسمح للزراع بالاستكثار من الثراء بتبديد موارد الرزق التى تعول عليها الأجيال المقبلة » .

ثم قال عن النزاع بين الانسان وسائر الناس « ان الخطر الأول هو خطر التهديد بالحرب . فلا قرار لشىء من الأشياء مع بقاء الناس على

(1) New Hopes for a changing World by Bertrand Russell.

خوف من نشوب القتال ولا سيما القتال بآلاته الحديثة ، وما من وسيلة تعصم الانسان من هذا البلاء أنجع من تزويد العالم بقوة عالمية واحدة تملك المحاجزة بين الدول ، ولا ضرر من قيام الجيوش المحليـــة التى تحفظ الأمن فى بلادها بالوسائل الميسرة للشرطة ، ولكن الأسلحة الوبيلة جميعا ينبغى أن تعهد الى القوة العالمية التى لا تنفرد بها دولة واحدة » .

ثم يعرض الفيلسوف لمسألة التعليم فيقول انها ينبغى أن تقوم على مبادىء عالمية وأن يمتنع التعليم الذى يغرى بالعدوان وينفخ فى جذوة البغضاء والنقمة بين الشعوب .. « وينبغى أن تتدرج الى تعميم التجارة الحرة وأن تباح حرية السياحة على النحو الذى كان شائعا قبل الحرب العالمية الأولى ، وأن تتبادل الأمم طلابها لكيلا يتعرض الكثيرون فى شبابهم لآفة التحجر على العادات والتقاليد » .

ثم يعرض للشخصية الفردية فيقول : « انه من اللازم أن يحمى الفرد من طغيان الجماعة كما يحمى من المخاوف التى تساوره فى قرارة وجدانه ، وهما ضرران بينهما من الارتباط أشد مما يخطر للكثيرين . اذ يغلب على طغيان الجماعة أن يكون وليد الوساوس والخوف » .

قال « وينبغى اجتناب القسر فى التنسيق والتوحيد بين الشخصيات الفردية مما يحق للمجتمعات المصنعة أن تخشاه ويجب عليها أن تتقيه بما استطاعت من تدبير . ولابد من فسح المجـــال للأفذاذ الموهوبين كالشعراء والفنانين الذين لا يظفرون بالتأييد من أصحاب التقاليد » .

واختتم فصوله قائلا : « ان الانسان فى أدهاره الطويلة منذ هبط الى الأرض من أغصان الشجر قد تقحم الفجاج المرهوبة وتركها وهى محفوفة بعظام الهالكين ممن سلكوها قبله ، يداخله جنون الجـــوع والضنك والفزع من الضوارى والرهبة من الأعداء : أعداء من الأحياء

ومن الأشباح التى تساوره وتتعمق فى وجدانه بما تغلغل فيه من الأوجال والأوهام . وبعد لأى جاوز الصحراء الى الأرض الباسمة ولكن بعد أن نسى كيف يبتسم ، وأصبحنا نرتاب ولا نصــدق بالصباح البهيج والنهار المنير ، نحسبه من الوهم الكاذب ونتشبث بالخرافة الباليــة والأسطورة الكامنة التى تملى لنا فى حياة الخوف والكراهية ، ولا سيما كراهية ذواتنا والنظر الى أنفسنا كأننا بقية من المذنبين الخطاة . تلك حماقة .. فما يحتاج الانسان اليوم لخلاص نفسه الا أن يفتح قلبه لفرح الحياة ويدع الخوف يتسرب فى ظلمات الغابر المهجور » .

* * *

وقد استوفى الأســتاذ هانس كون — بحث الموضوع من ناحيته التاريخية السياسية ، فاستهل كتابه عن القرن العشرين بتفصيل أطوار الأمم التى سلفت منذ ثلاثة قــرون وكان لها أثرها فى ظهور القومية والعنصرية وحركات الاستعمار ومذاهب الحكم المطلق ومعارك الطبقات وسائر هذه الأطوار التى تعد من بعض وجوهها حواجز بين الأمم وتعد من حيث النظر الى نتائجها مقدمات لابد منها لتطور العلاقات بين الأمم من العزلة الى العالمية . وانتهى به المطاف الى تلخيص المعقبات التى تلت نهاية الحرب العالمية الثانية فقال فى الفصل الرابع عشر من الكتاب : ان هذه الحرب قد جددت للديمقراطية قوتها الحيوية ، وانه لا خطر على الأمم التى تدين بها من طغيان مذاهب الاستبداد على أنواعها ، وان حماية الأمم الديمقراطية لا تتم باعداد السلاح وحده لأن سلاح التفكير لازم لها لزوم العدة العســكرية ، وقد تعلم الأمريكيون فى العشرين سنة الأخيرة أن يحرروا أنفسهم من العزلة المريحة وفهموا أن حدودهم لاتنتهى عند شواطىء بلادهم ، وان ذلك لا يعنى أن تفرض الدولة مشيئتها على

الأمم لأن عبرة الماضى القريب قد أبرزت خطر هذه السيادة على سلام العالم وعلى الدولة التى تحاولها . قال : « ان الأمريكيين حريون أن يعلموا أن الحضارات المنوعة والتقاليد المتعددة تعيش معا فى هذا العالم، وان ثروة التنوع أهم عناصر التاريخ والتقدم ، ومن المستحيل فى دور الانتقال أن يتطور العالم على نظام واحد .. وفى هذه المرحلة من التاريخ لا يتأتى الاتفاق التام بين أجزاء العالم ولا يقتضى ذلك حتما وقوع القتال ، وعلى الأمم الغربية أن تعيش خلال هذه الفترة دون اتفاق ودون حرب جنبا لجنب مع الأمم الشيوعية ، وهو أمر يتطلب القوة والصبر وبعد النظر ، ولكنه لا يعوض بالحلول السريعة ولا بالطريق المقتضب ولا بالترياق السريع » .

٥ — إلى مليون سنة

توفرت المباحث التى لخصناها من قبل على بيان « حالة العالم » عند نهاية القرن العشرين وفيما يليه من زمن قريب . وأحجم الباحثون عمدا عن الخوض فيما وراء ذلك ذهابا مع الزمن المتطاول ، ايثــارا منهم للوقوف عند حدود الاحصاء وما هو أشبه به من ضروب التقدير ، ولم يجدوا فى التقديرات المحسوبة معينا لهم على تقدير المصير « الانسانى » الذى يتصل بنفس الانسان أو طبيعة الانسان .

تلك هى حالة العالم فى شئون المعيشة وفى موارد الصناعة والطبيعة . تلك هى معيشة الانسان بعد مائة سنة ؟ فكيف يكون الانسان نفسه فى تلك الحقبة ؟ كيف يكون الانسان روحا وخلقا وضميرا فى ذلك العالم الموعود ؟ ان صحت جميع المواعيد ؟

وكيف يكون بعد السنين المائة وبعد القرن العشرين والقرن الحادى والعشرين ؟ كيف يكون بعد خمسة قرون وبعد عشرة قرون ؟ وبعد الدهر الطويل الذى يحسب بآلاف السنين .

ان هذه الأسئلة لم تترك بغير جواب يفهم من خلال السطور ، وان لم يرد لها جواب مقصود على سؤال مذكور ، ومن الباحثين العلميين من أطلق فكره من قيود الاحجام العلمى وجازف بالنبوءة وراء القرون الى الدهور ، ونظر الى الانسان كما سوف يكون بعد مليون سنة ، فاذا هو ينطلق من احجامه فى عداد السنين ويكاد يتعثر فى القيود كلما زحف زحفة واحدة فى تلك الآماد الطوال . فلم يكن فى حسابه أن مليون سنة قد تنفسح يوما من الأيام لطارىء غير مألوف من طوارىء الغيب أو تسمح

بشيء من التغيير يخالف التغيير الذى سمح به للأعوام التى تعد بالألوف أو بالمئات .

* * *

فى كتاب صورة الغد لمؤلفه « جورج صول » أمل يرجى «للانسان» من طريق التقدم فى مجمل أحواله وأعماله ومعاملاته ، يناط كله بالتعليم الذى لابد منه لترقية الصناعة وتدبير مطالب المعيشة .

ليس للانسان أمل فى عالم يحكمه القلة من الأذكياء والخبراء وينقاد فيه للحكم المطلق جماهير الرعايا المسخرون على كره أو على طواعية .. فقد أفلس حكم كهذا الحكم منذ القدم فى دولة الرومان .

وليس للانسان أمل فى عالم تستغرق أوقاته فى الكد والهم ولا يتسع فيه بعض الزمن لعمل من أعمال الفراغ يقضى على اختيار وشوق بعد قضاء مطالب المعدات والجلود : مطالب الحيوان .

انما الأمل للانسان — لروح الانسان — فى عالم تتكفل فيه الصناعة بأكثر المطالب فى أقل الأوقات ، ويبقى فيه شطر من اليوم يقضيه الانسان فيما يختاره ، ويختار فيه ما يرتضيه العارف المدرك الآمن على الكفاية فوق الكفاف .

يقول المؤلف فى ختام فصوله : « ان علوم التصنيع تبدل من حالة العالم الذى نعيش فيه تبديلا قويا خليقا أن يبدل من وجهات العقول .. فليست الآمال ولا الأحكام التى كانت ملائمة للمجتمع قبل بضعة أجيال بالتى تصلح لهذه العقول . ولنجمع هنا طائفة من وجهات التغيير التى تجرى الآن والتى يرى أنها وشيكة أن تجرى فى الزمن القريب ، كى نبنى عليها « تخمين » وجهات الفكر بعد التبديل المنظور .

« ان بعض أبناء هذه البلاد لا يقــدرون على الكفاية من القوت

والكساء والمسكن الصالح ، ولكن الظاهر من نمو الدخل الفردى أن هذه الحالة قريبة الى النهاية فى الولايات المتحدة ، وينتهى بانتهائها أقدم خوف للانسان وهو الخوف من الفاقة ... وكلما اقتربت الحالة من اشباع مطالب الكفاية تحولت هذه المطالب الى غير الماديات ، وانها لمطالب حاضرة نحسها جميعا ، وانما يتناول التغيير المنظور أن تتمكن من تخصيص مزيد من الوقت والسعى للحصول عليها .

« وقد أدى ارتفاع مستويات المعيشة المادية فى الولايات المتحدة الى التقدم السريع نحو المساواة فى الدخل والمورد . ويؤخذ من الاحصاءات منذ سنة ١٩٣٠ أن فئات المشتركين فى الدخل الواحد والمعيشة الواحدة تنقص على عجل ، ويصح هذا حتى بعد تعديل الاحصاءات من جراء ارتفاع الأسعار . وعلى حسب قيمة الدولار سنة ١٩٥٠ يحصل نحو الخمس من تلك الفئات على دخل يقل مقداره عن ألف دولار ما بين سنتى ١٩٣٥و١٩٣٦ . فهبط هذا العدد الى أقل من العشر سنة ١٩٥٠ ... ومعظمنا على تفاوت مواردنا نلبس من أصناف متشابهة من الكساء كما نأكل أصنافا متشابهة من الطعام ونسكن فى حجرات تتقارب عند المقارنة بينها ، ولا تزال السيارات الرخيصة تدنو فى مظهرها وسرعتها من ذوات الأثمان الغالية عاما بعد عام ، ويرتفع عدد العائلات التى تملك سيارة واحدة على الأقل الى نسبة تضارع ثلاثة أرباع عدد العائلات فى البلاد . وهذه حالة تختلف كثيرا عما كان مشهودا قبل فترة من الوقت ولا يزال مشهودا فى كثير من البلاد حيث يعتبر اقتناء السيارة والتفرغ للرياضة والاستمتاع بالأطعمة الحسنة مزية من المزايا الاجتماعية النادرة .

« ويشكو بعض النقاد من أن هذه التسوية مفضية الى صورة من

المشابهة على نمط واحد لا تنوع فيه ، ان لم تفض الى نمط من المماثلة الجامدة ، وهذا خطر ولا ريب . الا أن النتيجة أشبه أن تكون انتقالا الى التمييز بين الأفراد بغير المزايا المادية ، من أن تنتقل بنا الى فقدان الشخصية واختفاء التنوع فى الأذواق . فيكثر عدد الأفراد الذين ينفقون أوقاتهم فى مرضاة أذواقهم وتعبيرا عن ذواتهم ولا يفرغون للمنافسة على مظاهر الثروة المادية . ومن كانت الوجاهة لديه بغية غالية كان أحرى أن يلتمسها بانماء ما عنده من ملكات المهارة والذوق والمزايا الأدبية ولم يلتمسها فى المظاهر والأعراض ، ولا ينتظر أن تزول المنافسة بين الناس ولكنها تتحول على نحو أوسع وأشمل من الماضى الى منافسة على السبق فى خصلة من الخصال غير النجاح فى كسب المال والمغانم الاقتصادية .

« ... وتدل اتجاهات العمل على أن عدد العمال المشتغلين بانتاج السلع المادية فى التعدين والزراعة والمصنوعات آخذ فى النقصان ، وان الزيادة تطرد فى عدد العمال المشتغلين بتوزيع تلك السلع وادارة المواصلات وسائر الخدمات ما عدا الخدمة المنزلية التى تميل كذلك الى النقصان ، وبعض هذه الخدمات قد دعت اليه الحاجة من ترقى العناية بالصحة وكثرة الطلب لمن يطببون المرضى ويشرفون على أسباب الوقاية ، وبعضها قد دعت اليه الحاجة من كثرة طلب المتعلمين للاقبال على المدارس الثانوية والكليات ، وينجلى الواقع فى كثرة الطلب على المعلمين والمدرسين من أن عدد الموظفين الحكوميين يربى على عدد المستخدمين فى المرافق الخصوصية ، وان وظائف الحكومة انما تخصص لتوفير أنواع من الخدمات التى تقتضيها حياة الحضارة الصناعية . ومعنى التحول من انتاج السلع الى أداء الخدمات أن هناك تحولا من مزاولة الأشياء الجامدة الى مزاولة المعاملات مع الناس ، وتوكيد العلاقة المشتركة

بينهم والبواعث العاطفية التى تتولد منها ، ومنها بواعث الشعور بقضايا الاجتماع التى تتميز بها حضارتنا ... وأبرز التغييرات وأحراها بالالتفات اليه أن عدد العاملين غير الفنيين ينقص على العموم ، ولا يقف النقص فيه عند قلة النسبة الى مجموعة السكان ، ومغزى ذلك استئصال المشاق التى تضعف القدرة عليها بعد تجاوز الأربعين وتقل أجورها ويكثر فيها التعرض للبطالة.

« ... ولما كان الناس يعملون من عشر ساعات الى اثنتى عشرة ساعة كل يوم كان لابد لهم من وقت للراحة وتجديد النشاط للعمل كى لاتكون أعمارهم سلسلة متلاحقة من الكد والمشقة ، أما وأسبوع العمل الذى يكتفى فيه بأربع وأربعين ساعة يوشك أن يعم وأن ينقص الى أقل من ذلك قريبا — فالوقت متسع أمام كثير من الناس لقضاء الفراغ فى الشواغل الجدية لا لمجرد الراحة والاستجمام ... وكلما اقترب أسبوع الساعات الأربع والعشرين من التحقق فكر ذوو الفطنة فى طريقة يشغلون بها ستة أسباع أوقاتهم ... وليس الكسب الذى ينتظرونه من ذلك مالا يشترون به مزيدا من بضائع السوق ، بل أحرى أن يكون وسيلة لاشباع ما يروقهم مما يفضلونه على المشتريات بعد استيفاء الضروريات ، ومن ذلك الرياضة الصحية ، واللهو السائغ ، والمرح الجياش بالشعور ، والمتعة باتقان بعض الهوايات ، وتذوق الفنون ، ولذة المعرفة ، والقيام بالخدمات النافعة فى الحياة السياسية والاجتماعية ، وان المجتمع الذى يتاح لكل فرد فيه على وجه التقريب أن يختار ما يشاء أن يشغل به معظم أوقاته ولا يساق اضطرارا الى العمل الذى يجده كائنا ما كان — لهو مجتمع خليق أن يوصف بالمجتمع الحر على مثال أفضل وأوفى من كل مجتمع عرفناه فيما سلف . وهذه حرية تقترن كسائر الحريات بتبعة الاختيار الحسن كما يجوز أن يساء استعمالها . ومتى شعر الناس بالحاجة الى

اجتناب هذا الاستعمال السيىء لنشدان السعادة كان شعورهم هذا حافزا هاما لابتكار الجديد من النظم الاجتماعية وأساليب العرف والعادة .

« والمعلوم أن النوع الانسانى ينفرد بين الأنواع بصفة حيوية هى حاجته الى الحضانة الطويلة ، وتمتاز الثقافات المتطورة على ما دونها من الثقافات بطول الوقت الذى تستلزم قضاءه فى التعلم والاستعداد ، وليست الحضارة الفنية المتطورة بالاستثناء لهذه القاعدة ، ففى سنة ١٩١٠ كان نحو ٨٦ فى المائة من أبناء الولايات المتحدة بين السابعة والثالثة عشرة منتظمين فى المدارس ، وهى سن يفرض فيها التعليم الالزامى الآن ، وفى سنة ١٩٥٠ كانت نسبة المنتظمين فى هذه السن نحو ستة وتسعين فى المائة ، ويتضح الفرق كلما ارتقينا فى السن بعد ذلك الى الرابعة عشرة والخامسة عشرة اذ تبدأ الدراسة العالية . فان النسبة وثبت من خمسة وسبعين فى المائة سنة ١٩١٠ الى نحو اثنين وتسعين فى المائة سنة ١٩٥٠ ... والنتيجة التقريبية أن نحو ثلاثة أرباع عدد الشبان والشابات قد أتموا دراستهم العالية أو هم موشكون أن يتمموها .

« .. وليس أمام مجتمعنا فى المستقبل مسألة أهم من مسألة التعليم وبغير انجازها على الوجه الأمثل لن يكون لدينا الخبراء المختصون اللازمون لادارة دولاب المجتمع المترقى فى الاقتصاد الصناعى ، ولن يكون لدينا الظهارة التى لا غنى عنها للتعليم الحر المطلوب لفهم المشكلات المعقدة ومعالجتها حق علاجها مما يرتبط بذلك التطور ويسايره فى أحوالنا القومية وعلاقاتنا الدولية .

« على أن التعليم لا يتوقف بجملته على المدارس وحدها . فان المفكرين الكفاة يثابرون على تعليم أنفسهم زمنا طويلا بعد نهاية السنوات المدرسية ، ولكن لابد من اقتدار المدرسة على تربية الأذواق

وتوليد الميل الذى يعين على كسبها . وان النجاح فى هــذه المحاولة يؤدى الى اتقان العمل فى الصنعة كما يؤدى معه الى حسن استخدام الوقت بعد الفراغ من العمل المطلوب لكسب الرزق ، وقد نصل الى الثقافة الناضجة فى حضارتنا الصناعية من طريق المساعى التى نبذلها طلبا للفطنة النافعة فى تكوين أفكار ومبادىء تعيننا على المساهمة فى مقاصد الفعل التى لا حد لها ومحاسن الفنون وســائر ما يهذب الشخصية الانسانية ويهذب معها المجتمع الذى تعيش فيه ، ولا يكون قصارى الأمل من تلك المساعى المبذولة أن تجلب لنا الثروة والمظاهر المادية .

« ومن الجانب الآخر يخشى الخطر الجائح من الاخفاق فى استخدام السيطرة على الطبيعة التى أتاحتها لنا الخبرة الصناعية استخداما يهدف الى الغايات الانسانية : اما من التطوح الى الحروب أو من اقامة المجتمع على أنصاب من الآدميين محيت ملامحهم الشخصية . فما استطاع من قبل — حتى الرومان — أن يضمنوا طول البقاء لمجتمع يقوم على نخبة من العلية الأذكياء وجمهرة من الرعية تراضى على السكينة بالخبز وحلقات الألعاب ، وان المجتمع الغنى الديمقراطى لينوط أكبر الرجاء بما لجميع أبنائه من الكفايات والأخلاق » [1] .

* * *

على هذا النمط يسبق الكاتب الغد بنظرته الى عواقب اليــوم ، فيخطو على مهل ويتجنب الوثبة ولا ينسى مواطن الزلل مع عثرات الأمل ، فلا نبوءة فى الواقع هنا وانما هو ترتيب لسلسلة من الحلقات يتبع بعضها بعضا ولا تأتى بجديد على غير انتظار . فالصناعة تقارب بين الأعمــال

---

(١) ترجمت ببعض الاختصار من كتاب صورة الغد لمؤلفه جورج صول
The Shape of Tomorrow by George Soule

والأرزاق وتمهد السبيل لكسب الوقت الذى يبذله من يشاء فى تحصيل المزايا والأذواق التى توفر ثروات العقول والنفوس ولا تحصر التقدم الصناعى فى توفير المال والعتاد ، وهذا ان شاء من يملكون سعة الوقت أن يبذلوها فى مقاصد الفكر والروح .

وذلك هو مصير « الانسان » كما تنبئنا به هـذه « النبوءات » الوئيدة على حذر لا يخلو من رجاء ورجاء لا يخلو من حذر .

وفى حدود هذه الخطوات الوئيدة ينظر كاتب علمى آخر الى مصير « الانسان » فى عصر الصناعة ، أو ينظر — كما قال فى عنوان كتابه — الى الناحية الانسانية من العلم فيعلق مصير الانسان كله على « تربيته الشخصية » ويربط بين تربيته الشخصية وشواغل المـادة ومطالبها فلا يراهما منفصلين ولا يراهما مع ذلك شيئا واحدا تستغرقه الماديات وتستأثر به كله مطالب الرغد والرخاء .

وخلاصة تقديراته أن الانسان يمكن أن يكون انسانا تاما بشخصية تامة ، ولكنه لا يكون كذلك الا اذا التفت الى كل جانب من جوانب « الشخصية الانسانية » ولم يقصر التفاته الى جانب المادة أو جانب البدن منها . لأن الشخصية الانسانية عاطفة وعقل وضمير وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب ، ولو عرف الانسان كل شىء من تركيب بدنه لما أحاط بأسرار قواه الشخصية ولما نفذ الى حقيقة سر الحياة . فاننا لا نعرف الموسيقى اذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التى تدخل فى تركيب العود والقيثار والبيان . وبعض علماء الحياة يراقبون تغذية الحيوان ويلاحظون مثلا أن العواطف تتأثر ببعض الأغذية فتنقص أو تزيد : لاحظوا أن الفارة التى يقل المنجنيز فى غذائها تهمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وانه لحسن منهم أن

يلاحظوا هذا ويصـــلوا منـــه الى زيادة حصـــة الحيـــــوان من ذلك الغذاء . ولكنهم اذا جاوزوا ذلك فقالوا ان عاطفة الأمومة هى مقدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطؤهم فى هذا الرأى كخطأ القائل : ان نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار ، وان نقص الغذاء لينقص حركة الجسم وحركة الدوافع الحية ، ولكن مادة الغذاء وعاطفة الحياة شيئان مختلفان ، ومن الواجب أن نعرف تركيب الجسم وتركيب كل مادة فيه ، ولكننا لن نعرف الشخصية الانسانية من معرفة هذا التركيب . لأن هذه الشخصية الانسانية تكوين عجيب يعجزنا الآن أن نسبر أغواره ، ولكننا قد نلمحها لمحا اذا لاحظنا الفوارق التى لا نهاية لها بين انسان وانسان ، أو بين شخصية وشخصية . فلكل انسان صوته ، ولكل انسان ملامحه ، ولكل انسان خطوط أصابعه ، ولكل انسان كتابة لا يكتبها غيره ، ولكل انسان تركيبه فى فصيلة الدم وخـــلايا البروتين ، ولكل انسان قابليته للصحة والمرض وللمقاومة والاصابة ... وهذا كله فى المحسوسات التى ندركها بأيسر نظرة . أما الخفايا فمنها ما يجهله الانسان نفسه فى وعيه الباطن أو فى وعيه الذى لا يتضح للشعور ، ونعلم أن أدواتنا العلمية لاتمكننا من كشف هذه الخفايا اذا علمنا أنها تكمن كلها فى الخلية التى يولد منها الانسان ، وأن جميع الناسلات التى يولد منها النوع الانسانى يمكن أن توضع فى فنجان . وسيبقى الانسان محجوبا عن نفسه ما دام محجوبا عن أعماق هذه الشخصية وما دام منصرفا عن جانب الضمير منها ، أو ما دام متجها الى الخلط بين مادة جسمه وبين العوامل الحية التى ترتبط بتلك المـــادة ، لأن ألحان الموسيقى لا توضع ولا تفهـــم ولا تتذوق بمعرفة الأخشاب والأوتار . كلا ، ولا بمعرفة العـــلامات والاشارات التى تضبط بها الألحان والنغمات ، وهنا ينبغى أن نسأل :

ما هى حقائق الضمير ؟ والجواب أننا لا نعرفها جميعا ، وأن ما نعرفه قد يختلط عند بعض الناس للجهالة أو للهوى والضلال ، ولكن ما نجهله أو نخطىء فيه لا نتركه ولا نحتقره بل نثابر على طلبه لنصحح خطأه وننفى جهله ، ولو أننا تركنا كل حقيقة وجهلناها وأخطأنا فيها لما بقيت عندنا معرفة بالمادة ولا بالضمير .

وهنا يضرب المؤلف مثلا بالطفل الذى يبيت ليلة عيد الميلاد وهو يحلم بالهدايا التى يضعها القديس نيقولادس — أو سانت كلوز راعى الأطفال — الى جانب وسادته . فان هذا الطفل ولا ريب يحلم بخيال ، ولكنه خير من الطفل الذى لا يتخيل شيئا عن فرحة عيد الميلاد ولا عن هدايا الغيب ولا عن شوق الانتظار الذى يخامر جميع النفوس فى أمثال هذه الأوقات . فما دام عيد الميلاد موجودا فالطفل الذى يدركه على صورة من الصور — حسبما يستطيع فى خياله وفكره — أصح ادراكا من الطفل الذى لا يدركه ادراك الصغار ولا ادراك الكبار ، وعلينا فى هذا العصر خاصة أن نعلم أن معرفة المحسوسات الظاهرة لا تستدعى انكار الغيب ولا انكار ما وراء المحسوسات ، لأن علمنا بالمادة المحسوسة قد انتهى بنا أو كاد أن ينتهى بنا الى عالم كعالم الغيب وراء المحسوس أو وراء المعقول .

ويقول المؤلف بحق : ان كبار العلماء لا ينكرون الغيب وان أناسا لا يزالون معدودين من أكبر العلماء كانوا يؤمنون بما وراء المحسوس : كان نيوتن مكتشف قانون الجاذبية يصلى ويؤدى فروضه الدينية فى مواعيدها بغير انقطاع ، وكان جاليليو مكتشف دوران الأرض يؤمن بالله والدين ، وكان اينشتين يقول : انك اذا أردت أن تعرف غاية الحياة فمعنى ذلك أن تكون متدينا ، وكثير من خلفاء هؤلاء العلماء فى العصر

الحاضر يرجعون الى الغيب كلما أوغلوا فى العلم بالمحسوسات .

ويردد المؤلف قول القائلين : ان الخوف كبير فى عصرنا من شطط الانسان فى استخدام معلوماته . ومن الجائز أن يكون حتف النوع الانسانى فى هذه الطاقة المخيفة اذا أساء استخدامها فى الحروب ، ولكن المؤلف يعود فيقول : ان هؤلاء المتشائمين يبالغون فى الخوف من عوامل الشر والهدم التى ينطوى عليها طبع الانسان ولا يعطون عوامل الخير والبناء حقها من الأمل والثقة ، مقاسا على الماضى فى أحوال كأحوال العصر الحديث ، ولقد كان اختراع النار يكفى للقضاء على عمران الانسان كله فى زمانه ولكنه عزز هذا العمران وعلمنا أن نخترع أنواعا من النار لم تكن معروفة فى عهد أجدادنا الغابرين ، وكل ما اخترعناه من أنواع الوقود فهو توسع فى استخدام النار ، ولكنها قد حسن استخدامها فى أوقات وساء استخدامها فى أوقات ، وكلها فى النهاية قد أضاف الى العمران ولم يكن سببا للقضاء عليه . ولا خطر على الانسان فى الغد على هذا الاعتبار ، ولكننا لا نقنع بالأمان من الخطر اذا استطعنا أن نتمم أنفسنا ، ونحن قادرون على اتمامها اذا عشنا بشخصية متوازنة بين عوامل العقل والعاطفة والضمير .

وهل معنى ذلك أننا سنعرف كل ما فى أنفسنا من الخفايا والأسرار؟..

لا ريب أننا نزداد علما بتلك الخفايا والأسرار جيلا بعد جيل . الا أننا لا يلزمنا أن ننتظر طوال الأجيال لنعرف منها كل ما يستطاع . لأننا نعرف مطالب العقل والعاطفة والضمير : نعرف التطلع الى الحقيقة ونعرف الشوق الى جمال الطبيعة والفنون ، ونعرف كرامة المبادىء الرفيعة والأمثلة العليا فى الأخلاق والآداب ونعرف مطالب الضمير من العقيدة الروحية ، وما نعرفه من هذه الجوانب المتعددة فى الشخصية فهو حسبنا

للموازنة بينها وبين مطالبنا البدنية ، وحسبنا فى الحذر من مسخ طبيعتنا بالاستسلام الى جانب منها دون سائر الجوانب وهو حسبنا للتقدم فى طريق التمام .

وعند المؤلف أن هنالك غاية أعلى من غاية الموازنة بين جوانب البدن وجوانب العقل والعاطفة والضمير ، فان عباقرة العالم كلهم يتوازنون فى جميع الجوانب ، ومنهم من تغلب عليه نزعة تغطى على جميع نزعاته ، وبها يمتاز على سواد الناس ويتمكن من خدمتهم بالفتوح الجديدة فى ميادين العلوم والفنون والأخلاق . الا أن العبقريين يوسعون شخصيتهم بهذه النزعة الغالبة ولا يضيقونها . وانهم يتمون بها ولا ينقصون ، وهم الاستثناء فى هذه القاعدة ولا تخلو قاعدة من استثناء .

وسؤال المبدأ والختام عند المؤلف : ماذا يمكن أن يكون الانسان غدا ؟ وليس جواب المؤلف أنه سيعلو على الانسانية الى طبقة السوبرمان التى حلم بها دعاة القرن التاسع عشر ، وانما جوابه أن الانسان يتمم نفسه غدا فلا يحاول التحليق بجناح واحد ، وان المستقبل لانسان يعرف حق البدن ولا ينسى حق العاطفة وحق الروح والضمير [1] .

* * *

والعالم الطبيعى شارلز جالتون داروين — حفيد داروين الكبير — يثب وثبته البعيدة فى حساب السنين الى ما بعد مليون سنة ، ولكنه لا يجاوز فى وثبته ذلك المدى الذى ذهب اليه زملاؤه من القانعين بالنظر الى مدى القرن العشرين أو القرن الحادى والعشرين ، فيكاد أن يقضى بالأمل فى مصير الانسانية دونهم ، ويكاد أن يقول ان العصر الذهبى

---

(١) ملخص من كتاب « ماذا يكون الانسان » لمؤلفه جورج رسل هاريسون
What man may be, by G. Russell Harrison.

يمضى ولا يقبل ، وان التنازع على البقاء خليق أن يعود بالعالم الى معاركه العنيفة يوم كان العالم المعمور يضيق بساكنيه ويضن عليهم بالكفاف الذى يكفيهم جميعا فيتقاتلون أو يدفع بعضهم بعضا الى الهجرة والابتعاد ، وسيأتى اليوم الذى تضيق فيه موارد العالم عن سكانه ولا يسعهم يومئذ أن يعتصموا بالهجرة لامتلائه بالسكان وضيق منادح الخلاء فى جميع بقاعه ، الا أن يقع ما ليس فى الحسبان من أمر الأرزاق والسكان .

ويرى العلامة حفيد صاحب النشوء والتطور أن الناس يتغيرون ويتطورون مع الحضارة ولكن الانسان فى دخيلته لا يلوح عليه أنه استراح الى التطور الذى جاءه من قبل الحضارات المتوالية ، لأنه يكن فى طواياه بقايا الأزمنة المتطاولة التى سبقت تلك الحضارات ، ويستريح الى معاودتها كلما وجد بين يديه منفسا للمعاودة ، وقد ينكشف منه الحنين الى الماضى فى كثير من عادات الجد واللعب التى تشملها أعماله السلمية ، كأنها البديل الحاضر عن سوابقه فى العراك والنزاع .

ولا ينسى داروين الحفيد أن الانسان يتعلم وانه أقدر الحيوانات العليا على التعلم والاستفادة من التجارب المتعاقبة ، والفرق بينه وبين أنواع الحيوان فى هذه الخصلة عظيم لا مثيل له فى الفوارق المتعددة بين نوع منها ونوع آخر . الا أن الحيوان يورث أبناءه تجاربه الطويلة لأنها تتمثل فى الغريزة التى تنتقل فى لبابها بالوراثة ، وليس علم الانسان المكتسب بالعلم الموروث أو القابل للتوريث .

وهنالك وراثة تكاد أن تكون خاصة بالانسان تعوض النقص فى وراثته لمعارف آبائه وأجداده ، وتلك هى وراثة العقائد من طريق الجماعة التى يولد فيها . فلا يولد الانسان بعقيدته العامة ولا يخلقها لنفسه ولكنه

ينشأ عليها بتلقين من الجماعة يشعر به أو يتقبله على غير شعور منه ، وتدور هذه العقائد قرابة عشرة أجيال ، ثم تضعف وتخلفها عقائد أخرى مشتقة منها أو مناقضة لها فى بعض الأحايين ، ومن هـذا التوارث فى العقائد العامة يعود على الناس خير محمود العاقبة اذا بنيت العقيدة على صلاح ، لأن وراثة الاعتقاد ووراثة الحماسة له تؤديان الى القصد فى جهود الجماعة فلا تحتاج فى تجديد بواعثها الى العمل كل جيل .

ويشـير الدكتور داروين الى الفرق بين الطبائع الانسانية فى أمر الاعتقاد ، ويقتبس للتفرقة بينهما اصطلاحا شائعا يقسم الناس فى هذا الأمر الى قسمين : قسم الخراف وقسم المعز ، أو قسم المنقادين فى القطيع ، وقسم المفرقين من هنا وثم تارة على استقامة وتارة على انحراف ، وكلا القسمين لازم لحياة العقيدة فى استمرارها على وتيرة واحـدة أو فى استعدادها لقبول التنويع والتنقيح .

وليس من اللازم عند الدكتور داروين أن تكون العقيدة ديانة من ديانات العبـادة الكبيرة التى ينتمى اليها عشرات الملايين من مختلف الشعوب ، بل هو يعنى بالعقيدة كل مبدأ يؤمن به صاحبه ويستلهم منه الهداية فى غاياته ومعاملاته لأبناء قومه أو أبناء نوعه ، ولا غنى عن هذه العقائد الآن ولا بعد آلاف السنين .

فاذا أراد المصلحون تهذيب الانسان فوسائل الاصلاح المعروفة الآن ثلاث : أن يتولى المصلح تعليم أتباعه بالاقناع والتفهيم فينتهى سعيه بانتهاء حياته ولا يجتذب اليه غير القليلين ممن يعملون بآرائهم ويتغلبون بالفهم على التقاليد والبواعث الموروثة . فان لم يعتمد المصلح المهذب على الاقناع والتفهيم فسبيله أن يعتمد على التحسين « البيولوجى » أو تحسين الطبيعة على الطريقة التى تتبع فى تحسين النبات والحيوان ،

وقد تنقضى الأجيال قبل أن تظهر لهذا التحسين ثمرة تدعو الى المضى فيه والمثابرة عليه ، فلا يبتدىء العمل به حتى يدب اليه الاهمال ويتوقف السير فيه الى غايته المرتجاة ، وقلما يتعاقب مصلحان اثنان يتمم أحدهما عمل صاحبه على نسق واحد ، وقلما تتيسر له أسباب التنفيذ بعد حياته على النمط الذى يتوخاه وينظر الى عقباه .

فلم تبق من وسائل التهذيب المجربة غير وسيلة العقيدة الموروثة ، وهى عند سريانها تمتد بأثرها عدة قرون ، أو عشرة أجيال على التقدير المألوف .

وغاية ما يبلغه حفيد صاحب المذهب النشوئى ملخص فى ختام كتابه اذ يقول : ان الأمل كله مرهون بامكان تقرير القوانين العلمية التى تسيطر على الحياة بما يقارب الدقة التى تقررت عليها قوانين العلوم الطبيعية ، ثم يقول : « ان من حق غيرى ممن يعرفون عن التجارب البيولوجية ما أجهله أن يمهدوا لتقرير تلك القوانين ، ولكننى — مع التواضع البالغ — اجترىء على بيان الأسس التى أحسبها صالحة لأن تقام عليها ، فاما أن نأخذ فى هـذه الأسس بقول القائلين ان الانسان — باعتباره حيوانا — خاضع لقانون تنوع الأنواع الذى يحكم على الانسان بالبقاء بغير تبديل يذكر الى مدى مليون سنة ، وفى ذلك قضاء على فكرة الكمال الانسانى وآمال المتطلعين والمترقبين من ذوى الضمائر النبيلة والمطامح العالية . واما أن نأخذ فى تلك الأسس بقول القائلين ان الانسان حيوان آبد لا يسرى عليه ما يسرى على الحيوانات المدجنة ، واما أن نأخذ فيها بقول القائلين ان الصفات المكتسبة لا تورث ، وهو قول مقرر فى شئون الحيوان ولكنه قليلا ما يؤبه له فى الشئون الانسانية . فاذا بنى العمل على هذه الأقوال أو على ما يقابلها ويستبدل بها أمكن أحيانا أن نزن

بها صلاح السياسة المتبعة فى قيادة الشعوب وأن يلاحظها السياسى الحكيم فى عمله فلا يضيع جهده عبثا ، لأنه بذلك دون سـواه يستقيم على جادة التوفيق .

فما التدبير الذى ندبره اذن لمستقبل النوع الانسانى ؟ أخشى أن يسفر الجواب عن قليل ، وذلك لسبب جد بسيط وهو قلة اكتراث الناس لما سوف يجرى فى المستقبل البعيد ، ومعظمهم انما يكترث للغد الذى يمس أبناءهم وحفدتهم ويلوح له ما وراء ذلك كأنه شىء بعيد من الواقع ، وقد ينظر المفكرون الى المستقبل البعيد ويرون فى الوقت نفسه أن الشكوك والريب أكبر من أن تتضح خلالها خطة مقررة . ولنضرب لذلك مثلا نفاد الوقود فى الأزمنـة المقبلة . فاننى أعلم أن أبنـائى لا يصادفون منه أزمة ذات بال ، وقد أعلم أن الجيل الخامس عشر بعد أبنائى لن يجدوا عندهم فحوما على الاطلاق . أترانى أكف عن ايقاد الفحم فى الليالى الباردة خوفا من اليوم الذى يبحث فيه أبناء الجيل الرابع عشر من نسلى عن الفحم فلا يجدونه ؟ ان هذه الأمور تلوح لنا فى ابتعادها من الواقع المحسوس بالمكان الذى يجردها من الوزن والخطر. وان الحياة لعلى خطر التقلب فى كل حين ، ومن العسير أن تتيقن من البقاء ولو الى عشر سنوات ، فلا جرم لا نرى أحدا يبالى جد المبالاة ما سيكون بعد قرن من الزمان . وما من خطب من خطوب الدنيا يشغل الانسان أمدا أطول من ذاك .

« بيد أن المستقبل البعيد قد يعمل له الآن ما لم تجر العادة بعمله قبل الآن . ومن ذاك أن مساعى الاصلاح كانت فيما مضى تنحصر فى تحسين أحوال الانسان ولا تعنى كثيرا بتحسين طبيعته . فما هو الا أن تتبدل الأحوال حتى تذهب المساعى الى ضياع . وانما الأمل الوحيد أن تنصب

تلك المساعى على خطة من الاصـــلاح لا تنقضى بانقضـــاء الأحوال والظروف . وستكون أصول الوراثة المقررة فى علم الحياة مرساة يستقر عليها كل نفع وثيق يرجى لنوع الانسان .

« وأعبر فى الختام عن ميولى الخاصة فأقول اننى شديد الاهتمام بمصير العالم وأود حق الودادة أن يكون لذريتى دورهم فيه ، ومهما يكن من نزارة العلم بالمستقبل فليس مما يقنعنى أن يكون مســـتقبلا تنقطع الصلة بينى وبينه ، وأيا كان مصير الحياة الى السعادة أو الى الشقاء بعد أجيال — ولا مفر من الشقاء على أية حال — فانها لتجربة تستحق العناء » .

---

(١) ملخص من كتاب المليون السنة التالية لمؤلفه شارلز جالتون داروين
The Next Million Years by Charles Galton Darwin.

٦ — تعقيب وتمهيد

من نماذج البحوث التى أسلفنا ايجازها وتلخيصها تتعرف الى شكل من الأشكال الخاصة بالقرن العشرين فى بحوث علمائه التى يستفتحون بها مغاليق الغيب ويتطلعون فيها الى مجاهل المستقبل القريب والبعيد. فان للقرن العشرين طابعا منفردا فى هذه البحوث بين بحوث العلماء فى بابها قبل بضعة قرون.

هنـــاك نظرات الحكماء الى المستقبل من قبيل الطوبيات Vtopias أو المدن الفاضلة كما سماها الفارابى فى ترجمته لجمهورية أفلاطون ، وطريقة الطوبيين حين ينظرون الى المستقبل أن يتفطنوا لعيوب الحاضر ثم يرسموا للمستقبل مجتمعا يتنزه عن تلك العيـــوب ويصلحها بما يستطاع من أعمال الانسان أو أعمال العناية الالهية ، ولا سبب عندهم يدعوهم الى انتظار الطوبى الموعودة الا أنها أفضل من المجتمع الحاضر وينبغى أن يكون مفضلا عليه فى عرف الناس ، ولا يدرون بعد ذلك أقريب هو أم بعيد ؟ وموجود بعد حين هو أم غير قابل للوجود ؟

وهناك أحلام اليقظة التى يتعلق بها فكر الحكيم ويصوغها على ما يرتضيه ، وكأنه ضرب من القصص التى تجمل الواقع بحلية مستعارة من الرؤيا والخيال.

وهناك الفراسة التى يستعان بها على كشف المجهول فى الغد كما يستعان بها على كشف المجهول فى هذا الزمن : ظنون المعية كالتى عناها شاعرنا العربى اذ يقول فى وصف ممدوحه :

الألمعى الذى يظن بك الظـ   ـن كأن قد رأى وقد سمعا

وأتم ما تكون هذه الفراسة حين تترقب الممكن وتتجنب الشطط فى الحدس والرجاء .

وهناك العصور الذهبية التى يلفقها الفكر والخيال معا من وقائع الماضى وأمثلة الحاضر وأمانى المستقبل ، وقد يتوهم بعضهم أنها صفحة مطوية يعاد نشرها أو أنها صفحة يكتبها الغيب وتستطلع منها السطور بعد السطور .

نظرات الباحثين عن المستقبل فى القرن العشرين ليست فى طابعها الخاص به على نموذج من هذه النماذج : ليست هى من الطوبيات ولا من الأحلام ولا من فراسة الحدس والفطنة ولا من صور العصور الذهبية ، ولكنها أشبه ما تكون بحساب المهندس لحركات الجهاز المعروف بسرعته وطاقته ، يمشى فى أرض مرسومة على الورق كما ترسم الخرائط على البيد ، وقد يكشف العيان منها عن خلل فى التفاصيل ، وان لم يكن بها خلل فى الأبعاد .

هى حساب : فهى تصيب كما يصيب الحساب وتخطىء كما يخطىء ، ولا يمتنع أن يكون خطؤها من وراء الحسبان أشد من خطأ الظن والفراسة .

ونحن نراجع « التقديرات » التى يبسطها لنا الباحثون فى القرن العشرين كما ننظر الى الخائض على قدميه فى البحر اللجى الى مقربة من الشاطىء ، ونعلم أنه يخوض الموج على أرض ثابتة راسخة ، ولكن ماذا يحدث ياترى اذا أخذ فى العوم والسباحة بعد المشى على قدميه ؟ وكيف يتغير البحر اللجى عليه بين قوة الموج وقوته هو على السباحة ، وبين الساحل القريب والقرار العميق ؟

سيحدث الخلاف فى التقدير لا محالة ، ولكن التقدير مع هذا يظل

لدينا تقديرا صحيحا على أصدق ما يكون فى حيز الامكان ، وقد نلمحه نحن كما يلمحه الخائض السابح ، وقد نجهله جميعا ولا لوم علينا أو عليه.

ومما يتسم به هذا الطابع الخاص بتقديرات القرن العشرين الى المستقبل أنه مصحوب بالحذر والتحفظ يؤثر أن يتريث فى مكانه خطوتين على أن يتقدم خطوة واحدة لا يعلمها ، وتلك سمة من سمات البحوث العلمية فى مختلف الدراسات . لا نريد أن نقول انها أصدق فى العلم وأقرب الى الأمانة العلمية ، ولكنا نريد أن نقول بحق انها مأمونة عند الحساب قليلة الكلفة عند المطالبة بالدليل . فاذا لاحت للعالم صورة مشكوك فيها ثم سكت عنها أمن المحاسبة وخلص من المطالبــة بأدلة الاقناع أو أدلة الترجيح ، ولعله لايناقض العلم اذا قرر ما يراه وأبان عن شكه فيه ، بل لعله لا يناقض العلم اذا قرره كما تقرره النظريات التى لاغنى عنها قبل الاثبات القاطع بالبرهان أو بالعيان..

وعلى هذا الحــذر والتحفظ من المتطلعين الى المستقبل فى القرن العشرين نرى أن التفاؤل بالغد شىء يبيحه لنا مد النظر الى غاية مداه ، فانه تفاؤل لا يدخل بنا فى عالم الطوبيات ولا فى أحلام اليقظة ، وليس من قبيل الحنين الى العصور الذهبية ولا من قبيل الفراسة التى تتأمل على البعد قبل أن تلمس البوادر مما تراه .

علم القرن العشرين فيه وعد كبير ، أوشك من كبره أن ينقلب فى بعض نواحيه الى وعيد .

فمن وعده الكبير أنه يهيىء للأمم المتقدمة والمتأخرة شروط المعيشة الصحية ويعلمها فنون العــلاج والوقاية ويوفر لها أنواع المطهرات والمبيدات التى تدفع الأمراض وتستأصل جراثيم الأوبئة ، فتكثر المواليد وتقل الوفيات ويتضاعف سكان الكرة الأرضية على نسبة لم تعهد فى

القرون الغابرة ، وذلك كله علامة خير وبشير أمان ، ولكنه — بما فيه من الخير والأمان — ينطوى على نذير بالشر غير مأمون العاقبة ، بعد أجيال .

ونذيره بالشر أنه يربى بعدد السكان على الكفاية من الأقوات والأرزاق ، فيتناحرون ويلجئون فى حروبهم الى أسلحة جائحة لم يعهد لها كذلك نظير من قبل فى الابادة والتدمير .

ويسمعنا القرن العشرون وعده الآخر بعد هذا الوعيد المحذور : يسمعنا وعده بالقدرة على استدراك النقص فى الأقوات والأرزاق بما يستطيعه الآن ، وما يهدى اليه فى المستقبل ، من تسخير العلم والصناعة فى استخراج الأقوات والأرزاق من الأرض البور ومن المواد المستصلحة للغذاء ، ومن ذخائر الطبيعة التى أهملها الانسان قبل الآن عجزا عن تسخيرها وجهلا بما تحتويه ، وقد يتقى انسان المستقبل غوائل ذلك النذير بتدبير نفسه فى شئون نسله وأسرته ، فلا يضيق بالرزق له ولذريته على قدر مقدور .

ويعود المنذرون المتشائمون فيتساءلون : ترى هل تتم الوقاية قبل الخطر ؟ وهل من ضمان لتأجيل الخطر وتعجيل الوقاية قبل فوات الأوان ؟

ومناط الأمل كله فى دفع الخطر أنه خطر عظيم ، بل انه الخطر الأعظم والخطر الأخير الذى لا خطر بعده ولا استدراك لجرائره ومعقباته . فان لم يكن فى وسع الانسان أن يتعقل ويعمل رويته فى هذا المأزق الذى لا مأزق قبله ولا بعده فالآفة فى جهله شر من الآفة المحذورة من كل مصاب ، وبليته واقعة محتومة قبل البلية بأسلحة .

ومن وعود القرن العشرين التى يرجى أن تنجزها الأيام على مهل ، وعلى درجات ، انه سوف يتأدى الى صلاح الانسان نفسه وصلاح

الجماعة الانسانية بما يمهده لها من حسنات العلم والصناعة .

وأقرب هذه الحسنات الى التحقيق أن تتقارب الأمم وتتقارب الطوائف والطبقات فى المجتمع الواحد . فان اشتباك العلاقات والمعاملات ، بين أمم العالم يسوقها الى التعاون باختيارها وعلى كره منها ، وانتشار الصناعة يؤدى الى توزيع الأعمال والأرزاق بين الطوائف والآحاد ، كما يؤدى الى توزيع الكفايات والمواهب ، فلا تتحكم طائفة واحدة فى غيرها ولا تعجز طائفة من الطوائف عن صيانة حقوقها ، ولا تنفصل هذه الحقوق كل الانفصال بين فريق وفريق من أبناء الأمة الواحدة ، ويشفع هذا التقدم فى حق الفرد وحق الطائفة أن يتسع الفراغ للمطالب الكمالية — مطالب الذوق الجميل والفطنة المتفتحة والرياضة المقومة للأبدان والأذهان — فيتقدم الانسان فى خلقه وأدبه ولا يقف به تقدم الصناعة عند تقدم الآلات والمصنوعات . وبين الوعد والوعيد من طوالع القرن العشرين تسوغ لنا الموازنة على الغيب فلا نغلو فى التفاؤل اذا رجحنا جانب الوعد على جانب الوعيد . فانه جانب له أسبابه الملموسة ومقدماته الراجحة ، ودعائمه التى تستقر على الأرض ولا تطير الى أشباه السحاب من دعائم الطوبيات والأحلام .

* * *

فيما يلى من فصول هذا الكتاب تعقيب يضيف الى ما تقدم من التمهيد ولا يخالفه فى أساسه ولا فى سياقه ، لأنه لا يفارق قواعد العلم التى تحراها الباحثون وأصحاب الآراء ، ولكنه يتحرى التفسير والأمل ، حيث يتحرون الاحصاء والحذر ، وكلاهما جائز لنا — بل واجب علينا — اذا أردنا أن نأخذ من علم هذا القرن كل ما يعطيه .

ليس العلم مجعولا للأخبار وحدها ، ثم ينقلب بعدها جهلا لا فائدة فيه .

انه لمجعول كذلك للفروض أو لما يسميه العلماء المتحرجون بالنظريات، وانها لتلحق بكل علم من علوم اليقين وتسبق كل علم يتبعها ، وان لم يبلغ بعد مبلغ اليقين .

ونحن فيما يلى من التعقيب لا نبيح لأنفسنا أن نلم بفرض أو تفسير لم تمهده لنا سوابق العلم ومقدمات التاريخ ، ولكننا — على الكفة الأخرى — لا نبيح لأنفسنا أن نهمل فرضا واحدا يقوم اهماله على مجرد الدعوى ، أو على مجرد الحــذر ، ولا يقطع به قول فصل أو خبر وثيق .

وقبلتنا فى النظرة الى الغد أن نسأل الماضى عن معناه ، وأن نلتمس هذا المعنى فيما سيكون ، وفيما سوف يكون ، قياسا على ما كان .

ان للتاريخ الانسانى وجهة تدل عليها العقبات والعوائق كما تدل عليها الدوافع والممهدات ، وان تاريخ الآلة من عهدها الحجرى الى عهد الذرة لمعالم قائمة تهدينا الى تلك الوجهة من البداية الى النهاية ، وعلى هذا الفرض — أو هذه النظرية — مدار النظر فيما يلى من التعقيب .

الباب الثاني

تعقيب ومراجعة

يشتمل هذا الشطر من الكتاب — وهو الباب الثانى منه — على الفصول التالية :

١ — معنى التاريخ .

٢ — غاية النوع .

٣ — الآلــــة .

٤ — خواص المادة والنظرة « المادية » .

٥ — الايمـــان .

٦ — العوالم الأخرى .

٧ — عالمنـــا .

٨ — أفريقية وآسيا .

٩ — المجتمـــع .

١٠— الأسرة والمرأة .

١١— الفن والعلم .

١٢— خاتمة فى سطور .

١ — التـــاريخ

هل للتاريخ الانسانى معنى ؟ هل للماضى رابطة بالحاضر تهدى الى المستقبل على سبيل اليقين أو على سبيل الظن والترجيح ؟

يخطر هذا السؤال على الذهن كلما نظـــر الى المستقبل ليستطلع خباياه ، ويعود الذهن بعد الجهد الجهيد بجوابين مختلفين كلاهما يحتاج الى دليل .

نعم ، للتاريخ معنى يدل على خطة مطردة بين ماضـــيه وحاضره ومستقبله .

كلا . ليس للتاريخ معنى ولكنه مصادفات تتكرر أو تتناقض على غير وتيرة معروفة .

والذين يقولون بهذا الرأى يحسبون أنهم خلصوا من الســـؤال والمناقشة ، وانهم غير مطالبين بالدليل ، لأنهم ينكرون ولا يدعون .

لكنهم فى الواقع مطالبون بأدلتهم كما يطالب بها القائلون بالخطة والتدبير ، فان الاثبات والنفى يتساويان فى طلب الحقيقة ، وان اختلفا فى ساحة القضاء وليس المدعى وحـــده هو الذى يبحث عن الحقيقـــة ويسأل عنها .

ان الكواكب والسيارات تجرى فى أفلاكها وتطلع فى بروجها ومنازلها ونعلم من حركاتها الماضية كيف تكون حركاتها التالية ، ومتى يعرض لها الكسوف والخسوف وأين تشرق وأين تغيب .

فلم تجرى حركات التاريخ الانسانى على غير هذا النسق ؟ وكيف ينتظم مدار الفلك ولا ينتظم مدار الحياة الانسانية ؟

من قال ان النظام هنا موجود كالنظام فى حركات الأفلاك ولكننى أجهله ولا أعرف من ماضيه وحاضره ما يدل على مصيره فهو — بحق — صاحب القول الذى يعفى قائله من الدليل .

أما الذى يقرر الاختلاف جزما وتوكيدا بين حركات الأفلاك وحركات الأمم ولا يرى فى ذلك غرابة ولا يسأل له عن سبب فهو الذى يقرر حكما معتسفا بغير دليل ، ولا بد له من دليل .

لم يختلف نظام الكواكب ونظام الأمم ؟ ولم يعتبر هذا الاختلاف أمرا طبيعيا يدعيه من شاء ولا يلزمه البرهان على ما يقول .

ان انكار النظام هنا ليس بأيسر الجوابين ، بل هو عند البحث فى أسبابه ونتائجه أصعب الجوابين وأغربهما وأحوجهما الى البحث من جديد ، الى أن يستقر البحث على قرار .

من قال بالخطة المتبعة والتدبير المقدر فليس من اللازم أن يبسط أمامنا الخطة المتبعة بتفاصيلها ويضع أيدينا على أوائلها وخواتيمها ، وكل ما يلزمه « أولا » أن يدحض حجة الفوضى والارتجال الأعمى ، وأن يقرر الفرض المعقول ثم يقرر أن الواقع يؤيده ويجرى فى مجراه ، وأدل من ذلك على صحة الفرض المعقول أن الغرض المقصود من الخطة المتبعة يتحقق بما يظهر أنه يناقضها كما يتحقق بما يظهر أنه يجاريها ويمضى فى طريقها .

وسنرى أن هذه الدعوى يسيرة الاثبات ، أو أنها على الأقل أيسر اثباتا من دعوى الفوضى والعمل الجزاف .

أما نفى الخطة المتبعة وادعاء المصادفة المحضة فليس من اليسر بالمكان الذى يحسبه من يقولون بالمصادفة على أى وجه من الوجوه ، وانهم ليقولون بالمصادفة على وجوه كثيرة ، دليل بعضها غير الدليل الذى يقوم به ادعاء الآخرين .

فالمصادفة عند بعضهم مرادفة لمعنى الفوضى والخبط فى الظلام ، تهدم اليوم ما تبنيه وتبنى ما تهدمه ، وتتقدم وتتأخر فى العمل الواحد وفى الساعة الواحدة ، وتتصرف فى عموم حركاتها وأفعالها كأنها مئات من الأضداد يجذب كل منها الى ناحيته ولا يستطيع أحد أن يعلم أنه يجذب فى الناحية الواحدة مرتين ، ومن ادعى ذلك فلا حاجة الى تفنيد قوله بالبحث الطويل وراء حوادث الماضى والحاضر ، فان ظواهر اللحظة الواحدة كافية لتفنيد ما يدعيه ، وان فهمه للمصادفة حتى على هذا الوجه لا يتأتى بغير وجود النظام الذى ينبغى أن تقاس اليه مصادفات الفوضى والخبط فى الظلام ، ولا بد من بعض النـور لنعلم كيف يكون ذلك الخبط فى الظلام .

والمصادفة عند غير هؤلاء لا تنقض النظام ولكنها قد تصاحبه وتتممه وقد تلازمه فى حالات وتفارقه فى حالات ، وعلى هذا النحو تفهم المصادفة فى مذهب الفيلسوف الكبير شارل بيرس Charles Peirce رائد البرجمية المشهور . فانه لا يفهم المصادفة كأنها الضد المناقض للقوانين الطبيعية ، بل يفهم منها أنها قوانين فى انتظار التكوين ، وان قوانين الكون لم تتم جميعا فى لحظة واحدة ولم تكن هكذا كما نعهدها الآن فى كل زمن وكل ظاهرة طبيعية ، ولكن القوانين الكونية أخذت فى جريانها مجرى العادة على درجات وأدوار متعاقبة ، ومن الجائز أن يشمل القانون الواحد كل ظاهرة من ظواهره فى الكائنات المادية ولا يشمل جميع الظواهر فيما يتعلق بالحياة ، ومن أمثلة ذلك عنده أن قانون الحركة المكنية التى تطرد وتنعكس لا ينطبق على حركة النمو فى النبات أو الحيوان ، وأن الحقائق التى تستخرج من حركات الأجسام فى الجملة لا يلزم أن تطابق حركات أجزائها ، أو جزئياتها الدقيقة كل المطابقة .

فالمصادفة عند الفيلسوف بيرس لا يتحتم أن تناقض القانون الطبيعى أو تبطله ، وقد يكون حكمها كحكم مشروعات القوانين أو حكم القرارات الفرعية فى اصطلاع المشرعين ، فمن قال بها لم يحسب من القائلين بالغاء الخطة المتبعة فى سياسة الكون .

* * *

وتفهم المصادفة بمعنى غير ما تقدم عند فريق من القائلين بنفى القصد والتدبير فى حركات التاريخ وحركات الطبيعة على الاجمال ، فلا هى فوضى تناقض القوانين ولا هى تتمة للقوانين أو زيادة عليها تجاورها ولا تدحضها .

فعند هذا الفريق من القائلين بالمصادفة أن المصادفة هى القوانين الطبيعية ذاتها ، وأن القوانين الطبيعية انما تولدت من المصادفة بغير تدبير مقصود .

قال أحد هؤلاء : اننا لو فرضنا أن فردا أمام صناديق الحروف يرتبها جزافا على كل وضع محتمل لتكونت منها فى وضع من الأوضاع كتب مفهومة كالياذة هوميروس ، لأن الالياذة مجموعة من الحروف على وضع من الأوضاع لابد أن ينتهى اليه التعديل والتبديل فى ترتيب حروف الصناديق على طول الزمن ، وليس أطول من الزمن الذى مضى على الكون مضطربا متقلبا بين ألوف الألوف من الأشكال والقوالب التى تتناسق أحيانا وتتضارب أحيانا ولا بد لها من التناسق على شكل من تلك الأشكال فى وقت من الأوقات .

وهذا القول ضرب من التخمين يستلزم وجود التدبير وراء ذلك التبديل أو التعديل ، لأنه يستلزم « أولا » أن يجرى التبديل أو التعديل فى وضع الحروف على كل وجه محتمل ولا يدع وجها واحدا يتخيله

الذهن الا صار اليه ثم عدل عنه الى غيره ، ويستلزم « ثانيا » أن يكون هناك اجتناب متعمد للخطأ وأن يكون ذلك الخطأ معروفا بالنسبة الى الصواب المقصود فى النهاية . والا فان الفرد يمكن أن يقع فى أخطاء متعددة ويعود اليها أو الى مثلها بغير نهاية ، فان قدرنا أن ذلك لا يقع فنحن نقدر اذن أن هناك تدبيرا يقود يديه ويوحى اليه أن يختار ترتيبا بعد ترتيب على كل وضع يخطر على البال ، وقد يضع الألفات فى موضع الياءات أو يضع الحروف جميعا فى عين واحدة فلا يؤدى تكرار وضعها الى نسق تتألف منه الكلمات ، وان مصادفة كهذه المصادفة لهى أدل على الغاية والاستقامة على طريقها من قول الذين يقررون قيام القوانين من البداية هكذا بطبيعة مستقرة فى أصل الوجود ، وهو قول غريب — ولا ريب — ولكنه أقل غرابة من الخطأ الذى يتكرر على وجه ولا يعود الى الخطأ مرة أخرى ، ولا يدع احتمالا واحدا الا استقصاه كأنه يحصى جميع الاحتمالات بغير نسيان ولا اخلال .

وآخرون يقولون ان القوانين ليست بقوانين فى لبابها ، وانما نحن جزء من هذا الكون نلائمه ويلائمنا ولابد أن نشعر بالوفاق بين وجوده ووجودنا فنسمى هذا الوفاق قانونا وما هو بقانون . انما نحن مستقرون فى عالم من العوالم وهذا الاستقرار هو العلاقة القائمة بيننا وبين عالمنا نسميها نظاما وليست هى بنظام فى جميع الأحوال وعلى جميع التقديرات .

وفحوى كلام هؤلاء أن القانون لا يوجد وليس من طبيعته أن يوجد، وأنه اذا وجد فمن الواجب ألا نكون نحن موجودين على وفاق معه ، لأن هذا الوفاق يلغى تصورنا للقانون فى جميع الأحوال وعلى جميع التقديرات ، وفحوى هذا الكلام مرة أخرى أننا بين عالمين لا يتشابهان :

عالم نستقر فيه ولا يوجد فيه القـانون ، وعالم يوجد فيه القـانون ولا قرار لنا فيه .

* * *

وعلى أى معنى من هذه المعانى فهمنا المصادفة نرى أنها حل قاصر عقيم ، أو نرى أنها فى نهايتها اغضاء عن الحلول وبحث موقوف كأنه القاء للعبء عن الكاهل فى منتصف الطريق ، مع تجاهل البقية الباقية من الطريق ، فليست المصادفة اذن أقرب الحـلول ولا أضمن المواقف ، وليست هى كما يحسب أصحابها أمانة علمية تنتهى عند حدود المعرفة الانسانية ، لأنها فى هذا الباب أقل من حرف (س) الذى يشـير الى المجهول ويتركه مجهولا الى حين . فان حرف (س) أمانة علمية لا شك فيها من جانب الباحث الذى يجهل الحل ويعترف بجهله اياه ، ولكن المصادفة جزم برأى ونفى لرأى مخالف له ، وهو الرأى القائل بالتدبير ، ومن جزم بهذا الرأى بغير دليل قاطع ينفى ما عداه فليس له أن يسمى ذلك أمانة علمية ، وان كان من العلماء الأمناء .

انما الأمانة فى مسألة كهذه أن نقف منها موقفنا من الأرصاد الجوية التى تصيب وتخطىء وقد تخطىء أكثر مما تصيب ، وهى — مع ذلك — تنبئنا عن ظواهر طبيعية محكومة بقوانينها التى لا يمترى فيها باحثان ، فما من عالم يقول ان الرياح وأشعة الشمس وعوارض المد والجـزر وحرارة القشرة الأرضية وطبقات الجو العليا تندفع بغير ضابط وتسكن لغير سبب ، وما من عالم يزعم أن النبوءة عنها مستحيلة مع الوقوف على جميع أسبابها وعواملها ، غير أن الرأى السليم فيها أن نفهم أنها عوامل طبيعية قابلة للتقدير الدقيق بجميع تفصيلاتها وتقلباتها ، ولكننا لا نحيط بها جميعا ولا نحقق النتائج على صحتها لأننا لا نحقق الأسباب على

صحتها ، وهى هى تلك العوامل المحسوسة المتكررة الخاضعة للمراقبة والتسجيل فى مواقعها من الأرض والفضاء .

ونحن نسمح لأنفسنا بالجهل فى أمثال هذه الظواهر الطبيعية ونسمح لأنفسنا بالتردد فى الحكم عليها ، ونقرر وجـود الضوابط لها ونحن عاجزون عن ضبطها . فأحرى بنا أمام العوارض التاريخية التى تتسع لمجهولات الطبيعة الظاهرة والباطنة أن نقف منها موقفا كهذا الموقف وأن ندين بالأمانة العلمية على هذا النحو فلا نزيد عن حرف (س) الذى يرمز الى المجهول ، حتى نستبدل به جوابا أقرب الى الوضوح والبيان .

ولسنا نريد أن نخطو خطوة واحدة وراء الحد الذى تسمح به الأمانة العلمية حين نفضل القول بالتدبير على القول بالمصادفة العمياء . ولكننا نريد أن نضيف النظريات العلمية الى التجارب المقررة ، لأن الأمانة العلمية تقضى علينا بأن نطرق كل باب من أبواب التفسير ولا نغلق بابا منها بغير برهان .

ان الأرصاد لم تثبت لنا شيئا قاطعا عن حركات الكهارب والنويات وعن السوالب منها والموجبات والمتردد منها بين السلب والايجاب تارة الى هذا وتارة الى ذاك ، ولكننا أضفنا النظريات الى التجارب فيما نعلم عنها فصح التقدير فى كثير من الأحوال .

لتكن عندنا اذن شجاعة النظريات العلمية لتفسير الظواهر المطردة فى تواريخ الأمم ، لا بل هو الواجب العلمى وليس بالشجاعة العلمية وكفى ، اذ كان الواجب يأبى علينا أن ندع نظرية من النظريات دون أن يكون لاهمالها سند ثابت لا مراجعة فيه .

وأحرى بالمفكر العصرى أن يتوســع فى مذهب الفيلسوف الكبير وليام جيمس الذى شرحه قبل هذا القرن العشرين فى مقاله البديع عن

ارادة الاعتقاد (١٨٩٧) وسماها أحيانا بشجاعة الاعتقاد ، وحجة المفكر العصرى فى ذلك أن الزمن قد تقدم بنا كثيرا فى هذه الوجهة وفرض علينا شجاعة أدبية غير الشجاعة الأدبية التى كانت مفروضة علينا فى عصور الحجر الظالم والتقليد الأعمى والاستسلام الذليل للخرافات والأوهام خوفا من اغضاب الطغاة أو اثارة الدهماء . ففى تلك العصور الغاشمة كان الشك واجبا عقليا وكان اعلان الشك شجاعة أدبية نفسية ، ولكن هذه الشجاعة فى عصرنا هذا سيف يضرب فى الهواء وحرب فى ميدان خلو من الأعداء ، وانما الشبح الجديد الذى يتقاضانا شجاعتنا الأدبية هو شبح العناد فى الانكار والانطلاق الى الطرف الآخر وهو طرف الاحجام عن اظهار الاعتقاد أو الميل اليه خوفا من مظنة التأخر والجحود ، فأصبح الانكار مجاراة للعرف أيام الجهالة والجمود .

يقول الفيلسوف الكبير وليام جيمس فى مقاله عن ارادة الاعتقاد :

« ان القضية التى أدافع عنها هى : ان طبيعتنا الوجدانية لا يحق لها بل يجب عليها أيضا أن تفصل فى مسألة الاختيار بين الآراء كلما كان الاختيار بينها داعية صدق لا تقبل الحل بالوسائل العقلية ، لأننا اذا قلنا فى هذه الحالة : دعونا نترك الباب مفتوحا ، فهذه حالة وجدانية لا تختلف عن القول بنعم أو بلا ، وفيها نفس المجازفة بفقدان الحقيقة » .

ويقول فى مقاله هذا وهو قريب مما نسميه بشجاعة النظريات :

« ان الاعتقاد — حين نقيسه بالمقياس العملى — لابد أن يسبق الاثبات العلمى ، ونزيد على ذلك أنه هناك طائفة من الحقائق يكون الاعتقاد عاملا من عواملها كما يكون معبرا عنها ، وأن العقيدة بالنسبة الى هذه الحقائق لا تعتبر جائزة أو مناسبة ولا زيادة ، بل تعتبر مع ذلك

جوهرية وضرورية لا غنى عنها ، وأن هذه الحقائق لا تصبح حقائق حتى تكون عقيدتنا هى التى جعلتنا كذلك » .

وعلى هذه السنة نكون علميين ولا نقنع بالفلسفة وحدها اذا وضعنا النظرية العلمية مكان القانون العلمى المقرر وفسرنا ظواهر التاريخ بمعنى القصد والغاية ، ورأينا أن الاعتماد على الشجاعة العقلية هنا أولى بنا من الاعتماد على الراحة والقول بالمصادفة هربا من تكاليف الدعوى واسقاطا لمؤونة التفسيرات .

ليكن هذا المذهب فى دراسة التاريخ نظرية علمية تقيس المعلوم على المجهول وتطرق أبوابا من الاحتمال المفتوح لا يجوز للعقل الأمين أن يوصدها ويحرم النظر فيها بغير برهان .

ودعوانا أن نظرية التاريخ المفهوم ، أو نظرية الغاية فى التاريخ ، تفسر لنا أمورا كثيرة لا تفسرها المصادفة البحتة بغير معنى ، فضلا عن المصادفة التى تلغى المعنى وتحسب الحوادث فوضى تخبط من ماضيها الى مستقبلها خبط عشواء .

وعلينا أن نبنى دعوانا على أساس صالح لاقامة البناء عليه ، وهذا الأساس هو مطابقة الواقع للغاية التى يمكن أن تتخيلها اذا قرنا أن التاريخ تدبير يشير الى وجهة ، فما هى الغاية التى يتصورها العقل ويتطلبها البحث من وراء حوادث العالم بالنسبة الى النوع الانسانى وبالنسبة الى الانسان الفرد وبالنسبة الى الطوائف والجماعات ؟

اننا اذا استطعنا أن نوفق بين الحوادث المتفرقة وبين هذه الغاية جاز لنا ، بل وجب علينا ، أن نقول بمعنى التاريخ ، وذلك ما نتحراه ونرجو أن نتبينه فى المقارنة الموجزة بين بداية التاريخ المعروفة وبين حاضره المشهود .

٢ – غاية النـــوع

اذا كانت للتاريخ الانسانى وجهة فهى وجهة أبدية تحيط بالزمن كله غير مقصورة على الانسان منذ ابتداء تاريخه ولا قبل ابتداء ذلك التاريخ.

ومثل هذه الوجهة لا ندركها من الالمام بنقطة واحدة فى مجرى الزمن، ولا نستطيع أن نحيط بها الى نهاية الزمن ، ان كانت له نهاية .

ان نقطة واحدة من الزمن كنقطة واحدة من المكان ، لا تدل على شىء فى ذاتها ولا تدل على ما حولها ، وقد تبدو لنا كأنها بقعة مهملة أو وصمة تستحق أن تزال ، كما تبدو النقطة الصغيرة فى الصـــورة الكبيرة ، وهى — لو زحزحنا عنها الغطاء قليلا من قبلها ومن بعدها — ترينا من الصورة عينا ناظرة فى وجه كائن حى ندرك وجوده ، وان كنا لا نراه .

أما غاية الزمن كله — ولا سيما الغاية الأبدية — فنحن لا نحيط بها وان تكشفت لنا بجميع أسرارها ، لأننا — فى مداركنا المحدودة — لا نحيط بوجود أبدى غـــير محدود ، ولن نرى من الغـــاية القصوى الا ما اقترب منا ووافق أبصارنا وبصائرنا ، ولن نراه على حقيقته الكاملة الوافية ، بل قصارانا من الجهد أن نراه كما يتمثل لنا رموزا مترجمة عن الحقيقة ، كما تترجم هزات الأثير والهواء بالألوان والأصداء .

انما ندرك وجهة التاريخ بفترة منه بين النقطة الحاضرة والغاية الأبدية :

ندركها بشوط من أشواطه الطويلة يبتدىء وينتهى على علم منا ، وله بين بدايته ونهايته مسيرة مطروقة نعرف منها معالمهـــا ومراحلها ، ونعرف من تلك المعالم والمراحل : هل هى وجهة متتابعة أو شتات من الخطى فى كل اتجاه ، والى غير اتجاه ؟

فلنفرض ولنقدر .

ولنا ، بل علينا ، أن نفرض ونقدر كما تعلمنا من العلم العزيز علينا نحن أبناء القرن العشرين .

لنفرض وجهة التاريخ التى نعقلها والتى نتمناها للنوع الانسانى ، كما نتمناها للانسان الفرد والجماعة من الناس .

لا نستطيع بعقولنا وعواطفنا أن نتمنى للنوع الانسانى غاية أفضل وأطيب من الوحدة العالمية التى يتحقق بها وصف النوع وتمامه .

ولا تستطيع عقولنا وعواطفنا أن تتمنى للانسان الفرد غاية أفضل وأطيب من زيادة الكفاية والمعرفة .

وليست للجماعات المتفرقة غاية أفضل لها وأطيب من أن تتقارب على سنة الانصاف وأن تزول بينها فوارق الظلم والخضوع .

* * *

فاذا كنا قد أحسنا التقدير على هذا الفرض الذى نتمناه ونعقله فلعلنا نحسن الملاحظة اذا رجعنا الى حوادث التاريخ من مطلعه ففهمنا أن هذه الوجهة قائمة ، وأن النوع الانسانى يتجه فعلا من التفرق الى التضامن كما يتجه الفرد من الهوان والضياع الى الكرامة والكفاية ، وتتجه الجماعات من التفاوت والتغابن الى التقارب والانصاف ، وقد نتردد فى الاختيار بين هذه الوجهة وبين وجهة أخرى تماثلها ، ولكننا لا نتردد طويلا فى ترجيح هذه الوجهة وأمثالها على القول بالعبث والفوضى فى تاريخ الانسان كله أو القول بنقيض تلك الوجهة فى جميع تلك الأحوال .

(أ) وجهة النوع الانسانى

فالنوع الانسانى ينتقل فى تاريخه المعروف من التفرق فى الموقع والمصلحة الى التضامن فى جوانب الأرض وفى مرافق المصلحة العالمية .

ينتقل من القبيلة ، الى الشعب ، الى الدولة ، الى الجامعة الدينية أو العنصرية ، الى التوازن بين مجموعة ومجموعة من الفئات الدولية ، الى هذا الاشتباك المتلاحم فى سياسة العالم ومواصلاته وعلاقاته ، الى الوحدة التى أوشكت أن تكون وحدة للكرة الأرضية أمام غيرها من العوالم والأفلاك .

وقد أصبح التضامن العالمى تيارا يطوف بكل جانب من جوانب الكرة الأرضية ولا يقوى على الخروج من نطـاقه أقوى الأقوياء من الدول والشعوب ، بل ان أقوى الأقوياء مضطر أن يحمل من أعباء هذا التضامن وجرائره ما ليس يضطر الى حمله من هم أقل منه قوة وأضعف منه علاقة بمسائله ومراميه .

وقد مضى على الكرة الأرضية من مستهل التاريخ ألوف السنين وهى منقسمة الى عالمين منعزلين يجهل أحدهما الآخر ويجهل أنه موجود معه على ظهر الكرة الأرضية ، ثم مضت عوامل الوحدة العالمية فى طريقها فانكشف كل من العالمين لصاحبه وقيل عنهما منذ ذلك الحين : انهما عالم جديد وعالم قديم .

ثم مضى ردح من الزمن خيل فيه الى أحد العـالمين أنه قادر على الاعتزال بأهله وبلاده عن الشطر الآخر من الكرة الأرضية ، ايثـارا للسلامة واجتنابا للمآزق واكتفاء بما عنده من مسائله وشواغله وهى غير قليل ، وافترق ساسة هذا العالم — وهو العالم الجديد — فكان أعلاهم صوتا وأكثرهم أتباعا من ينادى بالعزلة ويوصى بالابتعاد غاية الابتعاد من مشاكل القارة الأوربية وغيرها من القارات فى العالم القديم ، وكانت الحرب العالمية الأولى حجة لأنصار العزلة يذعن لها معارضوهم أو يكادون يذعنون مترددين متحيرين ، فاذا بالحرب العالمية الثانية تنقل

المسألة من مجال الرأى والبحث الى مجال لا محل فيه لحكم غير حكم الضرورة ولا متسع فيه لتعدد البحوث والآراء ، واذا بالعالم الجديد يشترك فى كل مشكلة من مشاكل القارات التى كان يحسبها من قبل فضولا لا يعنيه ، فلو أراد أن يتنحى عنها لما استطاع ولو أراد كلا العالمين أن يعتزل صاحبه لأعياه سبيل الاعتزال .

وقد يكون دليل النكسات أدل على وجهة التاريخ هذه من دليل الخطوات المطردة فى طريق التضامن والوحدة فاننا لا نزعم اننا نعلم كيف كانت هذه النكسات جزءا من عوامل السعى الى الوجهة المتتابعة ، ولكننا نكتفى بأن ننظر الى كل نكسة من هذه النكسات على حدة ثم ننظر الى حالة العالم الانسانى قبلها وبعدها فنرى على التحقيق أن العالم الانسانى كان بعد كل نكسة منها أقرب صلة وأدنى الى التضامن مما كان قبلها بسنوات .

كانت حروب الشرق والغرب على عهد الدولتين الفارسية والرومانية أبعد شىء أن تكون تمهيدا للتقارب بين أنحاء العالم وأبنائه ، وكذلك كانت غارات التتار وغارات الصليبيين وغارات المستعمرين : كانت نكبات ونكسات ، وحاربها من ابتلى بشرورها كما تحارب النكبات والنكسات، ولكننا ننظر الى العالم بعد كل نكسة ، أو نكبة منها ، فنرى أنه تقارب ولم يتباعد ، وانه تهيأ بعدها لنكسة جديدة أكبر منها ليخرج منها كذلك أقرب صلة وأدنى الى وجهة الوحدة العامة والتضامن الوثيق .

وكانت الصين فى عزلتها العريقة ، فلما سطا عليها الاستعمار خرجت من عزلتها واجتمعت كلمتها بعد فرقتها ، وكان من عجيب شأنها أنها أخرجت أمة أخرى من عزلتها المختارة — وهى أمة الولايات المتحدة — لتقضى فى مسألة الشرق الأقصى بسياسة البـاب المفتوح لجميع دول

العالم ، بدلا من استبداد كل دولة بحصة من الحصص تستأثر بها وتذود الآخرين عنها .

وكانت الهند أمما لا يجمعها اسم ولا تربط بينها عصبة ، فلما ابتليت بالاستعمار أصبحت أمة واحدة لأنها وجدت نفسها أمام عدو واحد ، وخرجت من غاشية الاستعمار دولتين عالميتين لهما فى سياسة الشرق والغرب وزن لا يسقط حسابه من ميزان .

وقد كان عدد الأمم التى استقلت وأخذت مكانها فى السياسة العالمية أكثر عددا وأكبر شأنا بعد كل من الحربين العالميتين مما كان قبلها ، وكانت مهمة الهيئات الدولية المشتركة بعد الحرب الثانية أهم وأعم من جميع الهيئات التى سبقتها .

* * *

(ب) الانسان الفرد

ووجهة التاريخ بالنسبة الى الانسان الفرد أوضح — فيما نرى — من وجهة النوع كله كما تبينت من الانتقال المتتابع من تضامن القبيلة المنعزلة الى تضامن العالم الذى تمتنع فيه العزلة على من يريدها .

فلا شك أن التاريخ يتنقل بالانسان الفرد من حالة مبهمة مهملة الى حالة الشخصية المستقلة بحقوقها وتبعاتها ، المتميزة بكيانها وحرمتها .

فمن فرد لا تتميز حياته من حياة أبناء القبيلة الى « شخصية » محدودة المعالم تحاسب بعملها ولا تؤخذ بجريرة غيرها .

وكان الفرد من أفراد القبيلة يقتل بذنب كل فرد من أفرادها ، وبقيت هذه الحياة الضائعة فى حياة المجموع الى ما بعد عصر القبيلة البدائية بأجيال طوال أدركت عهد الشرائع المكتوبة فى دول الحضارة والسنن الاجتماعية ، فكانت شريعة حمورابى تقضى على الأب الذى قتل بنت

رجل آخر أن يسلم بنته الى ذلك الرجل ليقتلها قصاصا لبنته ، وتحسبها — من ثم — شيئا مضافا الى أسرتها أو الى أبيها لا تستقل بحياة خاصة لها أو بحقوق واجبة لحياتها ، وجاءت شرائع الرومان بعد ذلك على هذه الوتيرة فى حقوق الأتباع والفروع ، ثم تقدمت مع تقدم الزمن حتى أصبح كل فرع من فروع الأسرة أصلا قائما على جذوره مستقلا بكيانه ، أهلا للحق وأهلا للتبعة فى عمله .

وليس للتفاضل بين الانسان والانسان مقياس واحد أصدق من المقياس الذى نستمده من وجهة التاريخ بالنسبة للانسان الفرد كما كان وكما يكون مع تعاقب الأطوار وتتابع الأجيال ، وأوجز ما يقال فى المقياس الذى نستمده من وجهة التاريخ أنه المقياس الذى ينبىء عن تكامل الشخصية الانسانية فى حقوقها وتبعاتها .

فالعلم يعطينا مقياسه الذى نفضل به العالم على الجاهل ، والأخلاق تعطينا مقياسه الذى نفضل به خلق الصلاح والنفع على خلق السوء والضرر ، والاجتماع يعطينا مقياسه الذى نفضل به الوجاهة والشرف على الضعة والخمول ، والمال يعطينا مقياسه الذى نفضل به الملىء المكتفى بنفسه على العاجز المفتقر الى غيره ، والعبقرية تعطينا مقياسها الذى نفضل به الفطنة المبدعة على الذهن العقيم والخاطر الكليل .

وهـذه كلها مقاييس صادقة للتفاضـل بين الناس فى مواضعها وموضوعاتها .

ولكنها كلها لا تبلغ فى الدقة ، وفى الصحة ، ما يبلغه المقياس المستمد من وجهة التاريخ ، وهو مقياس « الشخصية » المسئولة الكاملة : الشخصية التى تسأل عن أعمالها وتحاسب بتبعاتها .

ليس العالم بأفضل من الجاهل فى كل حالة ، ولكنه أفضل منه فى

حالة واحدة ، هى الحالة التى يكون فيها العالم أقدر منه على النهوض بالتبعة والاستقلال « بالشخصية » فى حقوقها وفى واجباتها .

وليس العباقرة والسراة بأفضل من الأغبياء والوضعاء فى كل حالة ، ولكنهم أفضل منهم فى تلك الحالة بعينها ، وهى القدرة على النهوض بالتبعة .

ولنا أن نقول ما نشاء فى فضل الكبير على الصغير ، والسيد على العبد ، والرئيس على المرؤوس ، والرجل الرشيد على الطفل اللاعب ، والعلم المشهور على النكرة المجهول .

لنا أن نقول ما نشاء عن فضل انسان على انسان كيفما كان هـذا الانسان أو ذلك الانسان ، ولكننا نخطىء فى التفضيل مالم يكن مرجع الفضل الى تلك المزية التى نستمدها من وجهـة التاريخ ، وهى مزية الشخصية الكاملة المسئولة عن تبعاتها ، فانها هى المزية التى لا يدل عليها فضل العلم ولا فضل الأخلاق ولا فضل العبقرية ولا فضل الوجـاهة ولا فضل السن ولا فضل الخبرة ، فانها جميعا أفضال تنفصل عن مزية النهوض بالتبعة فلا تغنى شيئا ولا تتم لها قيمة ، فاذا سكت عن كل فضل وكل صفة وقلت عن انسان انه أصلح للنهوض بالتبعة فقد غنيت عن البيان وجمعت الفضائل بأنواعها ودرجاتها فى فرد عنوان .

وتلك هى المزية الأولى التى تبرز لنا من متابعة النظر الى وجهـة التاريخ : انها انتقال من حالة الكم المهمـل والرقم المتكرر الى حالة « الشخصية » المتميزة بالحق والتبعة ، ولعلها المزية التى تعيننا فى كل مفاضلة بين مجموعة من الناس وغيرها من المجاميع الانسانية ، وليس مبلغها من الصدق أن تعيننا فى أسباب المفاضلة بين انسان وانسان ، فمن قال عن أمة من الأمم انها أوفر نصيبا من « الشخصيات » الحرة التى

تناط بها التبعات فلا حاجة به الى الاسهاب فى تسمية الفضائل والصفات .

* * *

ولم تخل هذه الوجهة من نكساتها فى العصور المتطاولة بين ثورات الحرية وثورات الطغيان ، وبين دعوات التقدم ودعوات الرجعة والجمود على القديم ، وبين قلاقل الاضطراب فى انتظار الاستقرار . ويحسبون من هذه النكسات تلك المذاهب المتأخرة التى تغض من قداسة الحرية الفردية ولا تبالى أن تغرقها فى غمار الجماعة ، لاعتبار أصحاب تلك المذاهب أن الحرية الفردية ومصلحة الجماعة طرفان متناقضان .

على أن العبرة بالأعمال لا بالأقوال ، وبالنتيجة المقصودة لا بألفاظ المصطلحات التى تجرى على ألسنة الدعاة . وتنيجة تلك المذاهب — ان صحت مقدماتها — أن تتحرر الشخصية الانسانية من ذل الضنك والفاقة وتتخلص من مهانة التسخير وربقة الاستعباد ، وأن ينال الملايين من الكرامة تلك المنزلة التى كانت فى الأزمنة الغابرة حكرا للآحاد المعدودين، وليست هذه النتيجة مما يناقض وجهة التاريخ فى انتقاله بالفرد من الاهمال الى الرعاية والحسبان .

(ج) الطوائف والجماعات

والطوائف الصغيرة لا تعد مجرد مجموعات حسابية من الأفراد لأنها ظواهر اجتماعية ترتبط بتركيب بنية الأمة ، ولكنها على أغلبها وأعمها لا تبرز بوجهة تاريخية خاصة بمعزل عن حياة الأمة التى تحتويها ، الا أن تكون من تلك الطوائف التى تتنازع الغلبة على المجتمع لولاية الحكم أو تأييد ولاته ، كما يحصل فيما سمى حديثا بحرب الطبقات . ويؤخذ من تجارب العصر الحديث أن هذه الطبقات ذات وجهة تاريخية تؤثر

فى مجرى الحوادث ، وانها تميل الى التوازن والتعاون أو الى التقارب والتضامن كلما ارتقى النظام الاجتمـاعى فى الأمة ، وتمضى مجـارية ولا تمضى مدابرة للوحدة العالمية .

وربما حدث فى الأمم المتخلفة أن تنبرى فئة من طلاب الانقـلاب لاستئصال كل طبقة فى المجتمع غير الطبقة التى تعتمد عليها فى تقرير سلطانها ، ولكن هذه الطبقة لا تلبث أن تتمخض عن طبقات جديدة تملأ فراغ الطبقات المستأصلة وتؤكد من جـديد أن الشخصية الانسانية تستوفى كيانها وان الأمم لا تستغنى عن التعاون بين طوائفها .

* * *

من هذا العرض المجمل نرى أن الغرض الذى قدرناه غير بعيد عن الواقع فى وجهة التاريخ بالنسبة الى النوع الانسانى أو الى الانسان الفرد أو الى الجماعة التى تبرز لها مع الزمن وجهة تاريخية ، ويسوغ لنا أن نقول : ان كثيرا من الفروض التى يتقبلها الباحثون العلميون تختلف عند التطبيق العملى اختلافا أبعد من الاختلاف بين الوجهة المفروضة والوجهة الواقعية فى هـذه المسألة ، وقد يحق لهذا الفرض عن وجهة التاريخ أن يتلقى من قبول العلماء أكثر مما تلقاه ويتلقاه ، ولا نخالهم يترددون فى قبوله ويسرعون الى الاعتراض عليه لو لم يكن تحقيق تلك الوجهة مصحوبا بالكوارث والشرور التى امتلأت بها الدنيا فى تاريخها الطويل ولا تزال تمتلىء بها فى تاريخ العصر الحاضر ولا يؤمل أن تنتهى فيما يتوقع من تاريخ المستقبل القريب .

يقولون : أيجوز أن نقول بالحكمة والقصد فى تاريخ العالم مع هذه النقائص والآلام التى يبتلى بها الأحياء من كل نوع ولا سيما نوع الانسان ؟ ألا يجوز لنا أن نتردد ونرتاب قبل الذهاب الى القول بالحكمة

والغاية فى عالم يتخبط هذا التخبط بين التقدم والتأخر وبين الرجاء والخيبة وبين الثقة والحيرة ؟

نقول : بلى . يجوز اذا استنفدنا كل تفسير معقول لهذه المفارقات ، وجربنا غير هذا الغرض فوجدناه أقرب إلى الفهم والأمل مما فرضناه وقدرناه.

لم لا نقول : ان عوارض النقص والألم ودواعى الحيرة والخيبة هى بعض النكسات التى رأينا أنها تفعل فعل الخطوات المسددة فى هذا الطريق؟

لم لا نقول : ان الوجود الأبدى لا يحكم عليه من نقطة واحدة أو نقط شتى غير متصلة ولا متلاحقة فى العصر الواحد ولا فى مختلف العصور.

لم لا نقول : ان الكون لا ينحصر فى مرضاة المخلوق وأن « الكل » لا يرمى بالنقص لما يقع لا محالة من النقص فى الأجزاء .

ان الأمانة العلمية — ولا نقول الأمانة الدينية — تتقاضانا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة وأن نفرغ من أجوبتها اليقينية قبل أن نجزم بالقول الفصل فى هذه المسألة الكبرى ، ولعلها أكبر مسائلنا — نحن بنى الانسان — على الاطلاق ؟

وقبل أن نلغى من أذهاننا فكرة الوجهة التاريخية المقصودة من أجل نقائص الكون وشروره ينبغى أن نتصور الكون الذى يخلو من النقائص والشرور كيف يكون ، وينبغى أن نؤمن بأن الصورة الأخرى أقرب الى الحكمة مما فرضناه وقدرناه .

عالم ليس فيه صغير يكبر ولا ناقص يتم ولا جزء يستوفيه جزء آخر ولا حاضر يأتى بعده مستقبل ولا مجهود يبذل ولا فارق بين موجودين يتسلل من جانبه الشعور بالحاجة والسعى الى تداركها والحيلة فى دفعها واصلاحها من حين الى حين ومن مكان الى مكان .

عالم كهذا كيف يكون؟ وإذا كان كيف يكون أصلح وأكرم لوجود الانسان؟

أناس يتساوون جميعا فى السعادة والرضى ، ويتساوون جميعا فى السن والميلاد وفى الصحة والفكر والقوة والأخلاق والجمال .

أناس على هذه المساواة نفرض وجودهم فنفرض أنهم يوجــدون هكذا كما توجد المصنوعات فى قوالب الصناعة ، وليت هذا الفرض متيسر بغير فرض آخر أصــعب منه وأبعــد من الامكان وأقرب الى الاستحالة والامتناع .

ذلك الفرض الآخر هو المساواة بين الأماكن والأوقات ، ومن وراء ذلك المساواة بين الأيام والأفلاك والعناصر والأشياء ، ومن وراء ذلك عالم لاشىء فيه لأن الشىء لايوجد فى عالم تمتنع فيه الفروق وتتشابه فيه جميع الموجودات .

ما البديل المفضل ، اذن ، من هذا العالم الذى نحن فيه .

ليس ثمة الا بديل واحد ، وهو أن يوجد الناس بطبائع الخــير والسعادة كما توجد المعادن والجمادات بخصائصها وتراكيبها .

والناس يوجدون كذلك ، ان أمكن وجودهم ، فى عالم لا تتكرر فيه المخلوقات ولا تتعاقب ولا تحس الحاجة الى شىء ولا يحدث لهــا الاحساس الا كما يحدث الأثر فى المادة الصماء .

والناس لا يمكن وجودهم على هذه الصــورة فى عالم تتميز فيه الأشياء ، لأن الأشياء لا تتميز فى عالم يتشابه فيه الزمن والمكان وتتساوى أجزاؤه كما تتساوى أجزاء الفضاء .

هذا هو البديل من العالم كما عهدناه ، فمن ارتضى هذا البديل فله أن ينكر الوجهة فى التاريخ وأن يفهم المصادفة كما يشاء ويفهم الحكمة والتدبير كما يشاء ، ولكنه لا يستطيع أن يزعم أن هواه قضية مسلمة واختيار متفق عليه .

٣ — الآلـــــة

قصة الآلة أعجب القصص فى تاريخ الانسان ، لأنها القصة التى نستطيع أن نبصر فى خلالها عوامل الحضارة من بداءتها الى ما انتهت اليه فى أيامنا ، وما تنتهى اليه بعد هذه الأيام ، وهى الى جانب ذلك قصة الحكمة الخالدة التى تتجلى لنا من وراء تاريخ الانسان ، ونستطيع أن نلمس عبرتها فى أدوار ذلك التاريخ .

الآلة من عمل الانسان أو الانسان من عمل الآلة ؟

من قال ان الآلة من عمل الانسان لم نشعر بغرابة فى قوله ، ولكننا كذلك لا نرى أنه قال قولا يستحق عناء ترديده ، لأنه من تحصـيل الحاصل ، ومن تبيين ما لا يحتاج الى بيان .

ولكننا نستغرب أن يقال ان الانسان من عمل الآلة ، ولكنها الغرابة التى تتراءى بها كل حقيقة جديرة بالنظر فيها والبحث عنها ، خفية عند النظرة الأولى ، جلية بعد التأمل واعادة النظر أصدق جلاء .

ليكن رأى العلماء ما يكون فى مذهب النشوء والتطور ، وليكن منهم من يقول ان الانسان حيوان من الحيوانات العليا نشأ معها أو تسلسل منها ، أو فليكن منهم من يرفض هذا القول ويقصر التطور على كيان الانسان عضويا حيويا أو أدبيا فكريا كيفما اختار .

ليقل من شاء هذا وليقل من شاء ذاك ، فلا اختلاف بين الفريقين فى حقيقة واحدة لا تتوقف على هذا القول أو على ذاك ، وهى أن استخدام الآلة كان من أوله أكبر فارق بين الانسان والحيوان الأعجـم ، وان الانسان — لو بقى كالحيوان — عاجزا عن استخدام الآلة لم تكن له

حضـــارة ولم تكن له حيـــاة اجتماعية ، أو فردية ، تختلف كثيرا عن حياة الحيوان .

ان الحيوانات فى جملتها عاجزة عن اســتخدام الآلة على أبسط ما تكون فى حالتها البدائية ، عاجزة عن استخدامها دفعة واحدة على فترات متقطعة ، وعاجزة عن مواصلة استخدامها من باب أولى .

فليس فى وسع الحصان — مثلا — أن يقذف حجرا أو يحمل عصا أو يحرك شيئا بواسطة من الوسائط غير أعضاء جسده .

وقد تستطيع الحيوانات العليا — كالقردة — أن تقذف بالحجر أو تحمل العصا من فروع الشجر ، وربما استطاعت أن تحرك بها شيئا بعيدا عنها اذا شاهدت أمامها من يفعل ذلك فعمدت الى محاكاته وهى لا تدرى ما تفعل ، أو تدريه ولا تبتدئه من عندها عن روية وتفكير .

ولكنها — سواء درت أو لم تدر — عاجزة عن مواصلة الانتفاع بالآلة البسيطة من الحجر أو من فروع الشجر ، لأنها تحتاج الى يديها لتمشى عليها ، ولا تقوى على استخدام الرجلين والاكتفاء بهما فى حركة المشى خطوة واحدة اذا هى انتقلت من مكانها .

فاستخدام الآلة وانتصاب قامة الانسان أمران متلازمان ، واستقامة الانسان فى وقوفه ومشيه هى الفاصل الواضح بين أطوار الحياتين : أطوار الحياة الانسانية وأطوار الحياة الحيوانية .

وبين انتصاب القامة وصلاح اليدين للعمل المتواصل المتعدد ملازمة ظاهرة فى تكوين بنية الانسان ، وتكوين دماغه وارتباط الحركة اليدوية بالحركة الفكرية فى أعماله .

ولا يهمنا أن يقال فى هذا السياق ان الانسان ارتقى لأنه صنع الآلة أو أنه صنع الآلة لأنه ارتقى ، فكلا القولين يفيد شيئا واحدا وينتهى

الى نتيجة واحدة ، وهى ارتباط تاريخ الآلة بتاريخ الانسان وحضارته وتفكيره وسائر مزاياه التى ميزته من عامة الأحياء أعلاها وأدناها على السواء . فالانسان حيوان صـانع للآلات كما قال بنيامين فرنكلين فى تعريفه الجامع المانع لهذا الحيوان الناطق بما ينطوى عليه معنى النطق من ملكة واستعداد ، ومن قال ان الآلة ميزت الانسان بين أنواع الحيوان، فله أن يقول ان الآلة صنعت الانسان .

قلنا فى كتابنا عن فرنكلين : « ان تعريف فرنكلين للانسـان فى الحقيقة أصدق تعريف له وأوفاه بالشرط الجامع المانع فى التعريف . فما من فارق بين الانسان والحيوان أوضح وأثبت من قدرة الانسان على صنع الآلة واستخدامها ، وهذه القدرة هى المقصودة بتعريف فرنكلين لا وجه للاعتراض عليها بتفاوت الناس فيها ، فليس الاعتراض الصالح على تعريف الانسـان بالحيوان الناطق أن بعض النـاس لا ينطقون ولا يفكرون ، وأن بعضهم يولدون بكما أو مجانين ، وليس من الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الاجتماعى أن يشذ بعض الناس ويتأبد فى الخلاء وينفر من الاجتماع ، ولكن العبرة من هذه القصة أوسع وأدق من أن يحيط بها تعليق واحد ، وكفى منها هنا أن تبرز قدرة العقل العلمى المطبوع على التعريف واقامة الحدود والفوارق ، وأن تبرز تلك الرابطة الوثيقة فى طبيعة فرنكلين بين الانسانية وصنع الآلات..»

هذه الرابطة الوثيقة بين قصة الآلة وتاريخ الحضـارة الانسانية ، أو تاريخ نوع الانسان فى تطوره وارتقائه ، هى مدار العبرة الخالدة ومظهر الحكمة الالهية فى ذلك التاريخ ، وأدعى الأمور الى اظهار هذه الحكمة أن نذكر أن الآلة قد فرضت على الانسان اضطرارا كما تفرض الأخطار والنكبات ، وأن نذكر من آراء الناس فيها قديما وحديثا كيف

تنظر اليها الهداة من الفلاسفة والقديسين ، فانهم لم ينظروا اليها قط نظرة المختار الذى يحمدها ويتمناها لأبناء نوعه ، ولم يكن فى أقوال الفلاسفة والقديسين عنها ما يدل على أنها من تدبير نوع الانسان لنفسه ، وانما هى من تدبير آخر غير تدبير النوع الانسانى ، يساق اليه حينا على ما يريد وأحيانا على غير ما يريد .

* * *

فمنذ القدم جعلت الآلة رمزا للتسخير وفقدان الارادة ، ولحق بها فى هـذا الاعتبار من يعمـل بالآلة ومن يصنعها . فالعاملون بالآلات مسخرون والذين يصـنعونها مسخرون ، وكلهم تجـردهم الآلة من انسانيتهم ، وهى فى منشئها مزية الانسان على عامة الأحياء .

ولما تخيل الناس الأرباب على صورة البشر تخيلوا الرب الذى يصنع الآلات دميما ممسوخا أعرج شائه المنظـر يتقبله الأرباب فى عليـاء « الأوليمب » على مضض ويهمون بطرده من سمائهم أنفة من جلوسه الى جوارهم ، ولم يصبروا عليه الا لحاجتهم اليه .

ذلك هو « هيفستوس » الحداد كما عرف فى ملاحم اليونان الأقدمين، ويسمى أيضا « ملسيبر » الذى عاشت قصته بهذا الاسم فى الآداب الأوربية الى العصور الحديثة ، وقال فيه ملتون ان زيوس رب الأرباب قذف به من السماء : « فظل يهوى من الصباح الى وقت الظهيرة ، ومن الظهيرة الى المساء الندى ، نهار صيف كامل ، هبط بعده عند مغرب الشمس كالنجم المنقض من السمت الى جزيرة بحر ايجه : لمنوس » .

وفى قصة أخرى من قصص « هومر » ان أمه هى التى قذفت به من سمائها بعد مولده ، لأنها استقبحته وعافت منظره فنبذته خجـلا من الظهور به بين الأرباب . وقد هبط به الشعراء المتأخرون من « اوليمب »

الالهة وزعموا أنه يعمل فى مخبأ مدفون فى الأرض تحت البراكين الثائرة ، فخلط الرومان بينه وبين الرب « فلكان » رب المواقد والنيران .

ويظهر أن تمثيل هيفستوس على هذه الصورة قديم متواتر بين شعوب المغرب والمشرق ، ففى الاصحاح الرابع من سفر التكوين : « ان لامك اتخذ لنفسه امرأتين : اسم الواحدة عادة واسم الأخـرى صلّة .. فولدت صلة توبال قين الضارب كل آلة من نحاس وحديد » وهو اسم مركب من كلمة طورانية وكلمة سامية حيث التقت اللغتان قديما فى وادى النهرين ، ومعنى توبال أعرج ، ومعنى قين حداد ، وتطلق فى العربية أحيانا على العبد المسخر فى الصناعة .

قال الأستاذ سليمان البستانى مترجم الياذة هومر فى تعليقاته على النشيد الثامن عشر منها :

« قيل أخذ اليونان عبادته عن المصريين حيث كان يسمى فتالى . والهة النار عند البلاسجة والطرواد ، ثم الرومان ، تدعى — فستا — تطرقت اليهم عبادتها من الفرس . ومن الغريب أن يكون هذا التشابه بين المعبودين ، وأحدهما ذكر والأخرى أنثى . والأغرب من ذلك أن أول صيقل لجميع المصنوعات الحديدية والنحاسية فى التوراة هو توبال قين ، وتوبال أو طوبال باللغات التترية — ومنها التركية — الأعرج ، وقين باللغات السامية — ومنها العربية — الحداد ، وكلاهما لقب هيفست ، مع أن توبال قين كان قبل عهد هوميروس بحسب نص التوراة بنحو ألفى عام .. » .

واذا كان هذا شأن صناع الآلات ومخترعيها بين الأرباب وأوائل الأسلاف فلا جرم يهون شأنهم بين البشر ويساويهم أو يقل عنهم من يعملون بها ويعولون فى معيشتهم عليها ، فقد أوشك هذا العمل أن يكون

من لوازم الرق والعبودية أو لوازم الضعة والهوان ، فمن عمل الآلة لنفسه أو عمل بها لغيره فهما عند الأقدمين فى المهانة سواء .

وجاء أرسطو فقسم النوع الانسانى الى طبقتين : طبقة حرة ذات ارادة ، وطبقة مستعبدة لا حرية لها ولا ارادة ، وجعل هذه الطبقة فى حكم الآلات ، لأنها وسيلة لخدمة المسخرين لها بغير اختيارها .

ولما ظهرت آلات البخار والكهرباء وشاعت المكنات الكبرى التى يديرها المئات من العمال والصناع لم يرتفع شأن العامل والصانع فى نظر المحدثين عما كان عليه فى نظر الأقدمين ، بل هبط كثيرا فى القرن الأول من نشأة الصناعة الكبرى ، لأن الصناع الأولين كانوا ينفردون بأعمالهم أحيانا ويتصرفون بادارة آلاتهم وأدواتهم ويحتاجون الى الذكاء والحيلة فى اتقان مصنوعاتهم ، ويفوقون غيرهم ممن لا يحذقون الصناعة فى حسن الفهم والملاحظة ، فلما نشأت المكنات الكبرى وتشابهت أعمال الصناع استغنى الصانع عن الفهم والملاحظة وكاد أن يعتمد على يديه أو على عضلات بدنه فى أداء مهمته المتكررة المتشابهة بغير تنويع أو تفكير ، وصح فيه أنه أصبح فى حكم الآلة التى يديرها ، بل تطورت صناعة المكنات شيئا فشيئا حتى حلت فيها المفاتيح والأزرار محل الأيدى والعضلات .

ولم يمض غير قليل على انتشار الصناعات التى تدار بالبخار والكهرباء حتى انطوت كلها فى عنوان واحد يحتوى الآلات فى اطوائها ويحتوى معها أصحاب المصانع وأصحاب أموالها وجمهرة العاملين فيها من العاملين بأفكارهم والعاملين بأيديهم ، بل يمتد حتى يحتوى سياسة الدول التى اتسعت فيها ميادين الصناعة الحديثة ودفعتها الى التوسع فى غزو البلدان وفتح الأسواق واحتكار موارد الخامات المصنوعة وحصر

المناطق التى تباع فيها ، والتنازع بينها على السيادة العالمية للاستئثار بتلك الأسواق والمناطق والاستعداد لذلك التنازع بما يستلزمه من سلاح ومكيدة وما يقتضيه من اثارة الفتن وشن الغارات واشعال نيران الحروب ، فأصبحت كلمة « الصناعة الكبرى » عنوانا لجميع هذه الخطط والمطامع ولكل ما يتصل بها من مرافق المال ومساعى السياسة وبواعث الأخلاق والعادات .

ونظر المفكرون الى « الصناعة الكبرى » فى ابان نشأتها وامتدادها نظرتين متعارضتين : فمن كان من بناتها ومؤسسيها والمقيدين بنظامها فقد حسبها من ضرورات التقدم التى تقترن فيها النعمة بالنقمة ويحتمل فيها الضرر الكبير فى سبيل المنفعة التى لاغنى عنها ، ومن كان من المفكرين خلوا من مطالبها وأغراضها بعيدا من قيودها وشباكها فهى عنده محنة من محن الزمن الأخير تربى سيئاتها على حسناتها وتغيب منافعها فى غياهب آثامها وجرائرها ، ووصفها بعضهم بالصناعة الجهنمية وخيل اليه أن « المكنة الضخمة » انما هى « الجقرنوت » الساحقة يركبها إله المال بدلا من إلهها القديم « فشنو » ويجتاح بها كل ما قابله فى طريقه ليستوى عليها معبودا بين قرابينه وضحاياه .

وتقابل فى رأى المفكرين المنكرين عالم الصناعة وعالم الطبيعة ، أو تقابلت عندهم الحياة المصطنعة الملفقة والحياة الفطرية السليمة التى بدا لهم أنها الحياة المثلى وأنها نقيض تلك الحياة المختلقة التى تمسخ النفوس وتفسد ما بين الانسان والانسان من روابط العطف ووشائج الرحم والولاء .

وعلى أثر الهجمة الأولى من هجمات هذا « الجقرنوت » الحديث سرت فى العالم دعوة خفيفة ، أو رفيعة ، كادت تغطى شيئا فشيئا على

ضجيج « المكنة » الصاخبة التى ملتها الأسماع وأعارتها ما أعارته من صغواتها على كره منها ، وكانت تلك الدعوة التى سرت خفيفة تارة ، ورفيعة تارة أخرى ، هى دعوة العودة الى الطبيعة أو دعوة السلام مع الله كما سماها بعض أقطابها الأولين ، وتقاس هذه الدعوة فى الزمان كما تقاس فى المكان فينكشف لنا مدى اتساعها ونشاط الأذهان لقبولها حيثما تنقلت الصناعة الكبرى فى خطواتها ، كأنما تطاردها فى مسيرها على حسب انتشارها وشيوعها واحتدام مشاكلها وأخطارها .

فمن شعراء البحيرة فى انجلترا بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، الى هنرى ثورو Thoreau فى أمريكا الشمالية من أوائل القرن التاسع عشر الى ما بعد منتصفه ، ثم تنتقل الى شرق القارة الأوربيـــة فى روسيا فينادى بهـــا رسولها تولستوى بين أواخر القرن التاســـع عشر وأوائل القرن العشرين ، وتبلغ الهند فتعود اليهـــا مع الجقرنوت الحديث وترتفع بها عقيدة قديسها وزعيمها مهاتما غاندى ، أكبر رسلها فى العالم الحديث وآخر من حارب « المكنة » الضخمة ليعود بالناس الى آلات البداءة التى يكاد أن يصنعها الصانع بغير حاجة الى معمل ولا أداة .

وتلاقى المصلحون الأخلاقيون والمصلحون الاقتصاديون فى هـــذه الدعوة الى الطبيعة فنشأت مدرسة « الطبيعيين » وقال المؤمنون بمذهبها ان الأرض ينبوع كل خير ومنبت كل عمل ، وان الأرض تعطى ولا تعقب عطاءها بالشر والعداوة ، ولكن الصناعة التى تنفصل من الأرض تأخذ منه أضعاف ما تعطيه وتسوى بينه وبين الآلة الصماء فى التقدير والتقويم ولكنها لا تعفيه من الألم والضغينة اعفاءها للآلة الصماء .

* * *

وعلى هذا النمط قضى عقل الانسان قضاءه فى الآلة منذ خرج بها من عداد العجماوات وامتاز بها بين عامة الأحياء وهو لا يدرى بهذه المزية . فلو كان فى مقدور نوع الانسان أن يدبر لنفسه على مدى القرون لما ارتضى الآلة تدبيرا له يقدر له منافعه ونتائجه قبل عشرات الألوف من السنين ، ويثابر على رضاه مستزيدا من خطاه شاعرا باقترابه فى كل خطوة من هدف مرسوم يريده ويصبر على عثراته لعلمه بما وراءها من نهاية مطلوبة وأمنية مبتغاة .

كلا . ان نوع الانسان كان خليقا أن يحكم على الآلة فى كل مرحلة من مراحل تاريخها كأنها — على أحسن ما تكون — ضرورة مكروهة يلجئه اليها ما هو أكره منها ، ويعتمد عليها لأنه مسوق اليها ، يرميها من يده قبل استخدامها لو استطاع ، ولا يصبر عليها — كما هو شأنه معها — الى أن يلقيها من يده بعد الفراغ منها .

* * *

وجملة القول ان تاريخ الآلة عند الانسان ينتهى الى تاريخ شىء محتقر أو مكروه ، ولكننا اذا نظرنا اليها نظرا يحيط بالنوع الانسانى منذ نشأته الى هذه السنوات الأخيرة وما سيليها من السنوات اللاحقة فقد يسفر هذا النظر عن حقيقتين يقل الخلاف عليهما وهما :

(أولا) ان الآلة صاحبت تقدم الانسان فردا وجماعة وكانت مقياسا لدرجات الحضارة عند أممه عصرا بعد عصر وفى جميع العصور ، فهى على الجملة مقياس الفارق بينه وبين الحيوان الأعجم فى أعلى أنواعه وأقربها اليه .

والحقيقة الثانية أن منافع الآلة غير المقصودة لا تقل عن منافعها المقصودة التى تدخل فى تدبير الفرد أو الجماعة ، فما من آلة قديمة

أو حديثة تنحصر منافعها فى حدود الغاية التى تستخدم لها وتخترع من أجلها ، وما من حكمة انسانية يمكن أن تنحصر فيها تلك المنافع أو يمكن أن تستوعب مقدماتها ونتائجها من النظرة الأولى ٠

كانت الآلة الأولى صخرة أو فرعا من فروع الشجر وسيلة لاصابة الصيد أو اتقاء السباع الضارية ، وهذ هى فائدتها التى تدركها حكمة الانسان ويعمل على طلبها ٠

ولكن الفائدة غير المقصودة من استخدام الصخرة أو فرع الشجرة أكبر جدا من هذه الفائدة التى تكفل له البقاء وحماية النفس بين الأعداء ، لأنها فائدة تتقدم به وتزيد فى قدرته وتنمى ملكاته وتنقله من الحيوانية الى الانسانية وتخطو به الخطوة التى يقف عندها الحيوان فلا يتقدم ويبتدىء منها الانسان فيبلغ ما هو بالغه اليوم من تمييز وامتياز ٠

فاستخدام الآلة فى رأى العلماء جميعا هو الذى جعل اليدين فى الانسان أتم وأقدر من اليدين فى ذوات الأربع ، وهو الذى شحذ العلاقة الفكرية والمادية بين الدماغ وسائر أعضاء الجسد وحواسه ، ولا اختلاف بين الباحثين فى علم الانسان على ذلك ، وانما يختلفون فى التقديم والتأخير بين سير الانسان على قدميه منتصب القامة وبين ارتقاء دماغه وابتدائه فى التفكير ٠

فمن العلماء من يرى أن الانسان ارتقى فكرا ، فهداه التفكير الى استخدام الآلة واكتسب المرونة الجسدية والفكرية من توفيقه بين الأغراض والمجهودات التى يستخدم من أجلها الآلات ، ويرى علماء آخرون أنه استوى قائما على قدميه واستطاع أن يمشى معتدل القامة فتمكن من استخدام الآلة واستعمال اليدين فى حملها وتصريفها وتسديدها الى غاياتها ، وتعلم من ذلك كيف يوفق بين حركات الجسم وهداية الدماغ

فكان هذا سببا لنموه واطراد تقدمه وازدياد قدرته على الفهم والحركة الجسدية فى وقت واحد .

فالأستاذ واشبرن Washburn أستاذ علم الانسان (الانثروبولوجى) فى جامعة شيكاغو يقول فى فصل كتبه سنة ١٩٤١ « ان المعروف عن الأجزاء الأخرى من الهيكل العظمى قليل ، ولكن يستطاع أن نعتبر من المقررات البينة الآن أن اعتدال القامة وكل ما يصاحبه مما يساعد عليه فى تركيب الجسم هو مرحلة بلغها الانسان قبل وصوله الى هيئته التى استقر عليها »[١] .

وقد لخص الدكتور أشلى مونتاجو طرفى الرأى حول هذه المسألة فى عجالة علمية سماها « الانسان فى أول مليون سـنة » قال فيها عند الكلام على نسب الانسان :

« فى افريقية الجنوبية — وبخاصة فى أخريات السنوات العشرين — كشفت هياكل عظمية من متحجرات القردة سميت قردة الجنوب وأدعى ما فيها الى الالتفات أنها فى كل شىء قردية الا فى سعة الجمجمة وعظام الفخذ والساق والقدم فانها شبيهة بالعظام البشرية ، ويتحقق من عظام الفخذ والساق أن قردة الجنوب كانت تمشى معتدلة أو على نحو من الاعتدال ، ومن ثم نشاهد لأول مرة علامات ثابتة تدل على ترتيب تطور البنية الانسانية . وقد حدث هذا الاعتدال قبل نمو الدماغ الى الحجم الذى يماثل دماغ الانسان ، وكان بعض الثقات يحسبون أن الترتيب مختلف ، ولكننا الآن نعلم يقينا أن سلف الانسان اعتدلت قامته أولا قبل أن يبلغ مبلغ الانسانية .

---

(١) صفحة ٤٩٣ من كتاب « ذخيرة علم » الطبعة الرابعة .
A treasury of Science

« كم عاشت هذه القردة الجنوبية ؟ لا نعلم علم اليقين لأن طبقات الأرض فى الاقليم الذى وجدت فيه بقايا تلك القردة لم تدرس دراسة وافية . الا أن الأكثرين من المختصين يرجحون أنها عاشت فى العصر المحدث الأخير Pleistocene أى قبل مليون سنة أو نحوها . وربما انقرضت هذه القردة قبل ربع مليون سنة أو أقل من ذلك .. » .

ثم استطرد قائلا بعد استبعاده أن تكون هذه القردة اسلافا مباشرة للانسان : « هل كان لها نوع من الكلام ؟ لا نعلم . وربما كانت لها مبادئه الأولى . فهل كانت لديها آلات ؟ يجوز انها كانت تستخدم شيئا منها . فان فى بعض أقاليم افريقية الجنوبية حصى دقاقا مصفحة كثيرة العدد من المحقق أنها استخدمت كالآلة ويجوز أنها من صنع سلف الانسان ، وقد وجد بعضها ومعه أسنان القردة الجنوبية ، ويزعم بعضهم أن تلك القردة الجنوبية استخدمت عظام الربّاح — أحد السعادين — آلات لها ، ودعا الى هذا الظن أن جماجم كثير من هذه السعادين قد وجدت مع بقايا القردة الجنوبية على حالة يفهم منها أنها ضربت على رءوسها ، فاعتقد الأستاذ رايموند بارت Bart من افريقية الجنوبية أنها من عمل القردة وان هذه كانت تستخدم بعض الآلات أو الأدوات ، وان كان كثير من المختصين يتردد فى اعتقاد ذلك ما لم تؤيده أسانيد أخرى »[1] .

وقد خيل الى آحاد من النشوئيين أن تكرار التجربة التاريخية بوسائل العلم الحديث مستطاعة . فشرعوا فى اعداد العدة للاستعانة بالجراحة على تقويم عظام الحيوانات العليا التى تقوى على المشى معتدلة بعد تعديل عظام الحقوين وتثبيتها فى مفاصلها على نحو يمكنها من

(١) Man, His First Million Years by Dr. Ashley Montagu.

الحركة ولا يحوجها الى المشى على أربع من حـين الى حين ، ويظن النشوئيون الذين يشرعون فى هذه التجارب أنهم سيعرفون بعض الشىء على الأقل عن ترتيب نشوء الكلام واستخدام الدماغ والأجهزة الصوتية فى النطق المفيد ، وهم لا يجهلون أن الحيوان الفرد لا يدرك فى مدى حياته القصيرة ما أدركه نوعه فى مئات القرون ، ولا يجهلون كذلك أن الذى يدركه الفـرد بعملية جراحيـة فى عظامه لا يورث ولا ينقـل بالوراثة — كله أو بعضه — مالم يتسرب أثره الى الخلايا الناسلة Genes وصبغياتها Chromosomes ولكنهم يترقبون من تغيير مسلك الحيوان بعد اقتداره على المشىء المعتدل أن يفهموا كيف ابتدأ تحسين الأجهزة الصوتية وتهيئة اللسان للكلام مع التجاوب بين عمل الدماغ وحركات الأعضاء ، وقد يحدث فى عمر الحيوان الفرد ما يكفى لتعيين الاتجاه ان لم يكن كافيا لادراك الوجهة أو للاقتراب منها كما حـدث فى أطوار التـاريخ .

* * *

ونعود فنقول ان النشوئيين قد يختلفون فيما بينهم وقد يختلفون بينهم وبين غيرهم ، ولكن الواقع الذى لا خلاف فيه أن الفـارق بين الحيوان والانسان مرتبط بتاريخ استخدامه للآلات ، وانه لولا قدرة الانسان على صنع الآلات والاستعانة بها على مطالبه لما كانت له مزية تفرق بينه وبين العجماوات .

وننتقل من الانسان الفرد الى الانسان الاجتماعى فى الشعب أو الأمة.

اننا فى غنى عن تتبع الأدوار التى مرت بها الصناعات لنعلم أنها كانت فى كل دور من أدوارها مقياسا لحضارة الأمة وعنوانا على المزايا الفكرية والخلقية التى تميزها على غيرها ، وقد نعلم من عرض حالة الصناعة

فى دور واحــد من أدوارها أن فوائدها المقصورة لا تستقصى جميع فوائدها ، وان الصناعات التى يتقنها الانسان للحرب لا تلبث أن تدخل فى عداد الصناعات التى يقوم عليها السلم ويقوم عليها العمران ، ومن المشكوك فيه أن الصناعة كانت تتقن تطريق الحديد وتليينه على درجات من المرونة والمضاء لو لم تعمل على اتقان السيوف والحراب والدروع . فان آلات الحرث والحفر تصنع بغير حاجة الى الامعان فى أساليب التطريق والتليين ، ولكن معالجة الحديد قد أغنت فى صناعات السلم والعمران فوق غنائها فى صناعات القتال والتدمير .

ولما نشأت صناعات البخار والكهرباء ظهر للآلات أثر جديد لم يكن منه بد لترقية الاجتماع ولم تكن اليه وسيلة بغير « المكنة الضخمة » التى جاء بها الى التاريخ عصر البخار والكهرباء ، وهى تلك « الأداة الجهنمية » أو « تلك الأداة الشيطانية » كما وسمها الحكماء ، بمعزل عن حكمة التاريخ .

لقد كان بناء الصناعة الكبرى على المكنات الضخام مظهرا من مظاهر التوازن فى المجتمع بين أصحاب الثروة الزراعية وأصحاب الثروة المعدنية وأصحاب الثروة التجارية ، وكان قيام هذه الصناعة الكبرى دليلا على تكافؤ القوى بين أصحاب الضياع وأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر والأسواق ، ثم جاءت المكنة الضخمة بقوة جديدة لم تكن تعرف نفسها ولم يكن أحد يعرفها ، ولم يكن لها — لو عرفت — من سبيل الى اسماع صوتها . فقد جمعت المكنة الضخمة مئات الصناع وألوفهم فى صعيد واحد ، وكان اجتماعهم بهذا العدد فى رابطة واحدة عدة حية تعتمد عليها الصناعات فى انتظامها وتوفير انتاجها . فتم التوازن الاجتماعى حيث اجتمعت هذه القوة للطوائف التى كان من السهل ظلمها ومن

الصعب انصافها ، وهى متفرقة تدير آلاتها المفردة على حدة .

كان لأصحاب الأموال سلطانهم الذى لا يدفع ، سواء كانوا من ذوى الثروة الزراعية أو ذوى الثروة الصناعية أو ذوى الثروة التجـارية ، وكانوا ربما تنافسوا بينهم فاضطرتهم المنافسة الى الاعتدال فى مطالب كل فريق منهم ، ولكنهم كانوا اذا استبدوا بسلطانهم يدا واحدة لم يردعهم رادع ولم يعسر عليهم أن يجوروا بمطامعهم على حقوق غيرهم وعلى حدود الشريعة والعرف السديد ، فكان قيام القوة الجديدة — قوة الأيدى العاملة — خيرا عميما يحقق مصـالح الطوائف جميعا ويجعل مسألة الانصاف الاجتماعى مسألة عملية لا تتوقف على حسن النية من طلاب الخير العميم .

بيد أنه كان خيرا لم يخلص من الشر فى جميع الحالات ، اذ كانت الصناعة الكبرى قد ظهرت فى بلاد لا توازن فيها بين قوى الثروة المنوعة كما ظهرت فى البلاد التى توازن فيها سلطان أصحاب الضياع وأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر والأسواق ، فكان ظهور القوة الجديدة سببا من أسباب الطغيان على المجتمع من الأدنى الى الأعلى ، بعد أن كان الخوف كل الخوف من طغيان العلية على من دونهم مالا وعلما وقدرة على اسماع الصوت وابلاغ الشكاية واحقاق الحقوق ، وتبين مع شيوع الجهل والتنافر بين طوائف الأمة أن تسخير الجهلاء من المحرومين لعبة سهلة على من يحسن خداعهم واثارة ضغائنهم واستغلال شكاياتهم ، وقد يسخرهم دون أن يشبعهم أو يرفه عنهم لأنه يشبع فيهم شهوات النقمة على من هو أحسن حالا وأكبر جاها وأدنى الى رخاء المعيشة ، وقلما يعنيهم أمر الحكومة الحرة لأن فقدان الحرية لا يسلبهم شيئا يحرصون عليه من فكرة أو مبدأ أو متعة روحية .

ولا ريب أن الطغيان من الأدنى بغيض وخيم العاقبة كالطغيان من الأعلى أو أبغض وأوخم فى عقباه البعيدة أو القريبة ، ولكنه مع هذا ضرورة لا محيد عنها اذا كان هو الوسيلة التى لا وسيلة سواها لانقاذ الملايين من مراغة الضيم والاهمال ، وانه ليهون خطبه — على فداحته — اذا بدا من ورائه أمل فى زواله وتلطيف جرائره بعد الاستفادة منه فى كبح طغيان الأقوياء على الضعفاء .

وعند « المكنة الضخمة » ترياق العلة التى جلبتها ، ومنها يكون الدواء كما كان منها الداء .

ان المكنات الضخام لا تبقى طويلا على الصورة التى عهدها الناس منها لأول نشأتها .

لقد كانت لأول نشأتها تحتاج الى مهندس واحد يفهم تركيبها ويحسن ادارتها ويعتمد فى تنظيم عملها واصلاح خللها على الذكاء والدراية العلمية ، وقد يعاونه على ادارتها مساعدون قليلون — بل جد قليلين — يتعلمون مثل تعليمه ويفهمون مثل فهمه ، ولا حاجة بعد المهندس ومساعديه الى معونة غير المعونة اليدوية التى يتساوى فيها الذكاء والغباء ويتكرر فيها العمل الواحد على أيدى المئات والألوف كما تتكرر أعمال الآلات .

انسان واحد وألف آلة ، ولا فرق فى ذلك بين نوع ونوع من المكنات الضخام التى قامت عليها الصناعة الكبرى منذ أواسط القرن التاسع عشر، الى العقود الأولى من القرن العشرين .

ان عهد هذه المكنة ينقضى فى كل أمة من الأمم التى نهجت على سياسة التصنيع وذهبت تندرج فى تعميم الصناعة الكبرى ، وسيصبح « الآدميون الآلات » نمطا عتيقا لا نفع له بعد شيوع التنويع فى المكنات

وشيوع الأجهزة المختلفة فى المكنة الواحدة ، ولن تكون هناك سخرة آلية محصورة فى فئة كبيرة من فئات العاملين فى الصناعة ، ولن تكون هناك قوة طاغية تعتمد على السخرة الآلية متى زالت هذه السخرة من قرارها .

وكلما انتشرت الصناعة لزم الذكاء فى استخدام الآلات وشاع استخدامها فى المكتب والنادى والمتجر والبيت والديوان ، ولم يبق عمل الذكاء مقصورا على المكنة الضخمة فى المصانع الجماعية ، وأصبحت الصناعة اليدوية المجردة من الخبرة العقلية والدراية الفنية شيئا نادرا يقل من يزاولونه ويرتضونه ويناط أداؤه بذوى القصور الطبيعى من الأغبياء وضعفاء العقول . وقد رأينا فيما تقدم من البحوث عن حالة التعليم فى القرن المقبل ان علماء التربية سيحتاجون الى جهد غير قليل لتدبير العمل الذى يوكل الى هؤلاء القاصرين ضنا بالذكاء أن يبذل فى أعمال تستغنى عن الذكاء ، وشعورا بالحاجة المزدادة الى درجات من الفطنة تصلح لكل درجة من درجات الانتاج وتسيير الآلات .

ولا يخفى أن تهيئة التعليم الصناعى الذى ينجب الخبراء المطلوبين فى كل فرع من فروع الصناعة لا يتأتى بغير مرحلة عامة من التعليم الأولى كفيلة على الأقل بمحو الأمية وتزويد الناشىء المتعلم بقسط من المعرفة يرتفع به عن تلك الآدمية الآلية التى تنساق مغمضة الأعين للدعاة المغررين والطغاة المستبدين .

ويصحب هذا فى المجتمع الصناعى المتقدم نظام آخر يمنع التفاوت الواسع بين الطبقات . فان المساهمة فى الشركات التى تملك معامل الصناعة الكبرى باب مفتوح لكل من يملك ثمن السهم والسهمين والأسهم القليلة التى لا يعجز عنها أصحاب الموارد المحدودة ممن يعيشون بالمرتبات والأجور .

فالمكنة الضخمة التى تشق المجتمعات وتقطع الصلة بين طبقاتها تعود فتعقد هذه الصلة وتملأ الفجوة بين كل طبقة وما يليها ممن هم فوقها ومن هم دونها فى العلم والعمل والذكاء والمعيشة ، ومن آثارها فى مناح كثيرة أنها تقارب بين دواعى الاتصال والتعاون وتباعد بين دواعى القطيعة والبغضاء ، وتتقارب هذه الدواعى اضطرارا كما تتقارب اختيارا بما يناسبها من الآداب والأخلاق . فاذا امتنع التوازن فى المجتمعات التى يسيطر عليها أصحاب الأموال أو يسيطر عليها أصحاب الأعمال اليدوية فلا بد من التوازن فى المجتمعات التى يملك فيها الأوساط سلاحا كسلاح الأغنياء المحتكرين للثروة أو سلاحا كسلاح العمال اليدويين القادرين على تعطيل الأعمال أو على التهـديد بالاضراب . اذ يستطيع هؤلاء الأوساط أن يجردوا سلاحا كسلاح أصحاب الأموال لأنهـم يحتلون مراكز الادارة الهندسية والاقتصادية ، ويستطيعون أن يجردوا سلاحا كسلاح العمال اليدويين لأنهم يملكون التعطيل ويملكون التهـديد بالاضراب ، وليس من اليسير أن يستبد أصحاب الأموال أو يستبد العمال اليدويون متى قامت فى المجتمع طبقة وسطى بين الطبقتين لهـا صوت مسموع ووسيلة الى اسماع صوتها واثبات حقها ورفع الضغط عنها من أعلاها ومن أدناها ، وأبعد ما يكون المجتمع عن استبداد العلية أو استبداد الجماهير اذا امتدت فيه طبقاته الوسطى امتدادا يتغلغل بها فى الطبقتين ممن هم أعلى منها ومن هم دونها ، ويحاول من يريد التفرقة هنا أو هناك أن يضع الخط الفاصل حيث ينقطع الشبه بين الجانبين فيعييه الفصل الحاسم على وجه من الوجوه .

* * *

فتاريخ الانسان الاجتماعى ، أو تاريخ الانسان فى الحضارة ، ملازم

اذن لتاريخ « الآلة » كل الملازمة : تطورها مقيـــاس صادق لتواريخ الحضارات وللفوارق المحمودة — أو غير المحمودة — التى تميز بعضها من بعض . وترتقى الآلة البسيطة الى المكنة الضخمة فيكون ارتقاؤها فى المجتمعات المتقدمة مظهرا عاما من مظاهر التوازن بين طوائفها ووسائل نفوذها واقتدارها على تبليغ صوتها وتقرير حقها . فاذا ظهرت الصناعة الكبرى فى مجتمع لم يستوف تكوينه الاجتماعى ولم تتوازن فيه القوى والمصالح فهى خليقة أن تتدارك هذا النقص وأن تخلق هذا التوازن مع الزمن وتخلق معه أسباب التعاون بين الطبقات وأسباب التغلب على كل طغيان من احداها على الأخرى .

* * *

ان أثر الآلة فى حضارة الانسان الاجتماعى لا يقل عن أثرها فى ثقافة الانسان الفرد أو فى قياس الفارق بينه وبين الحيوان .

ولا يقل عن هذين الأثرين البارزين أثرها فى حياته العالمية : حياة النوع الانسانى على تباعد أقطاره وتفاوت أقوامه وتنازع القوى بين حكوماته وشعوبه .

فقد ولد العالم بعــلاقاته المشتبكة يوم ولدت المطبعــة والاذاعة والباخرة والطيارة ، وتقررت مبادىء التضامن العالمى عملا فى هذا العصر من عصور الصناعة بعد أن طالت دعوة المصلحين اليه وترددت كلمــة « النوع الانسانى » بغير معنى أو بمعناها المصطلح عليه فى الألســنة والأوراق ، ومهما يقل القائلون فى قيمة هذا التضامن الحديث فليس هو اليوم بالحبر على الورق ولا بالصدى الذاهب بين الألسنة والأسماع : ان العالم الانسانى اليوم أوسع نطاقا من أن تحكمه أكبر دولة وأوثق اتصالا من أن تهمل فيه أصغر دولة ، وما من كارثة فى جزء من أجزائه

تؤمن عاقبتها فى أجزائه المترامية ، على ما بينها من تباعد فى المكان وتباين فى المصالح والأهواء ، ولا يحدث هذا فى العالم بغير تضامن « واقعى » بين أجزائه ، كائنا ما كان سببه وكيفما اختلف النظر اليه فى دساتير الأخلاق .

فاذا قيل ان هذا التضامن ضرورة غير مقصودة ، لأسباب غير محمودة ، ففى ذلك مصداق للحكمة التى تفوق ارادة الانسان وتسوقه فى تاريخه مرحلة بعد مرحلة وهو جاهل بما يساق اليه .

ونعود فنقول ان الانسان لم يصنع الآلة وهو يقصد الى جميع فوائدها وعواقبها ، وانه قد يقصدها سلاح حرب فلا تلبث أن تصير على غير قصد منه دعامة سلام ، وقد صح هذا كثيرا فى تاريخ الانسان الفرد وتاريخ الانسان الاجتماعى ، ولكنه أصح من ذلك فى تاريخه العالمى أو تاريخ هذا التضامن العالمى فى الزمن الأخير ، فما كانت منافع المواصلات لتقود الانسان الى اتقان الطيران هذا الاتقان لولا فعله فى الغارات والحروب ، وما كانت أمانة العلم لتفلح وحدها فى شق الذرة وابداع الأقمار الصناعية واطلاق الصواريخ وتركيب سفن الفضاء ، وما كانت خصائص المادة وأسرار العناصر والأجسام لتنكشف للعلماء وتنقاد للمخترعين لو لم يكن منها سلاح ووقاء وخوف من عدو أو عزم على اعتداء ، فليست هذه الروائع العلمية مما يتاح للعلماء وينقاد للمخترعين بغير القناطير المقنطرة من الذهب ، وليس انفاق القناطير المقنطرة مما تتحمله شركات البيع والشراء أو تتفتح له خزائن الأغنياء ، أو يأذن به ولاة الأمر والنهى اذا انكشف عنه الغطاء .

٤ — خواص المادة

والنظرة « المادية »

النظرة المادية نقيض النظرة المجردة الى الأشياء فى اصطلاح الأقدمين والمعاصرين ، سواء كانوا من الفكريين المثاليين أو من الحسيين الواقعيين.

وأساس هذه التفرقة قديم عند الأمم التى اشتغلت بالفلسفة والعلم ، مع اختلافها فى المزاج والعقيدة ووجهة النظر .

فعند الفيلسوف الهندى القديم أن المادة وهم باطل واننا مطالبون بأن نلغى وجودها ونفرض عدمها اذا أردنا أن ننفذ الى الحقيقة المجردة التى لا تتلبس بالأوهام والأباطيل .

وعند الفيلسوف اليونانى أن المادة كثيفة غليظة ، وأن الفكر فى لبابه صاف خالص من شوائب التجسيم والتجسيد ، ولا شك أن الفكرة الجغرافية كان لها عمل كبير فى هذه التفرقة من أساسها الأول ، لأنها فرقت بين الكائنات الأرضية والكائنات السماوية ، أو فرقت بين هذه المحسوسات الكثيفة الترابية وبين الكائنات العليا التى لا يحس منها غير النور الذى ينبعث منها ، وهو بسيط صاف لا تركيب فيه ولا يعتريه الا ريثما يختلط بالأجسام ثم ينفصل عنها فيعود الى الطهارة والنقاء .

فكل ما تحت القمر فهو مادى غليظ عرضة للفساد والانحلال ، ويأتيه الفساد والانحلال من جانب التركيب الذى لا يدوم على حالة واحدة ، ومن فقدانه الدوام يتطرق اليه العطب والفناء .

ولا نذكر هنا فلسفة المصريين الأقدمين فيما يرجع الى النظرة المجردة والنظرة المادية فانهم لم يفصلوا بين النظرتين ولم ينظروا الى الوجود كله

الا على اعتباره وجودا واحدا تمتزج فيه الروح والجسد ولا يلزم من اختلافهما أن ينفصلا عنصرين متناقضين ، فلا تنفــرد الروح بالبقــاء ولا يمتنع على الجسد أن يبقى ملازما لها أو منفصلا عنها الى حين .

* * *

ثم انقضى عصر الفلسفات القديمة واتخذت التفرقة بين النظرة المادية والنظرة المجردة مناهج شتى فى العصور الوسطى بين الفلاسفة المستقلين والفلاسفة المفسرين لأصحاب الآراء الخالية . فانقسم هؤلاء جميعا الى قسمين متناقضين : قسم الواقعيين وقسم الاسميين ، وأطلق «الواقعيون» على الذين يحصرون الوجود فى الأفراد المحسوسة ، وأطلق «الاسميون» على الذين يقولون بوجود النوع مستقلا عن الفرد بكيان غير محسوس .

فالواقعيون يقولون بوجود هذه الشجرة وتلك الشجرة وكل شجرة يرونها أو يلمسونها ويحسونها على نحو من الاحساس الجســدانى ، ولكنهم يرون أن « الشجر » كلمة تقال لتدل على جنس الأشجار فى جملتها واسم لا وجود له فى الخارج غير وجود مسمياته المتفرقة .

وعلى نقيض هؤلاء « الاسميون » الذين يقولون بأن « النوع » هو الموجود الحقيقى وأن الأفراد المحسوسة انما هى محاكاة ظاهرية تحاول أن تمثل ذلك الوجود العام على صورة من صور الوجود الخاصة التى تدركها الحواس .

وجاء بعد الواقعيين والاسميين أناس مثلهم فى هذه التفرقة بين النظرة المادية والنظرة المجردة ولكن على أسلوب آخر : هؤلاء هم الحسيون العقليون يقابلهم المثاليون المنطقيون ، فلا وجود عند الحسيين العقليين لتلك الأمثلة العليا والحقائق الغيبية التى يؤمن بها المثاليون المنطقيون ويستدلون عليها ببراهين المنطق وأدلة القياس ، وانما الوجود الحق

للمادة التى يحدها المكان والزمان ويثبتها العيان وما يؤيده من حواس الانســان .

ثم جاءت المادية الحديثة قبيل القرن العشرين فأنكرت جميع المجردات ولم تثبت شيئا غير الأجسام كيفما كانت فى تراكيبها التى تدركها الحواس أو تكشفها أدوات الرصد والتحليل .

وسمى العصر الحديث — بين أسمائه الكثيرة — باسم العصر المادى أو عصر الماديات على اطلاقها ، وجعلوا يطلقون الماديات على كل شىء يطلبه الجسد ويستمتع به الحس ولا يتجرد عن « الجسدية » على حال من الأحوال .

ولقد حسب الكثيرون أن هذه « المادية » خليقة أن تقضى على نظرة التجريد قضاءها المبرم الذى لا رجعة لها بعده ، وان الذى بقى من نظرات التجريد — بعد فلسفة الواقعيين وفلسفة العقليين — وشيك أن يذهب ذهابه الأخير فى ابان عصر المادة الحديث ، فكلما استغرق الباحث فى النظرة المادية فهو مبتعد بحكم الضرورة عن نظرات التجريد ، ابتعــاد النقيض من النقيض .

وغير هذا هو الذى حدث ويحدث مع توالى الكشوف عن أسرار المادة وعناصر الأجسام ومآل هذه العناصر فى النهاية ونشأتها قبل أن تتعدد وتبلغ العشرات .

فلم يعرف الناس نظرة التجريد كما عرفوها فى هذا « الزمن » الغارق فى ماديته كما يقال .

كان الفيلسوف المادى — والعالم المادى معا — فى منتصف القرن التاسع عشر يعلن الايمان بالمادة دون غيرها لأنه يحسب أن وجودها هو الوجود الثابت بغير برهان ، وأنها تملأ عيانه وتصــدم يديه وقدميه

ولا تحوجه الى فهم حقيقتها وراء النظر واللمس ووراء صدمة الواقع المقرر بغير جدال ولا امعان فى الخيال .

ولكن ما هى تلك « المجردات » التى يتحدث عنها غير الماديين ؟

وهم لا نراه . خيال لا نعقله . فروض لا تبرأ من النقائض وضروب المحـــال .

ثم وصف علماء المادة وفلاسفتها هذه المادة التى لا تجريد فيها فاذا هم يعيدون فيها ما قاله الروحانيون عن المجردات . فما يقوله الماديون عن سر المادة انما هو وهم لا يرى وخيال لا يعقل ونقائض من الفروض فى التفسير الواحد ، ودع عنك غيره من التفسيرات .

* * *

كانت مادة الأقدمين معدنا للكثافة والغلظة ، وضدا لمعنى الصفاء والتجريد ، لأنها من معدن يناقض النور السماوى فى بساطته ولطفـــه ونزاهة مكانه ، فأصبح قوامها كله من النور المحض يتساوى أكثفها وألطفها كما يتساوى أثقلها وأخفها فى استمداد هذا القوام من ينبوعه الأصيل ، وكلما ثقل وزنها كان هذا الثقـــل عنوانا لوفرة نصيبها من النورانية أو من الشعاع المنطلق بلاجثمان .

وكانت مادة المحدثين حقيقة واقعة مأخوذة فى اليدين ، يعدون من غريب القول أن يسأل السائل هل هى مفهومة أو غير مفهومة ، لأنها أظهر وأثبت من أن يصل الأمر فيها الى الفهم بالذهن المجرد وهى قائمة أمامنا بألوانها وأحجامها وأجرامها الصلدة التى تصـــدم الأكف والأقدام ، فأصبحت هذه الحقيقة الواقعة المأخوذة باليدين شيئا يدق عن ادراك العقول ويبلغ من الدقة غاية ما يبلغ الروح المجرد فى خفائه وصفائه ، فكل هذه الأجسام الكثيفة انما هى ذرات صغار لا تدركها العيون ولا يدركها

العقل الا بالحساب والتقدير ، وكل ما انطوت عليه هذه الذرات انما هى هزات أو جزئيات لا ندرى على التحقيق أيهما تكون ، وقد يفسرون الظاهرة الواحدة بالهزات من ناحية وبالجزئيات من ناحيــة أخرى ، ويتممون هذه بتلك على نحو يستغربونه من شراح « الروحانيات » والمجردات ، وما اليها من خلائق البديهة والخيال .

وما قصارى الهزات والجزئيات بعد هذا التردد بين التفسيرين ؟ ... قصاراها أنها حركات فى ظن من الظنون يسمى بالأثير ، لا يعرف بلون ولا طعم ولا مس ولا عدد ولا طول ولا عمق مقيس بغــير الحساب والتقــدير .

وآل أمر الامتداد كذلك الى الحساب والتقدير ، لأنه جاوز الحس والتصوير ولحق فى النهاية بالغيبيات وما شاكلها من فروض البــديهة والخيال . ففى الثانية الواحدة يعبر شعاع النور قريبا من ثلثمائة ألف من الكيلو مترات . وكم يعبر اذا انقسمت خفقة الثانية الواحدة الى ألف خفقة ؟ وماذا يكون جزء من ألف جزء من الثانية فى حساب الزمن المعهود .

وتضاءل شأن « الامتداد » الذى سميت باسمه المادة فأصبح ادراكه وادراك المعانى الذهنية على حد سواء : لا نهاية للصغر بعد أن كان المظنون أن اللانهاية صفة من صفات السعة الشاسعة من الآفاق والآباد .

واذا تركنا اللانهاية فى الصغر أو فى الكبر ووقفنا عند المحدودات فى عالم الأجسام والمعانى فالعجب هنا أعجب من كل أعجوبة روحانية عزت على قرائح المتعمقين فى التفكير والتخمين .

ان الناسلات أو الجنيات Genes التى يتكون منها النوع الانسانى كله توضع فى فنجان صغير يحتوى كل ما فى هذا النوع من القوى الكامنة والخصائص المميزة والموروثات الباقية فى وظائف الأعضاء وفى

الأذهان والطوايا الخفية : يحتوى من جراثيم التكوين كل ما توزع من الملكات والأخلاق فى أكثر من ألفى مليون من أبناء الأمم الأحياء يتوارثون ملكاتهم وأخلاقهم من اضعاف هذه الملايين فى مئات القرون ، فماذا بقى من معنى الامتداد القديم ؟ وأين مسافات الفضاء أو مسافات الزمن فى هذه المقاييس والمقادير ؟ وأين يذهب بنا التجريد المفروض وراء هذه الخفايا التى لا تؤخذ باليد ولا بالفكر الا مع التسليم والاعتراف فى النهاية بالعجز والقصور ، واذا كان جزء من ثلاثة آلاف مليون جزء محتواة فى فنجان صغير يحفظ جرثومة الطبائع والأفكار والأعضاء فى انسان عظيم أو صغير فماذا بقى من المعجزات للذين يتحدثون عما وراء الطبيعة وما وراء المادة وما وراء العقل والعيان ؟ وأين هو الفاصل القائم الذى يسمح للمادى الفخور بماديته أن يقول لخصمه : أنا مادى ألمس الحقيقة وأنت خيالى تطير وراء المحال ؟

* * *

زعم فيثاغوراس قبل خمسة وعشرين قرنا أن الوجود كله قوامه من عدد ونغم ، أو أن الوجود كله بعدده ونغمه يقوم على النسب الموسيقية .

ولم يذكر فيثاغوراس شيئا عن الموجودات المعدودة ، فهو يذكر العدد ولا يعنيه أمر المعدودات كأنه يقدم العدد فى الاعتبار ويجعل النسبة الموسيقية بين الأعداد أصلا تتبعه الفروع .

وسمع بهذا الرأى الفلسفى كاتب يعرف الكيمياء معرفة الصيدلى الماهر ، ويشتغل بالدراسات العلمية الحديثة ولا سيما مذهب النسبية فى شعبتها الخاصة وشعبتها العامة . فما كاد الكاتب الصيدلى يصغى الى ذلك الرأى الفلسفى حتى صاح محنقا : ما هذا اللغو السخيف ؟

الوجود كله عدد ؟ الوجود كله نسب موسيقية ؟ أما آن للعقل البشرى أن يتحرر من هذا الهراء العقيم الذى أكل عليه الزمان وشرب وضاعت فيه الدهور عبثا بين الجدل والسفسطة ؟

ولم يقنع الكاتب الكيمى بما قال فى ثورة الغضب بل كتب مقالا بهذا المعنى لم يعدل فيه عن وصف الفيلسوف الكبير بالسخف والجهالة .

ولقيت صاحبنا فقلت له : ان آخر من يحق له أن يرمى الفلسفة العددية بالسخف لهو الباحث الذى يعرف الكيمياء معرفتك . ماذا تقول الكيمياء عن أصل المادة بحذافيرها وأصل المعدودات على «تعدد» حسابها.

قال : انها من عناصرها المعروفة ؟

قلت : وماذا نعرف من عناصرها ؟

فمضى يسرد التعريفات المعلومة لتركيب النواة وكهاربها بين موجبة وسالبة ومحايدة ، الى آخر ما يقال عنها فى بسائط الكيمياء .

قلت : علام يقوم الاختلاف بين عنصر وعنصر منها ؟

قال : انه بالطبع قائم على عدد النويات والكهارب ؟

قلت : والنويات والكهارب من أين جاءت . أليست هى جميعا من شعاع وتؤول الى شعاع بعد الانحلال ؟ فما هو الشعاع ؟ أليس هو هزات فى الأثير ؟ وما الفرق بين هزات الأثير ان لم يكن فرقا بين عدد ونسبة ؟ وهل فى الأثير شىء معدود غير هذا العدد المفروض ؟

ان عناصر المادة اذن تختلف باختلاف ما فيها من أعداد الهزات فى الأثير ، ونرجع الى الأثير فلا نجد هنالك جسما ولا كائنا شبيها بالأجسام التى تقاس بالوزن أو بالحجم أو بالأطوال والأبعاد ، وكل ما نعرفه اذن اعداد مفروضة لا نعرف معها معدودات موجودة ، فماذا قال فيثاغوراس غير هذا مما يحق لنا اليوم أن نصفه بالسخف والهراء ؟

عدد ، ونسب مقررة بين الأعداد ، يتبع بعضها بعضها ولا يعسر على الخبير بها أن يتبين الموضع الخالى فى السلسلة المتلاحقة على حسب اعدادها وضوابط النسبة بينها .

كل ما نعرفه عن تركيب المادة أنها أعداد مفروضة ومعـدودات مجهولة ، ومن قال بهذا الرأى قبل العلم الحديث بخمسة وعشرين قرنا لا يستحق منها الوصف بالسخف والهراء ، بل هو حقيق منا بكل اعجاب واكبار ، وجدير بنا أن نتعلم منه كيف نفكر ونفتح أبواب التفكير أمام عقولنا ، فان لم نتعلم منه ذلك فلنتعلم على الأقل كيف نتردد فى اغلاق أبواب الفكر وفى حجب العيون بالأيدى حتى لا ترى ما لعلها قادرة على رؤيته ، لولا هذا الحجاب .

على أن العلم الرياضى قد اضطر العلماء الماديين وغير الماديين أن يسلموا بقول يشبه رأى فيثاغوراس فى العدد بلا معدود ، فلم يقل أحد منهم عن اقليدس انه مخرف سخيف لأنه يقول عن النقطة الهندسية انها شىء بغير طول ولا عرض ولا عمق أو ارتفاع ، ثم يقول مع ذلك ان الخط المستقيم مجموعة من هذا النقط بغير عدد معروف يميز بين الطويل منه والقصير .

اضطر الماديون وغير الماديين اضطرارا الى تسليم هذا الفرض المجرد ، وبنوا عليه علوم الهندسة العملية والنظرية ، فهى قائمة على غير أساس ، ان لم تقم على هذا الأساس .

وزبدة هذه الفروض فى العلم الطبيعى أو الفلسفة أو الرياضة أن الحواس لا تعطينا وصفا للمادة — أو للامتداد نفسه — يغنينا عن النظرة المجردة التى يدركها العقل ولا تدرك بالابصـار والأسماع ، بل ربما عجز العقل عن ادراكها ولم يستطع أن يذهب فيها مذهبا وراء التسليم .

ومن أقرب النتائج الى موقف العلم الحديث من هـذه الفروض المسلمة أن نلغى كل ما وقر فى اخلادنا عن النظر المجرد الى حقـائق الوجود ، فليست الكثافة هى الحقيقة كلها وليس الخفاء هو العدم كله ، وليس فى المحسوسات على اطلاقها شىء واحد لا ينتهى بنا الى خفاء .

واذا عاب الماديون على الفكريين أنهم يتوارثون أوهام الأقدمين فى المسائل الروحية ولا يتخلصون منها على ضوء العلم الحديث ، فمن واجبهم أن يذكروا نصيبهم من هذه الوراثة ومن هذا العجز عن الخلاص من بقايا القرون الخالية ، فما يزال فى أذهانهم أثر — بل آثار — من صورة الأرض التى تقابل السماء وتناقضها فى الجوهر والبناء ، فلا ثبوت عندهم الا لهذا القرار الذى يصدم القدمين ، ولا معنى عندهم لما بعد الطبيعة ، ولا يجوز عندهم أن تكون الطبيعة نفسها حقيقة وراء الحواس ووراء العقول .

٥ – الإيمان

لم يكن العلماء المفكرون فى القرن السابع عشر أفضل تفكيرا من خصومهم الجامدين من رجال الدين فى زمانهم أو من عامة الجهـلاء المقلـدين .

كان الخصمان المتنافران يصلان الى النتيجة الواحدة من المقدمة الواحـدة .

اثبات دوران الأرض حول الشمس ينفى وجود الله ويبطل الايمان به عند هؤلاء وعند هؤلاء ، فهم من الجانبين المتقابلين يفكرون على نسق واحد ، ويرجعون الى قضية واحدة فى فهم الكفر والايمان .

ولم يخطىء العلماء المفكرون هذا الخطأ لأنهم أساءوا فهم العلم وعجزوا عن التفكير القويم ، وانما ساقهم الى الخطأ أنهم خلطوا بين الايمان وبين رجال الدين ، وخيل اليهم أن رجال الدين هم أصحاب قضية الايمان وهم المختصون بفهمها وتفسيرها والهداية الى أسرارها ، فاذا بطلت دعواهم بطلت دعوى الايمان من أساسها ، ولم يبق لأحد حق بعد حقهم فى تجديدها واستئنافها .

ولو تمادى العلماء المفكرون كلهم فى هذا الخطأ حتى اليوم لصح القول بقضاء العلم على الدين منذ ثلاثة قرون ، وتقرر فى الأذهان أن العالم يبتعد من الدين كلما ازداد نصيبا من معارف العلم الحديث .

ولكننا اليوم بعد ثلاثة قرون لا نستطيع أن نقول ان العالم أبعد من الدين مما كان عند ظهور طوالع العلم الحديث ، ونستطيع أن نقول على التحقيق : ان نصيبه من العلم الحديث أوفر وأوفى من نصيب العالم فى

القرن السابع عشر ، بل من نصيبه عند بداءة القرن العشرين .

ما الذى تغير من تفكير علماء الأمس وعلماء اليوم ؟

تغير وضع القضية .

تغير أصحاب الدعوى فأصبح لها طرف واحد، يتلقى المدعون فيه والخصوم .

قضية الايمان اليوم هى قضية الوجود وليست قضية الجامدين أو المتحررين من رجال الدين ، واذا صار الأمر الى قضية الوجود فالاثبات والنفى فيها مطلوبان من كل موجود يعقل ويبحث عن حقيقة وجوده ، أيا كان رأى الجامدين أو المتحررين من رجال الدين فى جميع الأديان .

تغير وضع القضية فتغير فيها موقف الهجوم وموقف الدفاع : من هجم فيها فانما يهجم على عقله ووجدانه ، ومن دافع فيها فانما يدافع عن عقله ووجدانه ، ومن ظن أن طائفة من الناس أحق بالهجوم والدفاع فقد نزل عن حقه فى وجوده وحياته ، وعن حقه فى استطلاع أسرار الوجود والحياة فيما حوله ، وهو أكبر ما للحى العاقل من حقوق .

فى رسالتنا عن « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » — قلنا :

« ان أسباب الشك منذ نشأة العلوم الحديثة خمسة ليس أقوى منها وأعظم فعلا فى عقول المفكرين الأوربيين وفى عقول غيرهم ممن نظروا الى دلالتها مثل نظرتهم وحكموا بها على الأديان مثل حكمهم ، وهذه الأسباب الخمسة هى :

« أولا » كشف كوبرنيكس لمركز الأرض من المنظومة الشمسية ومن الأجرام السماوية على العموم .

« ثانيا » ظهور القوانين الطبيعية التى سميت بالقوانين المادية أو الآلية .

« ثالثا » مذهب النشوء والارتقاء .

« رابعا » علم المقارنة بين الأديان والعبادات .

« خامسا » مشكلة الشر ، وهى ليست من مشكلات القرن العشرين خاصة ، ولكنها تخصص بالقرن العشرين لما تفاقم فيه من الحروب ... »

كان التقليد الشائع عند المفكرين المنكرين من طراز القرن السابع عشر أن يحيلوا على الدين كل خطأ من أخطاء رجال الدين الجامدين الذين يرفضون كشوف العلم وآراء العلماء فى هذه البحوث والنظريات .

وكان لهم وجه من الشبهة فى ذلك التقليد الذى نظلم العلم بنسبته اليه ، ولكن ما هى الشبهة عندهم على الايمان بالله اذا تحولت القضية من قضية خاصة برجال الدين الجامدين الى قضية عامة للوجود ولكل ما هو موجود .

ما الذى يمنع أن يكون دوران الأرض حول الشمس أدل على الحكمة الالهية لأنها فى موضعها من المنظومة الشمسية قد أصبحت أصلح للحياة من جميع السيارات .

وما الذى يمنع أن تكون النواميس فى الطبيعة أدل على الحكمة الالهية من الفوضى والاختلال ؟

وما الذى يمنع أن يكون التطور آية من آيات الهداية الالهية التى ترتقى بالمخلوقات وتبث فيها عوامل التنوع والارتقاء .

وما الذى يمنع أن يكون التدين اجتهادا يبلغ فيه الانسان ما هو قادر على ادراكه طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل .

وما الذى يمنع أن يكون « الشر » أدل على فضل الحياة والحرية من خلق الناس كما تصنع القوالب وتخرط الحدائد والأخشاب .

ان تلك الكشوف العلمية لا تطوى صفحة الدين الا اذا أسىء وضع

القضية ، وفهم الدين على أنه بضاعة فئة من الناس يروجونها ولا يحفل أحد غيرهم برواجها أو كسادها ، بل عليهم أن يحترسوا منها كما يحترس المشترى من تاجر ماكر يبيعه ما لا يحتاج اليه .

الا أنها اذا وضعت فى موضعها وفهمت على أنها قضية الوجود والحياة — فكل ما كشفه العلم وما سيكشفه خليق أن ينشر منها كل يوم صفحة جديدة ويفتح منها كل مرة بابا لم يكن قبل ذلك بمفتوح للباحثين . وقد فهمت تلك الكشوف على هذه الصفة حديثا فلم ينكر الفكر مكان الكرة الأرضية فى وسط المنظومة الشمسية ، بل رأى فيها آية من آيات الحكمة الالهية أقرب الى التصديق من زعم الزاعمين أنها مستقرة فى مركز الكون ، وأن القائلين بانحرافها عن ذلك المركز يبطلون القول بحكمة النظام فى الأرض والسماء وحكمة خلق الانسان فى موضعه من ذلك النظام .

لو كانت الأرض ترتج من فزع أبنائها لارتجت فعلا من فزع المتدينين الجامدين يوم سمعوا أنها كرة وأنها تدور ولا تستقر فى مكانها من مركز الوجود ، ولكن الكرة الأرضية خرجت من ذلك المركز المزعوم ودارت فى مدارها بين السيارات ، فتمت لها فى هـذا المدار شرائط الحيـاة واستعدت بذلك لظهور الأحياء عليها واظهار البرهان القوى على الحكمة والقصد ، من حيث لا يظهر للعقل من اثباتها فى مركزها القديم .

لم توسطت بمدارها بين أقصى البعد من الشمس وأدنى القرب منها ، وبين أقصى البرد وأقصى الحرارة ؟

ولم توسطت فى حجمها بين الضخامة التى تشل حركة الأجسام بوطأة الجاذبية الثقيلة وبين الخفة التى تطلق الموجودات عنها الى الفضـاء ولا تمسك حولها بالجو الصالح للحياة ؟

ولم اختلف عليها النور والظلام فتيسرت فيها تراكيب الكيمياء التى لا تتيسر مع اطباق النور أو اطباق الظلام ؟

ليكن تعليل هذه الأحوال على الوجه الذى ترتضيه عقول الباحثين فيها من جوانب النظر المتباينة ، فانما نحن على كل وجه من وجوه التعليل أمام صفحة مفتوحة للبحث فى أسرار الخلق لم يطوها القول بخروج الأرض من مركز الكون المزعوم الى مدارها المتنقل بين السيارات ، وهكذا تبقى القضية التى خيل الى المنكرين فى القرن السادس عشر أنها قضية سقطت فيها الدعوى وبطل فيها الخلاف ، وهكذا مضت عدة قرون ولم يبتعد العقل فى القرن العشرين من الايمان بمقدار نصيبه من المعارف والكشوف ، بل هو أحرى أن يبتعد من الانكار كلما اطلع على كشف جديد من كشوف العلم الحديث ، وأحرى بالعصر الحاضر أن يسمى عصر الشك فى الانكار ، اذا قيل عن العصور القريبة الماضية أنها عصور الشك فى الايمان .

* * *

ولا ندرى ماذا تصنع ثلثمائة سنة أخرى بمسألة الايمان والانكار فى نظر العقل والبديهة بعد هذه الخطوات التى خطاها الفكر الانسانى منذ القرن السابع عشر الى هذا القرن العشرين ، ولكن المشاهد أن أفكار المعاصرين قد استفادت كثيرا من تحويل المسألة من مسألة جدل وملاحاة بين العلماء وأدعياء الدين المحترفين الى مسألة انسانية يضيرنا أن نهملها ولا ينفعنا أن نكتفى فيها بالتفتيش عن سخافة الجامدين والجهلاء .

ومما استفاده الفكر الانسانى فى القرن العشرين أنه فصل فى مسألة أخرى لا تقل عن هذه المسألة فى قيودها الوبيلة وفى نتائج الخلاص من اسار تلك القيود ، وتلك هى مسألة القطيعة بين العلم والفلسفة وحسبان

النظر فيما وراء المادة فضولا يوشك أن يخل بكرامة العلماء ويخرج بهم من نطاق العلوم .

فالنظرة المجردة اليوم نظرة اضطرارية لا اختيار فيها للعالم الذى كان يظن أنه فى حل من تركها بل يظن أنه مطالب بالابتعاد عنها ، فليس للعقل العلمى اليوم محيص من النظر المجرد الى أصول الموجودات وهو قائم فى صميم هذه الموجودات المادية ، وليس « ما وراء المادة » فى القرن العشرين عالما سحيقا يوغل فيه بالظن والخيال ، بل هو عالمه الذى يشاهده بالعين وينتهى اليه بالتجربة ويفكر فيه ويتخيله على اضطرار بعد انتهائه بالحس الى غاية مداه ، وقد كان الفرض الرياضى عند علماء التجربة العملية حيلة موقوتة يسمح بها مغضيا عنها فى انتظار الوصول الى الحل المأمول ، وكانت النقطة الهندسية — مثلا — لغزا علميا من ألغاز الرياضة التى تشبه الألعاب التى يقبلها من يقبلها ريثما يصل الى الجد المفيد فى التطبيقات العملية : قل أيها الرياضى الحريص على تعريفاته العزيزة كيفما شئت ان النقطة شىء ليس بشىء وبعد تمتد منه جميع الأبعاد ولا طول له ولا عمق ولا ارتفاع ، فما دمنا نبنى ونهندس ونحسب فى عالم الأبعاد والمسافات فلا بأس علينا من فروضك وألغازك فى فراغ الأوهـــام .

غير أن الرياضى المولع بتعريفاته الأولية يعود اليوم فيسأل علماء التجربة والعمل أن ينتهوا بتجاربهم الى شىء فى الفضاء يختلف فى ادراك العقول والحواس عن النقطة الهندسية فلا يحيرون جوابا ولا يحسبون أنهم أفلتوا قيد شعرة من المادة الى فراغ الأوهام ، كل ما نلمسه ونحسه ونراه ونعقله ان هو الا حركة فى الأثير ، وكل ما نعرفه من الأثير انه فضاء لا ندرى ما الذى يتحرك فيه وما معنى الحركة فيه من هنا أو هناك.

ويضطر الطبيب وعالم الحياة ، كما يضطر الرياضي وعالم الطبيعة ، الى هذه النظرة المجردة حين يشرح مخ الانسان وينتظر نتيجة التشريح فيرى أن جسم « المخ » لا يحتوى الفكر احتواء الآنية المحسوسة كما خطر للكثيرين من الماديين الذين قرنوا بين مادة المخ ومادة التفكير ، فقد يزال جزء من المخ كثير أو قليل ويبقى للعقل كل ما كان فيه من علوم ومعارف وذكريات وأخيلة وكلمات ومعان ولغات ، وقد يعاب تكوين المخ وصاحبه من فلتات العبقرية والنبوغ ، وقد يصغر المخ حجما ووزنا وقدرته على التفكير أكبر من قدرة المخ الذى يزيد عليه فى حجمه ووزنه ، وقد كان الفيلسوف ديكارت يرجح على سبيل الظن أن الغدة الصنوبرية فى الدماغ هى نقطة الوصل بين الجسد والفكر وملتقى العالمين المتقابلين عالم المادة وعالم الروح ، وكان الفيلسوف يعتقد أنه بلغ غاية التسامح الذى يستطيعه من يفرق بين العالمين ويضطر الى صلة يعقدها بينهما مع هذا التفريق ، فاليوم لو عاد لرأى المغرقين فى التجسيم يسبقونه الى التسليم باختلاف مادة التفكير من مادة الدماغ كله ، بما فيه من غدة صنوبرية ومن أغشية وتلافيف .

ولم تتمحض ، بعد ، بحوث العلم فى اشعاع الدماغ وعلاقة هذا الاشعاع بالتفكير والانفعال ، ولم تجر المقارنة الوافية بين الاشعاع المنبعث من دماغ الانسان والاشعاع المنبعث من دماغ الحيوان فى أحوال الشعور والانفعال ، ولم يظهر للعلماء الباحثين فى هذه الظواهر محور الفارق بين اشعاع المخ الانسانى فى حالة التفكير والتأمل واشعاع المخ الحيوانى فى حالة الاضطراب الجسدانى الذى لا تفكير فيه . ولم تكمل ، بعد ، محاولات التجربة العكسية فى هذه الظواهر الفكرية أو الشعورية، فلم يعرف أحد من الباحثين كيف يستطيع أن يحدث بالاشعاع الذى

يرسله الى الدماغ أثرا كالذى ينشأ فى داخل الدماغ أثناء اشتغاله بالتأمل أو بالروية أو بالأعمال الفنية والعلمية ، وكل أولئك من التجارب اللازمة فى هذه الدراسة الطريفة التى لم تسبق لها سابقة من نوعها قبل القرن العشرين . بيد أننا لا نحتاج الى الانتظار الطويل لنعلم أن العامل المهم فى التفكير شىء غير الحجم والمقدار ، وان المخ لا تنقص معلوماته ومحفوظاته بنقصان جزء منه يستأصله الجراح فى بضع لحظات ، ولسنا نريد أن نسبق السنوات فضلا عن الأجيال والقرون ، ولكننا نستبعد منذ الآن أن يجىء اليوم الذى يستطاع فيه تكييف المخ بالأشعة المرسلة اليه من الخارج ليعرف لغة من اللغات أو قضية من قضايا الفلسفة أو درسا من دروس الكيمياء والجغرافية والرياضة ، أو ليكسب ملكة من ملكات النظم والتصوير والتمثيل وما نحا نحوها من الفنون . وغاية المستطاع — على ما نعتقد — أن ينجح الباحثون فى تسجيل اشعاع المخ بالرسوم الكهربية وادراك دلالتها على نشاط المخ أو كسله وعلى رجحانه أو نقصه، وربما نجحوا كذلك فى تنشيطه وتنبيه قدرته وحضه على عمله وتمييز ذلك العمل الذى يحض على أدائه . أما أن تنقل الأشعة الى المخ فكرة لم يبتدعها ولم يستعد لها بتكوينه وتربيته فليس ذلك بالمستطاع ولا هو مما تنبئنا عنه أوائل البحث كما بدرت لنا حتى الآن .

وأيا ما كان مآل هذه البحوث بعد زمن قريب أو بعيد فليس من الممكن أن نرجع بعمل المخ الى حركة أكثف من مادة الشعاع فى الأثير ، وذلك شوط فى تنزيه الملتقى بين الجسد والفكر لم يحلم به الفيلسوف الذى قنع بالغدة الصنوبرية ملتقى بينهما فى تكوين الدماغ وجعل التفكير أساس البراهين على صدق وجود الانسان ووجود الاله .

* * *

ان الشوق الى الايمان من أقوى أشواق النفس الانسانية ، شوق متصل بحب الحياة وحب المعرفة وحب الجمال وحب الكمال ، وحسبنا منه أنه شوق يعيننا على اليأس ويمنحنا الأمل ويجعل للحيـاة معنى يتصل بالدوام .

وليس المتشككون أضعف الناس حظا من هذا الشوق المتأصل فى أعماق النفس البشرية ، فانهم كالعاشق القلق المستريب حظه من الحب أعمق من حظ الخلى الذى يسقط الحب من حسابه فلا يعنيه أن يثق ولا أن يشك ولا أن يستريح من قلق يساوره وخواء يشعر به ولا يرتضيه.

هؤلاء المتشككون فى هذا العصر يحارون بين شك يحيك بضمائرهم وشوق محتبس لا يجد سبيلا الى الانطلاق ، وفضيلة القرن العشرين فى أمر هؤلاء المتشككين أنه فتح أمامهم هذا السبيل وفسح لهم مجـال النظر فى الغيبيات وحقائق الوجود من وراء الحواس والعقول : كان العلم يخجلهم من هذه الغيبيات كما يخجلهم من الأوهام التى انقضى زمانها بانقضاء الخرافات بل بانقضاء الفلسـفة التى تخوض فى ظنون لا تقع تحت الحس ولا تقبلها العقول ، فأصبح العلم أقرب الى هذه الغيبيات من المخرفين والمتفلسفين ، وحقت عليه الكلمة من مقدماته التى لا يملك الرجوع عنها اذا ملك الفيلسوف أو صاحب الظن أن يرجع عما يشاء من الفروض والأظانين .

وفضيلة القرن العشرين بعبارة أخرى أن العقل البشرى اذا اشتاق فيه الى الايمان استطاع أن يطلبه ولم يخجل من طلبه ، وأنه يطلبه مع العالم والفيلسوف والمتصوف والمؤمن بدينه ، ولا يطلبه متخاذلا متنابذا يدارى سره من علانيته ويستر جانبا من تفكيره لكيلا يطلع عليه جانب آخر يعارضه أو يزدريه .

ان ثلثمائة سنة فى عصر السرعة تصنع المعجزات فى عالم المجهول علما وصناعة وايمانا واعتقادا وعلاقات بين الأمم فى الدنيا الواسعة وبين آحاد الناس فى الأمة الواحدة ، وقد يضل البصر عما سيكون بعد تلك السنين ، ولكننا نتقدم على أمان اذا قصرنا النظر على ما بقى فى القرن العشرين من سنيه الأربعين ، لأننا نبصر مواقع الخطى فى هذا الأمد القريب ، ونلمس طبيعة العقيدة التى تتهيأ لمن يبحث عنها وهو لا يهاب النظرة المجردة الى الغيب ولا يخضع لسلطة ترهبه بالزواجر والقيود ، وكلما أمعنت به الوحدة العالمية فى مناهجها الفكرية والخلقية خلص من قيد ثقيل من قيود العصبية التى تفكك روابط الانسانية وتجعل الدين سدا من سدود الفرقة والبغضاء ، بدلا من الايمان بوجود واحد فوق الأرض وتحت السماء .

* * *

نحن نتقدم على أمان فى استطلاعنا للغيب القريب اذا تذكرنا كيف انتهى الزمن بقضية الايمان والانكار من القرن السابع عشر الى القرن العشرين : انه نقلها من خصومة على المراسم والشعائر ودعاوى المتدينين المحترفين ، الى بحث صادق عن حقيقة الحياة وحقيقة الغيب والشهادة بغير خصومة ولا لجاجة بين قوم أصلاء فى الدعوى وقوم أصلاء فى الانكار ، وليس للباحث الذى يتقدم على هدى هذه الحقيقة من قبلة غير جوهر العقيدة الخالصة مبرأة من حواشى المراسم والشعائر والتقاليد ، عالمية غير ذات عصبية ، وبصيرة غير منقادة لبقية موروثة ولا سلطة ظاهرة أو خفية .

قبلة الايمان فى المستقبل تتلاقى مع وجهة النوع الانسانى الذى يتقدم الى الوحدة العالمية ووجهة الانسان الفرد الذى يتقدم الى الحرية

والكرامة . ولا حرج على متدين أن يبقى على دينه الموروث ويستصفى منه جوهره المبرأ من غواشى الخرافة ونفايات التقليد ، فان الأديان تتوحد بالجوهر وتتفرق بتلك الغواشى والنفايات ، ولا مبالاة بالقشور التى تعلق بلباب الدين حيث يقوى ضمير الفرد الحر على التخلص منها وحيث تتمكن عوامل الوحدة الانســانية من التغلب عليها فتبقيها متسامحة أو تنفيها متجافية ، ولا تسمح لها على الحالين أن تعوقها عن قبلتها.

* * *

وحسب القرن العشرين حصة من الحرية الفكرية أنه أطلق الفكر من عقاله الذى حاكه لنفسه بيديه ، فانه وصل بالعــلم الى ما وراء المادة المحسوسة فلم يجد هنالك خرافة من خرافات العجائز ولا أسطورة من أساطير الأولين ، بل وجد الأصل الأصيل لكل موجود مشهود أو غير مشهود ، فاستباح لنفسه أن يبحث ويتطلع ويطرق الأبواب التى تطرق للافضاء الى ما وراء المادة والفضاء ، ومنها أبواب الفلسفة وأبواب العقيدة ، وكانت حريته هذه من قيود نفسه أنفع له من كل حــرية استفادها من ثورته على رجال الدولة أو رجال الدين ، اذ كانت حريته المستفادة من ثورته على غيره لا تحميه أن يتعثر فى سعيه الى الحقيقة وهو يضع العراقيل بيديه أمام خطواته ، ويحسب أنه يصون كرامته بالاحجام عما وراء المادة ووراء التجربة المادية ، فيما استأثر به قبل ذلك دعاة العقيدة وأصحاب الفلسفة المثالية .

ونحسب أن الثمرة الأولى من ثمرات هذه الحرية « الذاتية » قد ظهرت ولم تزل تمعن فى الظهور فى أواخر القرن الماضى الى منتصف القرن الحاضر ، وبدا من طوالعها أن تتمشى العقول فى طريق واحد على تعدد الميادين التى تسلكها ، فليس بينها اليوم ذلك التقاطع المقرر منذ

البداءة بين قبلة العالم وقبلة المتصوف وقبلة الفيلسوف ، كل منهم يولى شطرا غير شطر صاحبه ، الى غير لقاء .

وقد ندرك هذا الاتفاق فى الغاية من أيسر نظرة الى مذاهب الفلسفة التى نشأت بين أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر ، فان المذاهب الجديدة — من واقعية أو مثالية — تمضى على نهج واحد أو على خط واحد فى الاعتراف بالمادة والفكرة ، وكل ما تختلف فيه أن تذكر موضع الابتداء وموضع الانتهاء ، ومثلهم فى ذلك مثل من يسمى خط السفر فيقول انه خط يمتد من المحيط الأطلسى الى المحيط الهادى أو يقول انه يمتد من المحيط الهادى الى المحيط الأطلسى ، وكلاهما يتكلم عن خط واحد لا عن خطين اثنين .

فالبرجمية مذهب ينادى امامه الأكبر — وليام جيمس — بارادة الاعتقاد أو بواجب الاعتقاد ، وهو — على هذا — أجهر الفلاسفة صوتا بتقرير الواقع دون أن يناقض نفسه فى الحالتين ، اذ هو ينادى بتقرير الواقع ولا يعتبره نقيضا للفكرة ولا للآراء المثالية ، وانما هو ترجمان الحقيقة الذى يفسرها ويشرحها ويتولى اثباتها وضبط معاييرها ، وفرق بعيد بين من يقول بالواقع المحسوس وينفى ما عداه ومن يقول ان الواقع لا غنى عنه للدلالة على ما عداه .

وننظر الى المذهب المثالى والمذهب الواقعى كما يتمثلان فى آراء الفيلسوف برادلى Bradley والفيلسوف صمويل الكسندر Alexander ... فان مذهب برادلى المثالى فحواه ان الوجود الالهى حقيقة لابد منها تترقى الموجودات المادية اليها ولما تدركها ، ويقابله مذهب ألكسندر الواقعى بما فحواه أن الوجود الالهى حقيقة لابد منها أيضا ولكنها تنتج من ارتقاء المادة شأوا بعد شأو من تفاعلى الزمان والمكان .

فهما اذن رأيان لا ينكران الواقع ولا ينكران الحقيقة الالهيـــة ولا يختلفان فيما هو الأعلى منهما وما هو الأدنى ، ولكنهما يختلفان بعد ذلك فى نقطة الابتداء .

وجدير بالتنويه هنا ان المذاهب الواقعية والمثالية جميعا فى القرن العشرين تعنى أشد العناية بحركة الزمان فى الفضاء .. فان هذا الزمان الذى كان فى عرف الأكثرين فرضا رياضيا يقتضيه ترتيب الحوادث قد أصبح الآن جوهرا أصيلا للموجودات بعد أن تبين العلماء أن الموجودات المادية كافة تؤول الى حركة فى الأثير ، وهو مرادف عندهم للفضاء ، وهذا الذى عنيناه حين قلنا فى التعليق على مذهب ألكسندر : « لا شك ان مذهب اينشتين عن الزمان والمكان كان له أثر كبير فى وقوع هـــذا الخاطر فى روع الفيلسوف ، ولكن الأثر الأكبر ولا شك يرجع الى مباحث العلوم الطبيعية فى الحرارة والكهرباء ولا سيما المباحث التى قررت أن ذرات المادة تتحول الى اشعاع ، فاذا كان الاشعاع هو أصل المادة وكان الاشعاع مجرد حركة فلا جرم يخطر للفيلسوف ان حدوث الحركة فى الفضاء هو أصل المادة فى صورتها الأولى[١] » .

ومن عجائب الاتفاق فى هذه المناحى الفلسفية أن يكون ألكسندر الواقعى تلميذا فى مذهبه عن الزمان لهنرى برجسون أكبر المثاليين من أعلام الفلسفة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فمذهبه فى الزمان شبيه بمذهب برجسون الذى يقول بأن الزمان أصيل فى خلق المادة وأن « التغير » الذى هو قوام الزمان ينشىء الكائنات وينميها ولا يفنى ماضيه بانقضائه بل يتسع مع الحاضر كما يتسع النهر فى مجراه ويشق طريقه الى المستقبل محتفظا بما كان وبما هو كائن الى

---

(١) كتاب « الله » للمؤلف .

أن يتجمع كله فيما يكون . ومثل هذه الصورة للزمان لم تكن لتخطر على بال الفلاسفة المحدثين لو لم تمتلىء أذهانهم بفكرة الحركة فى الأثير كما تتراءى فى سريان شعاع الضوء خلال الفضـاء . فان الفيلسوف لا يعدو حدوده حين يقول بأصالة الحركة الزمانية قبل تجسم المادة ، اذا كان العالم — الموكل بالتجارب الحسية — يقول بأن المادة « مستمدة » من شعاع يسرى فى فضاء ، وانها حركة مجردة لا يعرف العلم ما هو المتحرك فيها وما هو مصدر الحراك على صورة الضوء أو على صورة الحرارة أو على صورة الكهرباء .

هذا فى نطاق البحوث الفلسفية .

أما فى نطاق البحوث العلمية فقد أصبح البحث فيما وراء المحسوسات خطوة طبيعية بعد تجريد المادة فى الأثير من صبغتها المحسوسة ، فنشأ فى أوائل القـرن علم حـديث يسـمى بالسـيكولوجية المقـارنة Parapsychology يدور البحث فيه على انتقال المشاهدات بغير وساطة الحواس ، ولا يزال هذا العلم معدودا من الخطوات الجريئـة بحكم التقاليد التى يطول أمدها بعد أوانها فى عادات الكثيرين ، ولكن العلماء الذين باشروا التجربة فى هذا العلم الحديث يرون أن الظواهر التى راقبوها لا تقبل التفسير بفرض من الفروض المصطلح عليها وأن المضى فى التجربة أجدى وأقرب الى الأمانة العلمية من العدول عنها ، وذلك حسب الحديث من بواكير النجاح .

يقول الأستاذ راين Rhine من جامعة ديوك Duke بالولايات المتحدة : « .. ان بعض الرواد السابقين فى هذه المباحث كانوا من علماء الطبيعة النابهين ، كالسير اوليفر لودج والسير ويليام كروكس والسير ويليام باريت ، ثم حدث بين حين وحين أن كان يسهم فى تلك المباحث بعض العلماء

الممتازين وان ظل بعض المتخصصين من علماء الدراسات النفسية بمعزل عنها ، وقد كان بين أولئك الرواد الأساتذة ويليام جيمس وجـورج هيمانز وويليام مكدوجال ، وكان من ثمرة مباحثهم أن يقام أساس صالح لاستمرار النظر فى النجوى على البعد Telepathy ، وصحيح أن المباحث التى أجريت فى معامل هارفارد وجرونتجن وستانفورد خلال السنين الخمس والعشرين الأولى من القرن العشرين لم تعمر طويلا لقلة المشجعات من جانب المتخصصين . الا أن النتائج التى أسفرت عنها مباحث الرواد كانت مشجعة على المضى فيها وان لم تقبل على علاتها ، لأنها ساعدت على اقامة معمل خاص لها بعد قليل . فقد بدئت مباحث علم النفس المقارب فى جامعة ديوك سنة ١٩٣٠ برعاية الأستاذ مكدوجال ، وأدى استمرار البحث فيها الى تأسيس مركز لها سمى بعد ذلك بمعمل جامعة ديوك للدراسات النفسية المقاربة ، وظهرت فى سنة ١٩٣٤ رسالة مقصورة على هذا الموضوع تلخص نتائج التجارب التى أجريت خلال السنوات الثلاث بعنوان (مدركات ما وراء الحس ، وتلاها اصدار مجلة علم النفس المقارب سنة ١٩٣٧ يشارك فى تحريرها الأستاذ مكدوجال..».

* * *

واستطرد الأستاذ راين الى اجمال التحقيقات التى تمت منذ انشاء المجلة الى ما قبل منتصف القرن العشرين ، وأشار الى الشروط التى اتبعت لتوحيد أسلوب البحث وضمان الاتفاق فى التجربة وامتحان النتائج الموثوق بها أيها ينسب الى النجوى على البعد Telepathy وأيها ينسب الى الكشف Clairvoyance وأيها ينسب الى المصادفة ، فاذا بقيت بعدها نتائج أخرى أمكن أن يقال انها مما يثبت وجود الوساطة غير المحسوسة بين الانسان وما يدركه من الأشياء . ويؤخذ من الاحصاءات

أن جانب المصادفة قليل وأن التجارب التى تحتاج الى تفسير غير معهود يزداد ويبتعد فى خصائصه عن كل من النجوى على البعد وعن الكشف كما يبتعد عن الاشتباه بالتنويم المغناطيسى ، وهذه تجربة من تجارب شتى تدل على سائرها .

قال الأستاذ : « ودلت التجارب على وجود عامل غير مجرد المصادفة ، واقتنع المجربون أنفسهم بأن النتائج لا يمكن تأويلها بسبب من الأسباب المعهودة » .

الى أن قال : « ... ووضعت البطاقات فى منزل آخر على بعد مائة ياردة ، وحاول هيوبرت بيرس الذى كان يومئذ طالبا لعلم اللاهوت أن يميز البطاقات .. فأسفرت التجربة عن سنتين — يمكن أن ينسب الى المصادفة — من ثلثمائة ، أى عشرين فى المائة . وعن ١١٩ مرة أصاب فيها بيرس ، أى ما يقرب من أربعين فى المائة . وهى نسبة لا يمكن أن تعزى الى المصادفة ، اذ كانت مثل هذه المصادفات لا تتفق أكثر من مرة فى كل ترليون ، واحتمال التواطؤ بين الرجلين يدحضه اجراء التجارب بعد ذلك على مشهد منى .. »[١] .

فاذا استمرت التحقيقات على هذه الوتيرة بقية السنين الأربعين من هذا فالمنتظر أن تتم وسائل التأكد من المصادفة وغير المصادفة فى هذه التجارب ، وان يتقرر الامتحان العلمى الذى تعرض عليه مباحث هذا العلم الجديد ، وقد تثبت الوسائل المختارة وجود العوامل غير المحسوسة أو لا تثبتها ولا تنفيها . اذ كان من الواجب أن نفرق بين وسائل الكشف وبين الحقيقة المطلوب كشفها . فان المنظورات والمسموعات كانت ملء

---

(١) المجمل الجديد للمعرفة العصرية
The New Outline of Modern Knowledge

الفضاء والهواء قبل أن تمسكها المصورة الشمسية وأجهزة الاذاعة . وليس فى وسع العلم أن ينفى « المجردات » مع وجود الأثير مجردا من جميع صـفات المادة ، واقترابه بذلك من حـدود المجردات الفكرية والنفسية .

* * *

ويرى أن الأستاذ راين حرص فى كلمته على التنبيه الى قيام الرواد فى مباحث الظواهر النفسية من بين الأقطاب المشتغلين بالعلوم الطبيعية ، لأن المشهور عن الباحثين فى علوم الطبيعة أنهم أشد الباحثين انكارا لما وراء الطبيعة وما يشتمل عليه من المسائل الغيبية ، خلافا للباحثين فى مسائل علم النفس فانهم أقرب العلماء الى المسائل الروحية وأحراهم أن ينظروا الى شئون الغيب بشىء من الترخص والسماحة الفكرية .

على أن المشاهد فى السنوات الأخيرة أن كفة التردد فى شئون الغيب تتحول من جانب الايمان الى جانب الانكار بين أقطاب العلوم الطبيعية ، فليس بالنادر بينهم من يستند الى علمه فى ترجيح الايمان على الانكار ، بل لعل هؤلاء العلماء اليوم ينقسمون الى فريقين لا تناقض بينهما فى مسألة العقيدة الغيبية ، اذ ينعقد الاجماع بينهم على أن العلم التجريبى وصاف غير كشاف ، يجمع الوقائع ويرتبها ولا يتعدى الاحصاء والتقرير الى كشف المجهول والتعرض له بالنفى والاثبات ، فهم بين مؤمن يرى فى علمه ما يعزز ايمانه ويشجعه عليه ، وبين واقف موقف الحيدة يترك الدعوى العلمية جانبا كلما عرض لشئون الغيب والعقيدة .

ومن علماء الطبيعة الذين يحق للقارىء أن يعتبرهم مثلا لأصحاب الايمان المعزز بالعلم الأسـتاذ كريسى موريسون Cressy Morrison لأنه كان رئيسا لمجمع العلوم بنيويورك وعضوا دائما من أعضاء مجمع

العلوم البريطانية ، وزميلا فى متحف التاريخ الطبيعى وركنا من أركان مجلس البحوث العلمية ، وكتابه الذى سماه « الانسان ليس وحيدا »[1] فحواه فى بضع كلمات ان حقائق الوجود لا تقبل التفسير بغير تقرير وجود الخالق الحكيم .

ويبدأ العلامة كريسى كتابه النفيس ببيان الضعف البالغ فى تعليل الحياة على الأرض بمحض المصادفة فيقول فى مفتتح الفصل الأول :

« خذ عشرة بنسات كلا منها على حدة وضع عليها أرقاما مسلسلة من واحد الى عشرة ، ثم ضعها فى جيبك وهزها هزا شديدا ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من واحد الى عشرة . ان فرصة سحب البنس رقم واحد هى بنسبة واحد الى عشرة ، وفرصة سحب رقم واحد ورقم اثنين متتابعين هى بنسبة واحد الى مائة ، وفرصة سحب البنسات التى عليها أرقام ١و٢و٣ متتالية هى بنسبة واحد الى ألف ، وفرصة سحب ١و٢و٣و٤ متوالية هى بنسبة واحد الى عشرة آلاف وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من واحد الى عشرة هى بنسبة واحد الى عشرة بلايين . والغرض من هذا المثل البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة ، ولابد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عـديدة ، بحيث يصـبح من المحال — حسابيا — أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة بمجرد المصادفة على أى آرض فى أى وقت . لذلك لابد أن يكون فى الطبيعة نوع من التوجيه السديد ، واذا كان هذا صحيحا فلا بد أن يكون هناك هدف ... وبعض علماء الفلك يقولون لنا ان مصادفة مرور نجمين متقاربين لدرجة تكفى

---

(١) Man does not stand alone وقد ترجمه الى العربية الاستاذ محمود صالح الفلكى بعنوان « العلم يدعو الى الايمان »

لاحداث مد خضاق هدام هى فى نطاق الملايين ، وان مصادفة التصادم نادرة لدرجة وراء الحسبان ، ومع ذلك تقول احدى نظريات الفلك انه فى وقت ما — ولنقل منذ بليونى سنة مضت — قد مر نجم بالفعل قريبا من شمسنا لدرجة كانت كافية لأن تحدث أمدادا مروعة ، ولأن تقذف فى الفضاء تلك الكواكب السيارة التى تبدو لنا هائلة ولكنها ضئيلة الأهمية من الوجهة الفلكية ، ومن بين تلك الكتل التى اقتلعت تلك الحزمة من الكون التى نسميها بالكرة الأرضية ... انها جسم لا أهمية له فى نظر الفلك ، ومع ذلك يمكن القول بأنها أهم جسم نعرفه حتى الآن . ويجب أن نفرض أن الكرة الأرضية مكونة من بعض العناصر التى توجد فى الشمس لا فى أى كوكب آخر . هذه العناصر مقسمة على الكرة الأرضية بنسب مئوية معينة قد أمكن التحقق منها لدرجة مقبولة فيما يتعلق بالسطح . وقد حولت جملة الكرة الأرضية الى أقسام دائمة وحدد حجمها وسرعتها فى مدارها حول الشمس هى ثابتة للغاية ، ودورانها على محورها قد حدد بالضبط لدرجة أن اختلاف ثانية واحدة فى مدى قرن من الزمان يمكن أن يقلب التقديرات الفلكية ، ويصحب الكرة الأرضية كوكب نسميه بالقمر ، وحركاته محددة ، وسياق تغيراته يتكرر كل ثمانى عشرة سنة . ولو أن حجم الكرة الأرضية كان أكبر مما هو أو أصغر ، أو لو أن سرعتها كانت مختلفة عما هى عليه لكانت أبعد أو أقرب من الشمس مما هى ، ولكانت هذه الحالة ذات أثر هائل فى الحياة من كل نوع بما فيها حياة الانسان ، وكان هذا الأثر يبلغ من القوة بحيث ان الكرة الأرضية لو كانت اختلفت من هذه الناحية أو تلك الى أى درجة ملحوظة لما أمكن وجود الحياة فوقها ، ومن بين كل الكواكب السيارة نجد أن الكرة الأرضية فيما نعلم الآن هى الكوكب الوحيد الذى كانت

صلته بالشمس سببا فى جعل نوع حياتنا ممكنا ... أما عطارد فانه بناء على القوانين الفلكية لا يدير الا وجهة واحدة منه نحو الشمس ولا يدور حول محوره الا مرة واحدة فى خلال الدورة الكاملة للشمس . وبناء على ذلك لابد أن جانبا من عطارد هو أتون صحراوى والجانب الآخر متجمد ، وكثافته وجاذبيته هما من القلة بحيث ان كل آثار للهواء فيه لابد أن تكون قد تسللت ، واذا كان قد بقى فيه أى هواء فلابد أن يكون فىشكل رياح هوجاء تجتاح هذا الكوكب من جانب الى آخر . أما كوكب الزهرة فهو لغز من الألغاز به بخار سميك يحل محل الهواء ، وقد ثبت أنه لا يمكن أن يعيش فيه أى كائن حى . وأما المريخ فهو الاستثناء الوحيد ، وقد تقوم فيه حياة كحياتنا سواء فى بدايتها أو تكون على شفا الانتهاء ، ولكن الحياة فى المريخ لابد أن تعتمد على غازات أخرى غير الأكسجين ، وعلى الخصوص الهيدروجين . اذ يبدو أن هذين قد أفلتا منه ولا يمكن أن توجد مياه فى المريخ ، ومعدل درجة الحرارة فيه أقل كثيرا من أن تسمح بنمو النبات كما نعرفه ... وتدور الكرة الأرضية حول محورها مرة فى كل أربع وعشرين ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل فى الساعة . والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط فى الساعة . ولم لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هما الآن عشر مرات ، وفى هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا فى كل نهار أو فى الليل قد يتجمد كل نبات فى الأرض . ان الشمس التى هى مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة مسطحها اثنى عشر ألف درجة (فارنهيت) وكرتنا الأرضية بعيدة عنها الى حد يكفى لأن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء الكافى لا بأكثر منه ، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب وكان تغيرها فى خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار

الحياة كما عرفناها ، ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة فى سنة واحدة لمات كل نبت ومات معه الانسان حرقا أو تجمدا . والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلا فى الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلا ستة أميال أو أربعين ميلا فى الثانية لكان بعدنا عن الشمس أو قربنا منها بحيث يمتنع معه نوع حياتنا ... الخ »[1] .

ثم عرض العلامة كريسى لمشاهدات أخرى مستمدة من سائر العلوم الطبيعية يتعسر تفسيرها بمحض المصادفة غير المقصودة وتوحى الى الذهن صدق الايمان بالخلق والتدبير ، وأولها فى علم الحياة تلك الجرثومة الحية التى تنبعث بقوة لا وزن لها ولا كثافة ولا امتداد فتغالب الطبيعة وتشق الصخر وتفرض على العناصر أن تنحل لتعيد تركيبها وتحول الماء والحمض الكربونى الى ماء وخشب وتجعل الخلية الحية «البروتبلاسمية» وهى أشبه بنطفة من ضباب قادرة على بث الحياة فى كل جسم يتقبلها ، وهى بذلك ذات قدرة أكبر من قدرة النبات والحيوان لم تخلقها الطبيعة لأن قدرتها هذه لا تنبت من غيرها ، ولم يكن فى وسع الصخر الذى صهرته النار ولا الماء الذى لا ملح فيه أن يهيىء لها أسبابها فما الذى هيأ لها هذه الأسباب .

ويضرب الأستاذ أمثلة من علم الحيوان لا تفسرها المصادفة ولا تكفى كلمة الغريزة لتفسيرها لأنها ليست أكثر من كلمة ترمز الى الصورة الواقعة ، ومن ذلك غريزة سمك السلمون الذى يعيش فى البحر زمنا

---

(١) من الترجمة العربية التى سميت باسم (العلم يدعو الى الايمان) للأستاذ محمود صالح الفلكى عن الكتاب الانجليزى المسمى :
Man does not stand alone

ثم يرجع الى مكانه من النهر الذى خرج منه وينفلت من كل جدول من الماء ينقل اليه غير الجدول الذى ولد فيه ، ومثله ثعبان الماء الذى يخرج من الأنهار عند نضجه ويتجه الى البحر المحيط عند جزائر معلومة يضع ذريته فى شواطئها ثم يموت فتعود هذه الذرية الى مواضع الماء العذب التى نزح منها آباؤها ، ولم يحدث قط أن ثعبانا منها يصاد فى أوربة اذا كان موطنه الأول فى الأمواه الأمريكية أو يصاد فى أمريكا اذا كان موطنه الأول فى أمواه القارة الأوربية .

ويذكر الأستاذ من تلك المشاهدات عوامل الوراثة فى الناسلات والصبغيات ، فان هذه الناسلات والصبغيات التى يتولد منها نوع الانسان كله توضع فى جوزة صغيرة ومنها تنبت جميع الخصائص الموزعة فى الذكور والاناث من جميع بنى الانسان ، فكيف تكمن عوامل الوراثة كلها فى ذلك الحيز الصغير لتحفظ لكل فرد من الناس أخفى ما استدق من صفاته ووظائف حياته وتركيب أعضائه وخلاياه على ما فيها من ودائع لا يدركها الاحصاء ؟

وقد عرض المؤلف لغير ذلك من الأمثلة العلمية التى يفسرها المنكرون بكلمة لا معنى لها كالغريزة أو المصادفة ويفضل عليها المؤمنون تفسير القصد والحكمة فى تدبير أحوال الوجود ، ويطلبون ممن يرفض هذا التفسير دليلا على رفضه أقوى من الدليل على قبوله ، فلا يسمع منهم دليل .

ولا يخفى أن آراء العلماء والفلاسفة انما هى سند للايمان الدينى يعززه ولا يخلقه ما لم يكن له قرار فى بديهة الانسان . فهذه البديهة تسعى سعيها وتتلمس طريقها فى هذا العصر كما تلمسته فيما غبر من عصور التاريخ ، وستعمل ما تستطيعه وتتزود من العلم والفلسفة بما

يصلح لها من زاد تسيغه ، ولم تعقم بديهة التدين ولا يبدو أن العالم اليوم أقل ايمانا مما كان فى زمن من الأزمنة الخالية ، ولا أن النفوس تطمئن فى زماننا الى شكوك التعطيل التى كانت تقلقها وتحيرها قبل عصر العلم الحديث ، وانما موضع النظـر أن المرتابين من الأقدمين كانوا يهجرون دينا ليدخلوا فى دين يتلوه ، وكانوا يرتابون وينتظرون النبوءات لجلاء شكوكهم واستلهام عقائدهم . فماذا ينتظر المرتابون فى عصر العلم الحديث ؟ هل ينتظرون نبوءة جديدة تأتيهم بدين جديد ؟

قد يكون فى المرتابين من أبناء العصر من تخامره هذه الفكرة ، فهو فى مرد أمره سواء ومن يبحث عن عقيدته على هدى بصيرته وعقله . لأن المهم فى مشكلته أن يشعر بالحاجة الى العقيدة وأن يعلم أنهـا معرفة شريفة لا يمنعها العلم الصحيح ولا يعارضها التفكير السليم . ومن صدقت طويته على هذه النية فهو قريب من معتقده الذى يهتدى اليه ببديهته وتفكيره ، وليس أقرب من الملتقى بين العقائد الالهية اذا خلصت الى جوهرها وصفيت من أخلاط الوثنية وقشور التقاليد .

ولا ننسى عمل « الشخصية الانسانية » فى الهداية الروحية . فان العقيدة تظل معنى من المعانى يحوم عليه الذهن كما يحوم على حقائق الرياضة والحكمة ما لم تتمثل فى « شخصية » محبوبة موقرة تنقلها الى الحياة بما تبعثه من الثقة وتوحيه من القداسة التى تقرب السماء من الأرض وتعقد الصلة بين الحياة الأبدية التى لا حدود لها وبين هـذا العالم المحدود .

كذلك كانت رسالة الأنبياء ، وكذلك تكون الرسالة من الهـداة المصلحين الذين يترسمون آثار الأنبياء فى دعواتهم الى الخير والكمال . وسيأتى اليوم القـريب الذى يكون فيه العلم معـوانا ميسرا لذوى

الرسالات من الدعاة المصلحين : انه يغنيهم عن خوارق العادات التى تطلبها الأولون ردحا طويلا من الدهر ليستيقنوا من عالم الغيب ويلمسوا دلائل القدرة التى لم يلمسوها فى عالم الشهادة . فمن هذا العلم يتعلم الانسان الحديث ان العادات كلها خوارق ، وان المحسوسات جميعا مغروسة فى الغيب المحجوب الذى لا تدركه الأبصار ولا العقول ، وقد تكشف لنا الفترة الباقية من هذا القرن أن المستقبل أصلح للدين من الماضى السحيق الذى ظن أوجست كونت أنه أوان الدين وظن أن الدين ثمرة من ثمرات جهله وضعفه وأنها قد انتهت بانتهائه ، فنحن نرى من الآن أن التدين لا ينتهى عند ابتداء التعقل والدراية ، بل أوضح من ذلك أمامنا أن المعرفة تبلغ بالعقل الانسانى غاية مداه فتطرق له أبواب الايمــان .

٦ — العــــوالم الأخرى

كان العلماء فى أول هذا القرن يشكون فى امكان الطيران بجســـم أثقل من الهواء ، ومضت سنوات على منتصف القرن والطيارة — من كل وزن — تسبق الصوت ولا تكتفى بما وصلت اليه .

وبعد أن كان السؤال ، هل نرتفع فى جو الأرض بجسم أثقل من هوائها ، أصبح السؤال على ألسنة العلماء والمستطلعين ، هل نصـــل بالطائرة الى أجواء السماء ؟ وهل نصعد بها الى جو القمر وأجـــواء السيارات الشمسية من ورائه ؟ وهل تقلنا الطائرة يوما ما الى ما وراء شمسنا وسياراتنا فى أجواز الفضاء ؟

ان العلماء والمخترعين يخافون كلمة المستحيل بعد ما ثبت من امكان الأمور الكثيرة التى جزموا باستحالتها ثم تحققت بعد ذلك بقليل من السنوات ، ويلوح من جملة الآراء والظنون أن المتنبئين يفضلون التعجل فى الجزم بالامكان على التعجل فى الجزم بالاستحالة ، وتكاد كلمـــة « لا مستحيل » أن تعود الى أفواه قادة العلم والاختراع بعد أن لهج بها قادة الحرب والحكم على مذهب نابليون الكبير ، فان خيف اليوم شىء فى هذه النبوءات فانما الخوف من التورط فى الأمل ، حذرا من كلمة « المستحيل » التى أخلفت الظنون غير مرة فى بضع سنوات .

والأمل الغالب فى هذه المرحلة من مراحل فن الطيران ان الصعود الى الكواكب ممكن ولكنه لا يزال محفوفا بكثير من الصعوبات ، وان الصعوبات فى هذه المرة من جانب الطائرين لا من جانب الآلات الطائرة، فليس من العسير اتقان الآلة التى تصعد الى الأجواء العلوية بين كواكب

السماء ، ولكن العسير أن نضمن حياة الانسان فى جو غير جو الأرض وعلى جرم غير جرمها وبيئة من الأحوال الطبيعية غير بيئتها ، وأن نزود البنية الانسانية بالقوة التى تحتمل أعراض التغير الطارىء عليها ، اذا تيسر للمخترعين أن يجهزوا الطائرة بما يعوضها عن ضرورات الحياة فى الأرض الى حين .

والمشكلة الحاضرة فى أمر الطيران هى مشكلة طب الفضاء أو مشكلة « الطاقة الانسانية » فى البيئات المجهولة من الآفاق العلوية ، ومنها ما يتعذر الاحتياط له ولا يدرى أحد كيف يكون الاحتياط له ، وهو مجهـول .

فمشكلة الطائرة التى تحمل ركابها الى الآفاق العليا لا تعد الآن من الصعوبات الأساسية أمام المخترعين ، سواء سارت بالدفعات المتعددة كما تسير الصواريخ ، أو سارت بالمحركات المستمرة كما تسير الطيارات المعهودة ، أو سارت بالقوتين مجتمعتين واستخدمت فى جميع الحالات أنواع الوقود ومنه الوقود المستمد من الطاقة الذرية . لأن النظريات العلمية التى تطبق فى هذه الحالات جميعا معروفة مقررة ، ووسائل تنفيذها قابلة للتحسين ، مع استمرار التجربة والمراجعة العلمية ، أما الصعوبات الحقيقية فليست بالهينة ولا بالمفهومة [illegible] [illegible] منها فى الوقت الحاضر صعوبة الجو [illegible] والأشعة الكونية وأنواع الأشعة المختلفة ، ولقد [illegible]

فالجو الأرضى ينتهى بعد مئات من الأميال فوق سطح الكرة الأرضية ، فاذا [illegible] الطيارة [illegible]

الغازات التى فى جسمه وانفجرت الأوعية والشرايين . وليس فى السيارات الشمسية سيارة واحدة تشبه الأرض فى أحوالها الجوية . فمنها ما ليس له جو على الاطلاق ، ومنها ما له جو كثيف خانق لا يسهل التنفس فيه ، ومنها ما يتجه الى الشمس على الدوام بصفحة واحدة ، مع اختلاف كبير فى درجات الحرارة واختلاف أكبر منه فى درجات الرطوبة حيث يوجد الماء ، وهو معدوم فى أكثر السيارات ، ولا يسمع الكلام — بالبداهة — حيث ينقطع جو الهواء .

وصعوبة الجاذبية مرتبطة بحجم الكوكب الذى يهبط عليه الانسان. فاذا كان حجم الكوكب كبيرا اشتدت الجاذبية وازداد ثقل الجسم وتعذر تحريك الأعضاء وامتنعت كل حركة سهلة على الكرة الأرضية . واذا صغر حجم الكوكب اختل التوازن فى جسم المركب على حسب الجاذبية الأرضية ويزداد الاختلال عنفا حيث ينقطع جو الهواء .

وقد يبدو أن صعوبة الأشعة الكونية وأنواع الأشعة المختلفة أهون من صعوبة الجو والجاذبية ، ولكن بعض العلماء يخشى أن تكون هذه أصعب الصعوبات فى رحلة الفضاء وراء الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية ، لأن هذا الغلاف عازل منيع يحمى الأحياء من تأثيرات تلك الأشعة وتأثيرات الشحنة الكهربائية أو المغناطيسية التى تكمن فى بعضها . فاذا جاوزت الطائرة غلاف الأرض فان جدرانها المعدنية لا تمنع ركابها أن يصابوا بأضرارها ، لأنها تنفذ فى الرصاص طبقة بعد طبقة ، فلا يؤمن أثرها فى الأنسجة الحية اذا نفذت اليها ، مع كثرتها وتتابع أمواجها أو ذراتها فى كل خطوة .

وربما احتيل على الأشعة بحيلة من حيل الوقاية المانعة اذا نجح العلماء فى تحديد خصائصها واهتدوا الى سبل الوقاية الصحية منها ،

ولكن الخطر الذى لا يسهل اتقاؤه هو الخطر الذى لا يعرف موضعه ولا تعرف قوته ولا تعرف الساعة التى يطرأ فيها ، ونعنى به خطـر الشهب والنيازك والمذنبات . فانها تتفرق فى أنحاء الفضاء وتندفع على غير انتظار وتصدم الطائرة تارة بجسم صغير وتارة بجسم كبير ، وقوتها تختلف على حسب الحالتين وعلى حسب المادة التى تتكون منها ، وقد تكون أصلب من جدار الطائرة وأسرع من الطائرة وأشد اندفاعا وخطرا فى حالة الاصطدام .

تلك بعض المصاعب التى يواجهها الباحثون فى طب الفضاء ، ولا يقال الآن انه أفلح فى تحقيقها وحصر أضرارها . فأما التغلب عليها وتدبير علاجها فلا يدعيه أحد من ثقات هذا العلم ، وهـم فى الوقت الحاضر جد قليلين .

نعم ان طب الفضاء قد استفاد معلومات كثيرة من تجارب الصواريخ التى تحمل الحيوانات الى مسافة بعيدة من الجو . الا أننا نذكر « أولا » ان الصواريخ لا تتجاوز نطاق الجاذبية الأرضية ، ونذكر « ثانيا » أن جو الصاروخ شبيه من جميع الوجوه بالجو الذى نعيش فيه على سطح الأرض ، ونذكر « ثالثا » ان الصاروخ يصعد ويهبط فى وقت قصير جدا بالقياس الى الرحلة بين الكواكب ، ونذكر أخيرا أن الحيوانات لا تتأثر بالعوامل النفسية والفكرية كما يتأثر بها الانسان .

ومما يبحث عنه علماء طب الفضاء حالة الجراثيم أو المكروبات فى الآفاق العليا من جو الكرة الأرضية ، فهل تعيش الجراثيم اذا وصلت الى تلك الآفاق ؟ وهل تفعل فعلها المعهود فى الأجسام الحية والأجسام الميتة . لهذا قيل ان علماء طب الفراغ كانوا يترقبون فرصة نادرة بالكشف على جثة الكلبة التى قيل انها صعدت الى الجو على بعض الأقمـار

الصناعية ، لأنهم ترقبوا أن يعرفوا منها كيف يكون سريان الفساد فى جسم الحيوان بعد مفارقة الحياة على مسافة من سطح الكرة الأرضية ، وأن يعرفوا كيف يدب الفساد من داخل الجسم ومن خارجه بعد توقف عمل الحياة فيه ، وربما ظهر لهم أن وجود الانسان فترة من الوقت فى الآفاق العليا كان للشفاء من بعض الأمراض ، وان هناك مناعة من المكروبات أو عاملا من عوامل المقاومة لها فى طبقة من طبقات الجو الأرضى يصل اليها الانسان أو يستطيع أن يصنع حوله جوا يحاكيها وهو مقيم فى داره أو فى مستشفاه .

وعلى الجملة يقال الآن ان طب الفضاء ماض فى دور المراقبة والجمع والتسجيل ، وان المعلومات المتفرقة التى جمعها تنتظر المراجعة والمقابلة قبل أن ينتظم منها محصول كاف لاقامة القواعد التى تبنى عليها نتائج النظر والتفكير ، ثم يأتى بعد ذلك ما يمكن أن يعمل وما يلزم أن يعمل ، وليس كله من عمل الأطباء ، بل منه ما يتم على أيدى المخترعين والصناع بتوجيه المختصين من علماء الطبيعة والأطباء وقد يحتاج الأمر الى كسوة مزودة بأجهزة للتنفس وأجهزة لموازنة فعل الجاذبية وفعل الضغط على اختلاف الأبعاد والطبقات ، ولابد مع هذا من تكوين جو الطيارة على النحو الذى يناسب جميع ركابها معا ، ويناسب كل راكب منهم على انفراد . لأن كل واحد منهم يستقل بحركات لا يشاركه فيها زملاؤه فى الطيارة ولا يشاركونه فيها — من باب أولى — متى وصلوا الى مكان يهبطون عليه .

فمسألة السفر بين الكواكب ليست اذن بالسهولة التى نتخيلها فى الوقت الحاضر ، وسواء جاءت الصعوبة من تركيب بنية الانسان أو من تركيب الفضاء والأفلاك فالمتفق عليه أنها صعوبة كثيرة العقبات وأن

عقباتها لم تذلل ولا يرى أنها قريبة التذليل ولو تقدم اختراع المكنات وأدوات الانتقال أضعاف ما انتهى اليه حتى الآن .

وقبل أن تستقر هذه المحاولات على نتيجة مقنعة فيما يمكن تذليله من هذه العقبات — يتساءل المطلعون والمتطلعون : ماذا يرجى من وراء تذليلها ؟ وماذا يجد السائح السماوى فى الكواكب العليا اذا وصل اليها ؟ أثمة حياة ؟ أثمة أحياء عاقلة على نجم من تلك النجوم ؟ أثمة عالم آخر ؟ أثمة مخلوقات سماوية ؟

والظاهر من هذه الأسئلة أنها لا تسلم من ايحاء اللفظ ولعب الخيال واسترسال الذهن مع تداعى الخواطر والمشابهات .

فالذين يسألون عن « العالم الآخر » تثب أذهانهم من هذه الكلمة الى « العالم الآخر » الذى يترقبه المؤمنون فى حياة بعد هذه الحياة ، ويخيل اليهم أنه فى آخر الكون لأنه بعيد من الأرض فى آفاق تشبه « الآخرة » فى أعلى السماوات . فما يدريهم ان آخر الكون لا يكون فى هذه الأرض أو لايكون على مقربة منها ؟ ومن أين يكون الابتداء والى أين يصير الانتهاء فى هذا الفضاء ، وكله فضاء ... ؟

والذين يتكلمون عن الكواكب كأنها السماء يستخدمون العبارات التى استخدمها الأقدمون يوم كانوا يحسبون أن الأرض فى قرار الكون وكل ما طلع من نجم شارق فهو فوقها فى مكان يعلو عليها ...

ولكننا اذا استخلصنا الألفاظ من هذه الايحاءات فالحياة التى نسائل عنها فى الكواكب الأخرى قد تكون دون الحياة فى الأرض كما تكون أعلى وأكمل منها فى تركيبها ، وقد تكون الأرض سماء عليا بالنسبة اليها ومكانا قصيا على مدى شاسع منها لما يفصل بين الأرض وبينها ، وقد تكون الأرض أصلح منها للحياة ، منفردة بشروطها التى تلائمها .

وليس بالقليل بين المفكرين وعلماء الطبيعة من يرى هذا الرأى الأخير ويعتقد أن شروط الحياة لم تتوافر فى سيارة من سـيارات المنظومة الشمسية كما توافرت فى سيارتنا التى نعيش عليها ، فاذا تجـاوزوا المنظومة الشمسية الى ما وراءها فغـاية ما يعلمونه عنها ان وجـود المنظومات التى تشابهها فى آفاق الكون الواسعة غير مستحيل ، ولكنه كذلك غير لازم لزوم اليقين .

ومن المفكرين الذين يرجحون انفراد الأرض بشروط الحياة العلامة كريسى موريسون الذى أجملنا رأيه عن حكمة الحياة فى الكلام على الايمان ، ويوافقه على هذا الرأى نخبة من المفكرين وعلماء الطبيعة متدينين وغير متدينين . ونكتفى بسرد أمثلة من الخصائص التى تلائم ظهور الحياة ولم يثبت توافرها على كوكب آخر . فهى كما لخصناها فى كتاب عقائد المفكرين عن روبرت كلارك : « وجـود الماء الغزير وانحلال الملح الصالح فيه دون الأملاح السامة ووجود النبات الذى يمثل الطعام للأحياء على اليابسة ووجود الكربون وأكسيده الثانى على حالة لا يمحوها الجو المحيط بالكوكب ، وقيام هذا الجو على حالة من الكثافة والانجذاب الى الكوكب بحيث لا يكظم ما تحته ولا يرسله شعاعا فى الفضاء ، وليس يتحقق ذلك اذا كان الكوكب عظيما كالمشترى وزحل . فان الكربون فى هذه الحالة يوجد على شكل غاز الميثان Methane فلا يصلح مصدرا للكربون الذى يلائم المادة الحية ، وليس يتحقق كذلك اذا كان الكوكب صـغيرا كعطارد والقمـر ، فان ثانى أكسيد الكربون لا يوجد فى هذه الحالة . وقد ينعدم الجو على الاطلاق »(١) .

وينبغى أن تبدأ الملاءمة للحيـاة من الأدوار الأولى حيث تتكون

(١) The Universe, Plan or Accident by Robert Clark.

الخلية التى تدخل فى بنية الأحياء العليا ، أو كما جاء فى كتاب سيرة الأرض لمؤلفه جورج جامو Jamow اذ يقول : « من النقط الهامة التى ينبغى أن تدخل فى الحساب عند كل بحث فى طبيعة الحياة والنبات أن الخلية الأولى تتألف مما يسمى بالمحلول الغروى Colloidal Solution أى من مواد عضوية فى الماء . وهذه المحلولات الغروية — عضوية أو غير عضوية — مستحلب دقيق جدا من ذريرات مشحونة بالكهرباء تتماسك على بعد بفعل تلك الشحنة وتبقى فى الماء طويلا . لأن الماء الصرف موصل ردىء . فاذا أخذنا محلولا غرويا من الذهب — مثلا — وأضفنا اليه بعض الملح حتى تزيد قابلية الماء للتوصيل فقدت الذريرات شحنتها وأسرعت الى التلاصق والانضمام ... ويمكننا أن نحدث هذا التلاصق أيضا بضم محلولين كل منهما له شحنة مضادة لشحنة الآخر . أما المحلول الغروى من المواد العضوية فمن خاصته أن خلايا الكربون المركب على ألفة كيماوية مع الماء ، وان تتيجة قيامه فى الماء على الأبعاد المطلوبة تحول دون فقدان الشحنة الكهربية »[1] .

والاستدراك المعقول الذى يرد على الذهن كلما قيل ان الكرة الأرضية انفردت بالحياة ان هذه الكرة بين النجوم والكواكب أقل من ذرة رمل فى صحاراها الشاسعة ، فكيف تنفرد وحدها بالشروط التى هيأتها لظهور الحياة فيها ؟ ألا يجوز أن تتكرر هذه الشروط فى نجم من ملايين النجوم التى نراها بالعين أو بآلات الرصد أو لا نراها على الاطلاق ؟ ألا يجوز أن توجد الحياة بغير شروطها الأرضية ؟ ألا يجوز أن تكون للحياة صور لا نتصورها فى كوكبنا الصغير ولا تتوقف على الأحوال التى تتخيلها لكل حياة ؟

(١) Biography of the Earth. By George Jamow

بلى . ذلك جائز . ولا يمتنع فى العقل أن تتقبل الحياة تركيبا آخر غير تركيبها الذى عهدناه فى كوكبنا الصغير ، وقد قيل كثيرا ان عنصر السليكون يمكن أن يحل محل الكربون فى الكائنات الحية ، وأن عملية الفلورة Fluorination قد تعمل على الأكسدة فى توليـــد الطاقة (١) . وهو رأى لم يجمع عليه المختصون ولا يزال منهم من يستبعد تكون الحيوان الكبير من هذا التركيب . ولكن هذا الفرض يفتح لنـــا بابا واسعا من أبواب التأمل فى شروط نشأة الحياة . فليس المهم أن تتوافر الشروط المادية التى تتقبل تركيب الأجسام الحية ، لأن عنصر السليكون موجود على الأرض كما يوجد عنصر الكربون ، ولم يحدث قط أن عنصر السليكون تولدت منه الطاقة الحية بعملية الفلورة ولو فى الحيوانات الصغيرة أو الخلايا البدائية . واذا كان تشابه العناصر من حيث قبول الحياة لا يؤدى الى تكرار ظهورها فى الكوكب الواحــد فليس من الضرورى عقلا أن يؤدى تشابه الشروط المادية فى الكواكب الكثيرة الى تكرار ظهور الحياة على صورة أخرى .

ومع هذا يبقى الباب مفتوحا للظن ولما هو أكبر من الظن العارض اذا عززته مسوغات العلم وقال به أناس من المتخصصين للتحليل الكيمى وتركيب الضوء ورصد الأجواء بالخبرة المستفادة من ذلك التحليـــل والتركيب ، ومن أصحاب التخصص فى هذه الدراسات أناس يحتملون وجود الأحياء فى أجسام من العناصر المادية ولا يستبعدون وجودها فى غير هذه الأجسام ، وآخر ما انتهى الينا من هذه الآراء خبر علمى لم نطلع على تفاصيله يقول كاتبه « ان الآراء التى كانت من قبل وقفا على ملحقات الصحف أيام الآحاد قد أبداها فى الأسبوع الماضى الدكتور

---

(١) الدنياوات جاراتنا بقلم فيرسوف. Our Neighbour Worlds by Firsoff.

ملفين كلفن Melvin Calvin العالم الكيمى المشهور من جامعة كليفورنيا المختص بأرصاد تركيب الضوء ، ويؤيد الدكتور كلفن قوله بالمنطق الهادىء تدعمه ثروة وافرة من المعلومات تجمعت من تجارب المعامل الكيمية ومنها معمله ، ويقدر أستاذ جامعة هارفارد الدكتور هارلو شابلى Harlow Shapley أن فى الكون المعروف نحو مائة مليون سيار شبيه بالكرة الأرضية فى أحواله لا يقل عمرها عن خمسة بلايين سنة وعليها جو من الأكسجين يتخلله الكربون وتصل بينه وبين أحد النجوم التى تصدر منها الطاقة مسافة شبيهة . ويبتدىء كلفن من حيث انتهى شابلى فيقول ان هناك — فيما عدا السيارات الكربونية — نظما أخرى قائمة على العناصر الأخرى كالسليكون والنيتروجين وقد تقوم على غير هذه العناصر المادية Anti - matter ... فاذا اعتبرنا سيارات الكربون فظهور الانسان على الأرض لم يستغرق غير وقت قصير بالقياس الى أعمار تلك السيارات التى تقدر بخمسة بلايين من السنين ، لأنه يبلغ زهاء مليون سنة ، ومن الواضح اذن أننا يحق لنا أن نقدر ظهور الخلايا الحية وما قبل الخلايا الحية فى تلك السيارات ، كما يحق لنا أن نقدر ظهور الحياة عليها فيما بعد الطور الانسانى ، فاذا ذكرنا أن كيانات شتى تعمل على ملايين من السيارات رأينا أن الحياة ظاهرة كونية نافذة وأن حياة الانسان احدى عواملها النافذة »[1] .

نعم . هذا رأى سائغ مشروع ، يحق لنا أن نراه ، ولكن يحق لنا معه أن نشعر بأننا نبتعد ونقترب من مواطن الحياة الكونية فى وقت واحد ، لأننا نستغرب أن توجد الحياة فى سيارات هذا الفضاء وتنقطع الصلة

---

(١) أخبار العلم فى العدد الصادر يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ من مجلة نيوزويك Newsweek

بين أبنائها ، فلا يحاول بعضهم أن يدل على مكانه ولا يفلح فى الكشف عن مكان غيره . فهل تراهم يجهلون مواطن اخوانهم وشركائهم فى هذا الوجود الذى ينفردون فيه بالوعى والشعور على مابينهم من تباعد الآفاق ؟ أو هم يعلمون ولا يملكون وسائل التفاهم والاتصال ؟

يحق لنا كلما نظرنا الى تلك الآفاق نظرة الأستاذ كلفن ومن يرون رأيه أن نقدر وجود الأحياء فى طائفة من سياراتها قبل وجودهم على سيارتنا الأرضية ، ولم لا ؟ لم يمتنع وجود الحياة فى زمان قبل زمانها المحدود على هذه الكرة ؟ لم توجد الحياة حيثما وجدت فى زمان واحد ولا يكون بعضها قد وجد قبل عمرها الأرضى بمئات الأعمار المحسوبة بملايين السنين ؟ ولم لا تكون لها قدرة على الاتصال بنا أكبر من قدرتنا نحن على الاتصال بها اذا كانت قد سبقتنا الى الوعى والمعرفة وأدركت من العلم ما لم ندركه فى زماننا ؟ واذا كانت ندا لنا فى عمرها فما بال هذه الحياة لا تنشأ حيث نشأت الا فى آونة واحدة مع اختلاف المنشأ فى السيارات والكواكب والنجوم وهى وراء حدود الاحصاء ؟

كلما أنعمنا النظر فى أمر هذه الحياة الكونية رأينا أنها تبتعد وتقترب وأنها تنجلى من هنا لتغمض من هناك . فمن الشطط فى الأمل أن تتخيل أن البقية الباقية من القرن العشرين حسبنا من أمد لاعداد معدات السفر الى مواطنينا الكونيين قبل أن نعرفهم ويعرفونا وقبل أن نتقارب فيما بيننا بلغة التفاهم والمراسلة ، ان كانت هناك لغة كونية لجميع الأحياء . وأدنى من ذلك الى الأمل المشروع أن نختم القرن العشرين وقد وصلنا الى الخبر اليقين عن مواطن الحياة فى هذا العالم وعن شروط الحياة أو الحيوات المتعددة بين أرجائه الفساح ... بل نكاد نستبعد هذا الأمل ونطمح مع ذلك الى أمـل كبير لأنه يزيدنا علما بحياتنـا على وجـه

الأرض ودراية بالمـادة وما تحتويه من أجسـام الأحيـاء .

فمن الآمال التى نكاد نلمسها أن تترقى أدوات الرصد حسا ومعنى في بقية القرن العشرين فنهتدى بها الى أسرار الضياء والاشعاع وعلاقة الذرات المبثوثة فى الفضـاء بظواهر الكهرباء والمغناطيسية وحقيقـة الجاذبية الأرضية وغير الأرضية ، ومن الجائز جدا أن ننفذ على هدى تلك الأرصاد الى ذلك الينبوع الجامع لظواهر الطاقة والقوة ، وان نحول بعضها الى بعض بوسائل الصناعة فى غير كلفة مجهدة تربى على فوائدها وثمراتها . وان اليوم الذى نستطيع فيه أن نحول الجاذبية الى مغناطيسية وكهرباء ليضع أيدينا على ينبوع من القوة لا ينفد ولا تعرف له نهاية ، وقد تغنينا هذه القوة عن استخراج الطاقة من الفحم أو الحجارة أو النفط أو تيارات الماء أو كوامن الذرات ، فان قوة الجذب بين الأرض والسماء شائعة فى كل مكان ، ولعلها هى مصدر الطاقة التى تتولد فى الأرض وما عليها من العناصر المعروفة ومما هو صالح لتوليدها من القوى الكامنة التى نجهلها الآن .

ولعل العلم بسر « الجاذبية » بين الأكوان يهيىء لنا الصلة التى تربطنا بعوالم الحياة المجهولة فى سـياراتها ... فنرتبط بها على وعى وشعور كما نرتبط بها الآن بمادة الأجسام .

٧ — عالمنـــــــا

ومن الخير ألا تتعجل هذه الكرة الأرضية لقاء العوالم الأخرى قبل أن تتلاقى هى عالما واحدا ، يقطنه نوع واحد : نوع انسانى واحد فى شرعة الرأى والخلق ، لا فى شرعة علماء الأجناس عند تقسيم فصائل الحيوان ..

وهى اليوم عالم متضامن فى حكم الواقع ما فى ذلك مراء . ولكن كم بين العالم المتضامن فى الخير والشر وبين العالم المتعاون فى الخير والشر من مسافة واختلاف ؟

هنا مجال واسع لكثير من التشاؤم ، ومجال أوسع منه لكثير من المتشائمين . ففى الدنيا مشكلات لا تحل ومخاوف لا تغلب وعداوات لا تهدأ وغوامض من شئون العيش وشئون الرأى لا تنكشف اليوم على جلاء ، وعلى كل لسان يتحدث بهذه الشئون سؤال لا يسمع له جواب شاف : هل تقع الحرب المحذورة المرتقبة ؟ وهل تبقى من بعدها بقية من نوع الانسان أو بقية من الحضارة الانسانية ؟

ويلوح للناظرين الى الغد أن السنين الأربعين التى بقيت من القرن العشرين أقصر من أن ترفع الستار عن غوامض هذه الشئون . وانها فى الحق لكذلك ، فربما انتهت والعالم الانسانى يزداد تضامنا وينتقل الى التعاون الوثيق فى علاقاته وقضاياه ، وربما انتهت وهو مشتبك فى نضال يقطع العرى بين أوصال هذا التضامن الواقع فلا يعود الى مجراه الا بعد حين ، ان قدر له أن يعود .

لا ندرى على التحقيق أى هاتين العاقبتين كائن فى أوائل القرن

الحادى والعشرين ، فهل ترانا لا ندرى أى العوامل التى تعمل لكلتا العاقبتين أرجح وأقوى فى أيامنا هذه ، وأيها يرجى أن يزداد رجحانا وقوة على مدى الأيام ؟

اذا كان هذا هو مدار السؤال فمن الافراط فى الشك والحذر أن نحجم عن الموازنة بين عوامل الأمل وعوامل القنوط ، لأن هذه العوامل قابلة للموازنة والمقارنة ، وظاهرة فى طبيعتها التى تمضى مع التيار المأمول أو تدبر بذلك التيار وتصده الى الوراء . ومن هذه الموازنة بين العوامل المقبلة والعوامل المدبرة لا يستطيع المتشائم أن يوقن بأنه على صواب ، وقد يستطيع المتفائل أن يطمئن الى مآل الصراع بين دواعى التضامن ودواعى التصدع والانحلال .

فمن المشكلات التى تروعنا اليوم مشكلات لم تكن لتظهر ولا لتنذر بالخطر الداهم لو لم يكن بين الأمم رباط من التضامن فى المصالح والعلاقات يضطرها الى المبالاة بالقريب والبعيد من مشكلات الأقوياء والضعفاء .

مشكلة فى افريقية الجنوبية ، أو مشكلة فى الشرق الأوسط ، أو مشكلة فى زاوية من زوايا القارة الأسيوية ، وكلها تحدث اليوم فتبعث القلق والتربص والاستعداد فى محافل الأمم بعد أيام .

وقديما كانت المشكلة فى موقع من هذه المواقع تحدث وتنقضى ولا يعلم بها أحد ولا ينبعث منها القلق اذا علم بها بعيد أو قريب .

فاذا أقمنا الموازنة بين عوامل التفاؤل وعوامل التشاؤم فى هذه المشكلات حق لنا أن نتفاءل بها ولا نتشاءم منها ، لأنها من علامات التضامن الواقع الذى يوحد بين الاخطار ويضطر الأمم الى توحيد العزائم لدفع تلك الأخطار واتقاء وقوعها قبل التفاقم والاستفحال .

ان كفة الخير فى هذه المشكلات أرجح من كفة الشر ، وانها لتحسب من البشائر بتذليل المصاعب ولا تحسب من العقبات التى لاتنقاد للتذليل.

على أن العالم الانسانى فيه كثير من المشكلات المنذرة بالخطر غير تلك المشكلات .

فيه مشكلات النزاع بين الأوطان ، وفيه مشكلات النزاع بين المشرق والمغرب ، وفيه مشكلات النزاع بين الميسورين والمحرومين ، وكلها من المشكلات التى تتشعب بين الأمم وتتغلغل بين طوائف الأمة الواحدة ، وتأبى للعالم فى عصرنا هذا أن يتعاون ويتوحد ، وقد تأبى عليه أحيانا أن يرغب فى التعاون والاتحاد .

فأين هى عوامل الأمل وعوامل القنوط فى مشتبك هذه الأخطار ؟

لا ندرى ما مصيرها ؟ فهل ترانا لا ندرى عند الموازنة بينها وبين عوامل التضامن العالمى أيها أقوى وأيها يمضى فى اتجاه الزمن ، وأيها يحسب من بقايا الأمس التى تسرع أو تبطىء الى الزوال .

ان التضامن العالمى أقوى منها جميعا وأحدث منها فى أسبابه على الأقل ، وأدنى — من ثم — أن يكون له الغد المرجو ولا يلحق ببقايا الأمس التى أخذت فى الزوال .

ان مشكلة النزاع بين الأوطان لمن أخطر المشكلات على تضامن العالم فيما مضى وفى العهد الذى نحن فيه .

ولكنه خطر يتغير ويسرع فى التغير ، ويأتى التغير فيه من جانب الأقوياء الطامعين ومن جانب الضعفاء المطموع فيهم ، ومن جانب المحايدين الذين تقف بهم علاقات السياسة أحيانا فى وسط الطريق لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء .

فالدولة القوية التى كانت قبل مائة عام تطمع فى وطن ضعيف لم

يكن يمنعها مانع أن تنقض عليه وأن تقهره وتضطره الى الخضــوع لحكمها ما دامت تريد البقاء فيه ، ولم يكن من العسير عليها اذا تنافس الأقوياء من نظائرها أن تتفاهم على التقاسم وتبادل السكوت والاغضاء .

أما اليوم فالدولة القوية التى تطمع هذا الطمع تجد الموانع من داخلها ومما حولها ومن نظرائها ومن الضعيف ومن يشبهه فى حالته من غير الأقوياء .

يمنعها فى داخلها فريق من أبنائها يزهد فى العــدوان على الوطن الضعيف لأنه لا يستفيد منه ، ان لم يزهد فيه ايمانا بالحق والانصاف .

ويمنعها مما حولها ومن نظرائها انهم يخسرون باحتكارها الحكم فى غير وطنها ولا يتعوضون من هذه الخسارة شيئا تمنحهم اياه وتملك ان تمنعه عنهم بمشيئتها ، وكلما عظمت الدولة وعظمت ثروتها تشعبت مصالحها واشتدت رغبتها فى فتح الأبواب لها ولغيرها ، لأنها تستطيع — ولو نافست ذلك الغير — أن تحقق مصالحها فى البلد المفتوح بما لها من الوفر والقدرة على الصبر والاحتمال وعلى تبادل المنافع بينها وبين مختلف الأمم والجهات ، وربما كان من الأمم التى تحتاج اليها ذلك القوى الطامع فى احتكار السيطرة على هذا الوطن أو ذاك .

* * *

وتأتى قضايا الأوطان فى الصف الأول بين قضايا الخطر على السلام العالمى والوحدة الانسانية ، ومنها قضايا الاستقلال فى الأمم التى تحكمها أمم أجنبية ، وقضايا النزاع بين الأوطان المتنافسة على النفوذ والمرافق المشتركة ، وقضايا النزاع بين الدول القوية التى تختلف فيما بينها على سياسة المحكومين وعلى العلاقات الدولية فى جملتها ، وكلها من ينابيع الخطر التى لا تؤمن غائلتها على علاقات التضامن بين الأمم ومن ثم على الأمل فى اقتراب عهد الوحدة الانسانية .

غير أن هذه القضايا أيضا من أسباب التمهيد التى لا محيد عنها لتحقيق الوحدة الانسانية أو تحقيق التعاون بين أقوياء الأمم وضعفائها وبين المتقدم منها والمتخلف فى الحضارة وأحوال المعيشة . فقيام الأوطان المعترف بها خطوة لازمة قبل خطوة الوحدة العالمية ، اذ كانت الوحدة لا تتأتى بين أوطان مغصوبة وأوطان غاصبة وبين أمم مجردة من الحقوق وأمم تعتدى على تلك الحقوق ولا تعترف بها ولا بالاعتداء عليها . فمن الطبيعى اذا قامت للعالم أسرة واحدة أن تتألف هذه الأسرة من أعضاء تربط بينهم رعاية القرابة والمشاركة فى الحرية والكرامة . وليست قضايا الأوطان الا المقدمة التى لابد منها لتلك النتيجة التى تفضى اليها ، وهى اليوم ينبوع من ينابيع النزاع والخطر ولكنها فى الغد ضمان من ضمانات السلام والتعاون والمشاركة فى الأعباء العالمية ، مثلها فى ذلك مثل الحقوق الشخصية الذى أصبحت فى كل مجتمع من مجتمعات الحضارة ضمانا للنظام والشريعة فى ذلك المجتمع ، بعد أن كان النزاع بين الأشخاص حائلا دون قيام الوحدة فى الجماعة على أساس القومية .

ان قضايا الأوطان هى أيضا من طلائع الوحدة العالمية التى تنطوى على البشارة حين تنطوى على النذير ، وهى اليوم محل اعتراف فى الرأى وان لم تبلغ بعد مبلغ الاعتراف فى الواقع ، اذ كان تقرير المصير مبدأ مسلما فى معاملات الدول ومحافلها المجتمعة ، فلا ينكره أحد من المعارضين له فى سياسته العملية ، بل نرى من الحاكمين الأجانب من يحتال عليه بتوحيد الوطن الحاكم والوطن المحكوم واعتبار الرعايا شركاء للرعاة فى الحقوق الوطنية ووظائف الدولة ، وهى ظاهرة من ظواهر العصر لا تبخس قيمتها العملية فضلا عن قيمتها النظرية ، لأن المضى فى الدعوى المنكرة باجماع الأمم أمر لا تطول المغالطة فيه .

وأخطر من قضـــايا الأوطان على الوحدة العالمية قضـــايا العناصر والسلالات ، لأن الخلاف عليها لم ينحسم بعد فى الرأى ولا فى الواقع ، ولا تزال ذريعة للدعوى باسم من الأسماء تتفاوت فى الصراحة والاستقامة وفى الرياء والالتواء .

على أننا اذا نظرنا الى تاريخ دعوى العناصر والأجناس من ناحيتها النظرية لم نخطىء أن نلمس فيها جنوحا مطردا الى التقارب وابتعادا مطردا عن التشبث بالفواصل المزعومة بين عناصر البشر فى الزمن القديم .

كان علم الأجناس البشرية يتجه فى القرن التاسع عشر الى توسيع المسافة بين أجناس البشر واثبات الفوارق البعيدة بين كل جنس منها وسائر الأجناس الأخرى ، وكان يخلط كثيرا بين فكرة الأمة وفكرة العنصر . وهما شيئان مختلفان ، لأن الأمة على الأرجح رابطة اجتماعية تاريخية فى حين أن العنصر رابطة من روابط الدم والسلالة العصبية ، وقد تتفرق مواقعها فلا تجمعها بقعة واحدة ، وكان للعوامل الدوليـــة والسياسية حكمها فى كل من الاتجاهين ، فكان الاستعمار وحب التسلط هما الباعث الأكبر على توسيع الفوارق بين الأجناس ، وعلى تفضيل جنس منها على سائرها ، تسويغا للسيطرة والاستغلال واقامة الحكم الأجنبى فى البلاد المستعمرة ، أو تسويغا للســـيادة والانتفاع بالمرافق والجهود المسخرة .

كانت الدولة الجرمانية تبحث عن مستعمرات لها فى الشرق الأقصى بعد أن تم تقسيم المستعمرات فى افريقية وآسية . فنادى الساسة فيها بالخطر الأصفر ، وأرادوا به الخطر المتوقع من جانب اليابان والصين اذا انطلق « التنين الأصفر » — كما سموه — فى طريق الحرية والتقدم وترددت صيحة الخطر الأصفر فى كل دولة تبعـــا لموقفها من البـــلاد

الشرقية ، سواء وقفت منها موقف الطامع فى ضم البلاد أو موقف الطامع فى الامتيازات التجارية والاقتصادية .

وشاعت بعد صيحة الخطر الأصفر دعوة التفرقة بين الآريين والساميين واشتدت هذه الدعوة حين أصبحت كلمة الساميين فى أوربة مرادفة لكلمة اليهود ، وأصبح اليهود هم المقصودين بعداوة السلالة السامية ، واقترنت الدعوة الآرية بتقسيم الأوربيين الى شماليين وجنوبيين لادعاء أصحاب هذه الدعوة أن أبناء الشمال فى القارة الأوربية آريون خالصون ، لم يختلطوا بالأجناس الأخرى التى يزعمون أنها دون أبناء الشمال فى الذكاء والأخلاق ، وتجدد الخلاف فى أثناء ذلك على حقوق الزنوج — أو حقوق السود — بين أبناء البلاد التى يختلطون فيها بالأجناس البيضاء . فاعتمدوا — عدا هذه الحقوق — على الفوارق العنصرية وبالغوا فى توسيع هذه الفوارق وراء فوارق اللون والشكل ، كأنها من الفوارق العميقة فى التكوين لا تمحوها المساواة فى الحقوق السياسية ولا يجدى فيها توحيد التربية والتعليم .

كانت هذه العوامل الدولية أهم العوامل التى دعت الى توسيع الفوارق بين الأجناس البشرية فى القرن التاسع عشر ولم تزل شائعة قوية الى منتصف القرن العشرين .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تغير اتجاه الدعوة لأسباب كثيرة ، منها يقظة الشعوب الشرقية ورغبة الدول الكبرى فى كسب مودتها ، ومنها تنافس الدول الكبرى وسعى كل منها فى ابطال حجج الدول المنافسة لها ، ومنها اجتهاد اليهود فى تبرئة أنفسهم من النقائص والعيوب التى تخصهم بين الشعوب السامية ، ومنها تقدم العلم واتساع نطاق البحث بين الأجناس المجهولة وكثرة الأدلة على بطلان بعض الفوارق

واقتراب وجوه الشبه بين الناس من مختلف الألوان والأوطان .

فالباحثون اليوم فى علم الأجناس لا ينفون وجـود الفوارق بين جنس وجنس منها ولا يقولون ان النوع الانسانى كله جنس واحـد لا تمييز فيه بين الصفات الجسدية والعقلية ، ولكنهم يقللون من المبالغة فى أصالة هذه الفوارق ويقولون انها تتغير أحيانا بتغير المعيشة والبيئة وان الصفات المميزة لكل جنس منها قد تنتقل الى الجنس الآخر بالتربية والقدوة وتعود المعيشة والمعاملة فى مثل أحواله وظروفه ، وقد انتقل منها الكثير حتى الآن ، اما لطول الاختلاط بين الأمم ، واما لكثرة التبدل والتطور فى ظروف المعيشة ، واما لوقوع الاختلاف الطبيعى بين أفراد الأمة الواحدة والجنس الواحد كما يحدث فى الأسرة الواحدة فضلا عن البلد والأقليم .

وما من صفة من صفات البنية والتركيب ثبت بعد البحث والمقارنة أنها خاصة مقصورة على جنس واحد لا يتصف بها جنس آخر اذا تعرض لظروفه وملابساته ، فشكل الرأس بين الاستدارة والاسـتطالة كان معدودا من العلامات الفاصلة بين الأجناس ، فظهر من بحوث العالم الأمريكى فرانزبواس Franz Boas أنها علامة تتغير بتغير البيئة ، وأن الأطفال المهاجرين من بلاد أخرى تختلف أشكال جماجمهم ولا تشبه جماجم آبائهم كل الشبه مع تبدل الموطن والمعيشة . وأبناء السويد — كما هو معلوم — معدودون من خلاصـة الأجناس الشـمالية ، أو النوردية — ولكن العالمين ريتزيوس Retzius وفورست Furst سجلا نتيجة الكشف على خمسة وأربعين ألف شاب من المطلوبين للتجنيد فتبين لهما أن الصفات المخصصة للجنس الشمالى الخالص لا تجتمع لأكثر من خمسة آلاف منهم ، وان الذين تجتمع لهم هذه الصفات فى اقليم

من أقاليم الشمال على نحو أربعين فى المائة . وقد أعيد اجراء هذه البحوث بعد ثلاثين سنة وسجلت صفات سبعة وأربعين ألفا من المجندين فتبين أن واحدا وثمانين فى المائة منهم كانوا زرق العيون زرقة خفيفة ، وان ثمانية فى المائة منهم لهم عيون مشوبة اللون وأن خمسة فى المائة منهم لهم عيون بنية . أما لون الشعر فقد كان فى سبعة فى المائة منهم كتانيا ، وفى ثلاثة وستين فى المائة بنيا خفيفا ، وفى خمسة وعشرين فى المائة بنيا مسودا ، وفى ثلاثة فى المائة أحمر أو أدنى الى احمرار . وسجلت العلامة الكبرى — أو العلامة الأولى — من علامات الفوارق بين الأجناس ، وهى شكل الجمجمة ، فظهر أن أصحاب الجماجم المستطيلة لا يزيدون على ثلاثين فى المائة ، وأن ستة وخمسين فى المائة منهم متوسطون بين الاستطالة والاستدارة ، وأن أربعة عشر فى المائة عراض الرؤوس ، وظهر أن لون الشعر ولون العين يقترنان . ولكن لا صلة لهذا اللون أو ذاك بطول القامة وتركيب الدماغ .

هذا غاية ما انتهى اليه صفاء المزايا العنصرية فى بلاد السويد ، وهى أقصى البلاد شمالا وأبعدها عن الاختلاط بأمم الجنوب ، وتسفر الاحصاءات عن نتيجة كهذه النتيجة فى سكان البلاد الجرمانية . ففيها أصحاب العيون الزرق والجماجم المستطيلة والقامات الطوال ، وفيها الملايين ممن يشبهون أهل الجنوب ويسمونهم بالسلالة الألبية ، نسبة الى جبال الألب . وفيها وسط بين هؤلاء وهؤلاء موزعين بين الأقاليم الشرقية والغربية وبين الشمال والجنوب[1] .

واذا تجاوزنا الصفات الجسدية الى صفات العقل والخلق فالواقع

---

(١) من كتاب نماذج بشرية Human Types لمؤلفه رايموند فيرث Firth بتصرف .

الذى لا جدال فيه ان الحضارات العالمية جميعا لم تنشأ فى قطر من أقطار الشمال ، وان أعظم هذه الحضارات قد نشأ فى الجنوب على شواطئ البحر الأبيض المتوسط . وبعضها قد نشأ فى الشرق الأقصى بين الشعوب الصفراء أو فى البلاد البابلية والفارسية والهندية ، وهى متعددة العناصر والأجناس . وقد ظهر من اختلاف العادات والتقاليد أنها لا ترجع فى أساسها الى اختلاف أصيل فى التكوين وأن الناس قد يخجلون من بعض الأمور ولا يتفقون على تلك الأمور فى كل أمة ولا فى كل زمن . ولكن شعور الخجل موجود بينهم جميعا وان كان بعضهم يخجل من شئ وبعضهم يحسبه من المألوفات التى لا ضير فيها . فلا يمكن أن يقال من أجل هذا ان هذه الأمة تعرف الأخلاق وتحترمها وان تلك الأمة تجهلها ولا تكترث لها . فمثل هذا يحدث فى اختلاف الأطعمة على حسب المواقع الجغرافية والمحاصيل الزراعية ، فتعيش جماعة من الناس على لحوم الصيد والماشية وتعيش جماعة أخرى على لحوم الأسماك ويعيش غيرها على النبات وقد يحرم أكل الحيوان ، ويتناول غيرهم جميع هذه الأطعمة حسبما يتيسر منها لديهم ، ولا يقال من أجل ذلك ان هذه الأمة تعرف الجهاز الهضمى وتلك الأمة لا تعرفه ، ولا يقال من أجله ان تكوين المعدات والأجسام فى أساسه مختلف لا يقبل التغير والتطور . وربما حدثت من تنوع مواد الغذاء قابليات جسدية محسوسة الأثر . بل ربما حدث لجماعة من الجماعات المتعددة أن تصاب بالمرض من أكلة تسيغها جماعة أخرى وتنتفع بها ، ثم يقف الأمر عند ذلك ولا يعدوه الى التفرقة بين هذه الجماعات فى أصول التركيب وفى أجهزة الجسم ووظائفه الجوارح والأعضاء ، وعلى الجملة يحق لنا بعد تجارب العلم الحديث فى هذه السنين أن نردد قول شاعرنا أنهم جميعا أسرة واحدة « أبوهم

آدم والأم حواء » مهما يكن تفسير العلم الحديث لمعنى تلك الأبوة وتلك الأمومة . وكل ما ثبت من الفروق — حتى الفروق الوراثية — يعود فى وقت قريب أو بعيد الى أسباب مكتسبة تتغير مع البيئة والزمن وطول الاختلاط بين الأمم والقبائل . فليس للسيادة صفات ثابتة فى جنس دون جنس . ولا فى أمة دون أمة . وقد سادت فى القارة الأوربية أمم من المغول والساميين ، وساد أناس من السود بين أناس من البيض ، ودارت الحضارة دواليك من شرق الى غرب ومن جنوب الى شمال . ومهما تتعدد أجناس الانسان فالنوع الانسانى واحد والخصائص الانسانية عامة مشاعة غير محتكرة ولا مقصورة مدى الزمن على بقعة دون بقعة ولا على سلالة دون سلالة .

ولا ننسى موطن العبرة فى هذا الاتجاه الصالح الذى يتجه اليه علم الأجناس بعد الحرب العالمية الثانية . فان العلم قد تطغى عليه السياسة حقبة تطول أو تقصر ولكنه يتخلص من طغيانها ليجرى فى مجراه .

* * *

هذه آراء علمية من ولائد القرن العشرين ، لم يكن يقابلها فى القرن التاسع عشر غير دعوات انسانية تتمثل فى المناداة بتحرير الأرقاء أو انصاف الشعوب المحكومة من جنس الحاكم المتسلط عليها أو من غير جنسه ، ولم تكن منها دعوة تستند الى البحث فى خصائص الجنس أو تكوين السلالة أو شواهد العلم التى تقارب بين أبناء النوع الانسانى فى الخصائص والتكوين ، وقصاراها من الانصاف — انصاف العاطفة والمروءة — انها كانت تنادى بأن العبيد أكرم من الحيوان فلا يجوز أن يباعوا ويشتروا فى الأسواق كما تباع الماشية العجماء ، ولا يمنع هذا أن يكون المنادى بتفضيل الانسان الأسود على الحيوان مناديا عن يقين

وثقة برسالة الرجل الأبيض وأمانته المنوطة بجنسه دون سائر الأجناس البشرية ، وهى أمانة السيادة على جميع تلك الأجناس .

أما البحث العلمى الذى يسفر عن التسوية فى الأصول والفروع بين أبناء النوع الانسانى فهو — كما تقدم — من ولائد القرن العشرين لم يسبق اليه فيما مضى من القرون ، وهو احدى علامات الزمن ولو قيل انه بلغ ما بلغه فى القرن العشرين لحداثة البحث فى علم الانسان وعلم الأجناس . فان الاهتمام بهذا البحث هو نفسه علامة كبرى من علامات الزمن جاءت فى أوانها على قدر مع سائر البحوث التى تجنح بالأمم طوعا أو كرها الى التضامن والوحدة الانسانية .

وكل علامة من علامات الزمن لها شأنها ولها دلالتها ، ولكننا لا نغلو بها فنجعلها فى قوة الحكم الملزم للناس بالطاعة والاتباع ، فقد يؤمن الناس بالاخوة فى الأسرة — فضلا عن الاخوة فى النوع بأسره — ولا يؤمنون بالمساواة أو بالانصاف . ولكن دلالة الزمن اذا اقترنت بنتائج الواقع كانت هى قوة الحكم الملزم للناس بالطاعة والاتباع . ومن نتائج الواقع فى القرن العشرين أن يخفق دعاة العدوان باسم العصبية العنصرية وأن يتعذر تسخير العصبيات للعصبيات بالقوة أو بالحيلة ، ولا نعرف فى التاريخ قرنا تعذر فيه حكم الجنس للجنس المغاير له كما يتعذر هذا الحكم فى القرن العشرين . وقد جربت دعوة الجنس الآرى للغلبة على غير الآريين وجربت دعوة الجنس الأصفر لسيادة أمة من الأمم على القارة الأسيوية على مبدأ «آسيا للآسيويين» فلم يجد أصحاب هذه التجارب من ثمراتها ما يغريهم بالمعاودة والتكرار ، ولم يظهر لنا من قبل — ولا يظهر لنا الآن — ان اصطدام سلالة بسلالة خطر يجتاح العالم ويشطر بنى الانسان معسكرين أو عدة معسكرات .

كلا . بل يظهر لنا اليوم أن الخطر الذى ينذر باجتياح العالم ويوشك أن يشطره الى معسكرين متناحرين انما هو خطر واسع يطوى الأجناس والطوائف فى برنامج شامل يعده كل من الطرفين المتقابلين لتطبيقه على جميع الشعوب من جميع الأجناس والألوان .

كل على طريقته يبشر بالوحدة العالمية ، وقد ينقسم أبنـاء الوطن الواحد والجنس الواحد فريقين متقابلين ، يريد أحدهما أن يوحد العالم الانسانى على هذه الطريقة ويريد مخالفوه ومناقضوه أن يحققوا هذه الوحدة على الطريقة الأخرى .

هنا أيضا يتراءى لنا أن تيار الوحدة العالمية هو الغالب على كل تيار يعترضه وينثنى به عن مجراه . فلا تناقض فى الوجهة وانما التناقض فى الدفة التى تسير بالسفينة اليها .

ولا يرى حتى الآن أن المعسكرين (وهما — كما هو ظاهر — معسكر الديمقراطية ومعسكر الشيوعية) يتباعدان فى التطبيق ويولى كلاهما الى الطرف الأقصى من دعواه ، بل يرى على خلاف ذلك أن المستقبل كفيل بالتقريب بين الديمقراطية والشيوعية فى مسألة المسائل بين المذهبين وهى مسألة الطبقات ، لأن معسكر الديمقراطية يقل التفاوت فيه بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء وتتوزع الثروات الكبيرة فيه بين أصحاب الحصص والسهوم فلا يتمكن فيها أحد من حصر الثراء فى يديه أو من الاستئثار بنفوذ المال ونفوذ الحكم والجاه ، ويقابل هذا فى المعسكر الشيوعى أن الطبقات تتعدد ولا تتوحد وأن العمال يتفاوتون كما تتفاوت الأعمال ، وأن الاحتكار ينتقل من أيدى الأفراد والشركات الى أيدى الدولة ويوشك أن يثير عليها رعاياها ويضطرها الى النزول عن كثير من السلطان المطلق الذى يمكنها منه احتكار المال والصناعة . وليس هنالك

من تضارب أساسى بين أسلوب المعيشة الذى يؤدى اليه توزع السلطة وتوزع العمل وتوزع الثروة على كلتا الطريقتين : طريقة الديمقراطية وطريقة الشيوعية على وجهتها التى تتجه اليها .

* * *

وغير بعيد — مع الممهدات الكثيرة للتوفيق بين مذاهب الشرق والغرب — أن يقع المحظور قبل بلوغ الأمد المنظور ، فان الخطر لا يطرأ من تباين المذاهب أو البرامج فى جميع الأحوال ، بل كثيرا ما يطرأ من تنازع القائمين عليها والمتولين لتنفيذها ، خوفا على أنظمة الحكم التى تسندهم أو عجزا عن التفاهم بينهم وبين أعدائهم فى الداخل والخارج ، أو صرفا لأنظار الشعوب عن أسباب القلق والشكاية ، وما هى الا خطوة تزل بها القدم فيستعصى على حكمة العالم كله أن يؤمنوا عواقبها قبل فوات أوانها ، وقد حدث ذلك فى التاريخ القريب كما حدث فى التاريخ البعيد فوقعت الحروب لغير ضرورة عامة تستلزمها ولم يكن من الحتم وقوعها لأسبابها العارضة ، فما يحسب أحد من المؤرخين لحوادث الحربين العالميتين يعتقد أن حادثة سيراجيفو أو حادثة دانزج كانتا توجبان الحرب ضربة لازمة لولا سوء التقدير من الحاكمين وولاة الأمور . ومثل هذا قد يحدث غدا فتتبعه الحرب الثالثة وتدفع بالعالم الانسانى الى الهاوية التى لا نجاة له منها كما نجا من الحروب الغابرة ، قبل اختراع القذائف النووية والصواريخ الموجهة وما اليها من أسلحة الفناء والدمار .

ذلك كله غير مستحيل . الا أننا حريون ان نذكر أن ضوابط السلم فى العالم قد بلغت فى عصرنا هذا ما لم تبلغه قط فى عصور التاريخ القريبة أو البعيدة ، واننا فى عصر لا تؤمن فيه غوائل الحروب على المنهزمين والمنتصرين ولا يسهل فيه الهجوم على الحرب قبل استنفاد كل حيلة

من حيل التوفيق أو حيل التأجيل والامهال

فالقوى بين المعسكرين متكافئة متوازنة مهما يكن من الفارق بينهما ، فهو فارق لا يغرى بالطمع فى الغلبة على ثقة من عوارض الحرب ونكساتها المجهولة .

وقد كانت شرور الحرب فيما مضى تنتهى بنهايتها وتتلوها الغنيمة المضمونة لمن يفوز بالغلبة فيها ، وليست الغنيمة اليوم مضمونة للظافر المتغلب بل لعله يبوء من الغلبة بالخسارة والتعويض للأمم التى أصابتها الهزيمة الفادحة ، وعلى قدر فداحة الهزيمة يكون سوء الحالة بين الشعوب التى تبتلى بجرائرها ، ويكون العبء الثقيل على كواهل الظافرين المسئولين عن تلك الجرائر ، الخائفين على أنفسهم من عقابيلها ، وأولها انهدام القواعد التى يقوم عليها بناء المجتمع عندهم سواء منها ما قام على الديمقراطية أو على الشيوعية ...

ومن ضوابط السلم فى عصرنا أن الهجوم على الحرب عسير على ولاة الأمر فى الأمم الدستورية وغير يسير على ولاة الأمر فى الأمم التى تخضع للحكم المطلق على صورة من صوره السافرة أو المقنعة . فليس فى هذه الأمم أو تلك رئيس واحد يملك أن يعلن الحرب وأن يقبض على زمامها وهو آمن على بقاء ذلك الزمام فى يديه الى النهاية . ولابد من النظر الى عامل جديد فى هذا العصر لم يكن له شأن خطير فى حروب الأزمنة الغابرة ، ونعنى به شأن المحايدين الذين يرجحون احدى الكفتين بالتزام الحيدة أو بالسماح لأحد الفريقين بمعونة التموين وتيسير المواصلات ونقل الأخبار والمعلومات ، فلم يكن للمحايدين مثل هذا الشأن فى حروب الأزمنة الغابرة ، وليس من المستطاع فى حرب عالمية اغفال شأنهم كبارا وصغارا فى بقعة من بقاع الكرة الأرضية ، وليس من

اليسير اقناعهم ولا انتزاع معونتهم على الرغم منهم . فاذا تيسر لولاة الأمر فى دولة كبيرة أن يقنعوا المعارضين لهم فى بلادهم فليس اقناع المعارضين لهم فى خارج بلادهم بالأمر اليسير .

وقد نرى غدا أن وبال الأسلحة الجديدة هى صمام الأمان ومفتاح الأمل فى اجتناب الحرب العالمية ، فان تعذر اجتناب الحرب فربما اتفق الرأى على اجتناب الأسلحة الجائحة من قذائف الذرة والصواريخ الموجهة وما اليها ، ويصح القياس فى هذا الأمل على أسلحة معروفة تمكن المقاتلون من اجتنابها وهى أفتك وأقرب الى متناول الجميع من أسلحة الذرة والصواريخ ، وتلك هى الأسلحة المكروبية .

فالأمم التى تقدر على صناعة أسلحة المكروبات والجراثيم أكثر من الأمم التى تخترع الأسلحة الذرية والصاروخية ، ونفقات الأسلحة التى تنشر عدوى الطواعين والأوبئة أقل من نفقات شق الذرة وتوجيه الصاروخ ، والكوارث التى تلحقها بالأعداء أشد من كوارث القذائف المرهوبة من كل سلاح جديد ، وقد أصبحت صناعة الأسلحة المكروبية فى طاقة عشرات من الأمم قبل اتقان الطيران وقبل التمكن من اصابة المرمى البعيد بالمدفع والبندقية ، فان تلويث الأنهار والأمواه — بل تلويث الأجواء — فى البلاد المعادية لم يكن عسيرا على أمة لديها معامل التحليل والتركيب وان لم تكن لديها مصانع التسليح ، وفى وسع شرذمة من الجواسيس أن تندس فى أطراف البلد المقصود فتنشر فيه الوباء وتعطل فيه كل وسيلة من وسائل القتال والاستعداد وكل وسيلة من وسائل التموين والعلاج ، ولم يحدث حتى اليوم أن أحدا فى مأزق من مآزق الهزيمة التى تهون كل شىء على اليائس المستميت قد أغراه اليأس باستخدام هذا السلاح . فلا نغلو فى التفاؤل اذا علقنا الرجاء بحكمة

الشعوب الانسانية أن تتجنب خطر الذرة كما تجنبت خطر الجراثيم .

والذرة المنشقة — بعد — ليست بالكلمة الأخيرة فى علم المخترعين بأسرار الاشعاع وحركات الأثير . فقد يعلمون بعد حين ما يجهلونه الآن من حركات الأمواج الأثيرية دفعا وطردا وسرعة وبطئا فلا يستعصى عليهم أن يقابلوا الموجات المندفعة من شق الذرة بموجات تصدها وتلغيها، ولا يعسر عليهم أن يهيئوا منطقة من الجو لتعديل الموجات الشعاعية وتوجيهها الى الأعلى أو الى الأسفل أو الى الوجهة التى تتحول بها من الحركة الضارة الى الحركة السليمة ، وانه لحلم من أحلام العلم لو تحقق لكان فى مخترعات الصناعة عصمة من بوائقها الجائحة ولم يوكل رجاء الناس كله الى عصمة الضمائر والأخلاق .

وسيتحقق هذا الحلم فى بقية هذا القرن العشرين أو يظل من أحلام العلم والانسانية زمنا يعلمه الله . ولكن مسير العالم من التضامن الى التعاون لا يتوقف عليه . فاذا اشتبكت علاقات التضامن غاية اشتباكها فالتعاون بين الشعوب العالمية كائن لا محالة ضرورة واختيارا فى حقبة من المستقبل القريب لا تطول بعد نهاية القرن العشرين .

٨ — أفريقيـــة وآســـيا

ان أربعين سنة مضت منذ الحرب العالمية الأولى قد صنعت الأعاجيب فى قضايا القارتين الأفريقية والآسيوية ، فماذا تصنع السنون الأربعون التى تمضى من الآن الى نهاية القرن العشرين ؟

لقد كانت القارتان سلعة تباع وتشرى ، فأصبحتا بعد الحرب العالمية الثانية على الخصوص شريكتين فى سياسة العالم ، وان لم تكونا موفورتى الأسهم فى مشاركتها .

ولم يحدث هذا التحول فى هوادة ومطاوعة ولا كان حدوثه مفاجأة بغير مقدماته الطوال . وانما فصل العالم فى هذه القضية بعد أن فصل فى قضاياه المتشعبة التى تتوقف عليها ، وهى قضية تقرير المصير ، وقضية اللون والعنصر ، وقضية الاحتكار ، وقضية العزلة السياسية . فكانت قضية القارتين هى مجموعة هذه القضايا فى دور التفاهم والاتفاق .

ونظرة سريعة — بل نظرة مملوءة بالتدبر والروية — الى حالة القارتين فى مطلع القرن العشرين وحالتها فى منتصفه ترينا أن العالم غير واقف فى هذه القضايا وان حلوله لها ليست كلها من قبيل الخداع والتمويه كما يحلو لبعض المتحذلقين أن يرددوا ويعيدوا ويبدئوا فى الحكم على كل مرحلة كبيرة من مراحل الانتقال ، وليست الغفلة فى الظن والاتهام بأقل من الغفلة فى الثقة والتصديق . بل ربما كان الاتهام الأعمى أضل وأضيع للفكر وللمصلحة من الثقة العمياء .

ان نظرة مملوءة بالتدبر والروية فيما حدث فى القارتين منذ الحرب العالمية الأولى ترينا أن الخضوع للحكم الأجنبى كان هو القاعدة المطردة

فى القارتين قبيل منتصف القرن العشرين ، وكان الشذوذ فيهما هو الحكم المستقل أو الحكومة الذاتية ، ومن مسائل الحساب — لا من مسائل السياسة — أن نحصى الآن عدد الأمم الخاضعة للحكم الأجنبى وعدد الأمم المستقلة بحكمها والمشتركة فى حكومتها فنعلم أن الأمر قد تحول من نقيض الى نقيض ، فأصبح الخضـوع للأجنبى شـذوذا وأصبح الاستقلال على درجاته قاعدة يعترف بها المتنازعون عليه وغير المتنازعين .

ومن الحذلقة أن يقال انه استقلال لم يحققه العمل ولم يثبته الواقع . فان الفرق فيه كالفرق بين الحدث الناشيء الذى لا يملك التصرف لقصوره وانكار حق التصرف عليه وبين الرجل الرشيد الذى يشق عليه أن يفعل ما يشاء وهو يملك أن يفعل ما يشاء عند مؤاتاة الفرص وملاءمة الظروف : كلاهما قد يشبه صاحبه أمام الواقع الذى لا يقدر عليه ، ولكن الفرق بين القاصر والرشيد فرق صحيح فى الواقع لا يستهان به ولا يزهد فيه .

ان الاستعمار القائم على السلاح والاحتكار صفحة مطوية لا يقوى أحد فى العصر الحاضر على نشرها ، وان العلاقة بين الأمم اليوم علاقة مشاركة يقع فيها الغبن كما يقع فيها الانصاف . ولكنها — كيفما كان الحال — علاقة غير علاقة السلعة التى تباع وتشرى وتحتكر أو تبذل فى الأسواق .

وفيما عدا شعوبا قليلة سيأتى موعدها من تقرير المصير لا محالة — يستطيع من يحقق النظر أن يعلم أن حدود الاستقلال قائمة على أساس واحد فى جميع القارات ، وانما حدوده القدرة التى تتفاوت كلما تفاوتت حظوظ الشعوب من الحضارة والصناعة والثروة والتربية السياسية ، فليس فى العالم أمة محكوم عليها بالخضوع الدائم لأنها غير أهـل للاستقلال ، وليس فى العالم كذلك أمة مستقلة تمام الاستقلال اذا كان

معنى ذلك أنها تفعل كل ما تريد وتستبد بالرأى فى كل ما تبتغيه ، ولكنها تملك من الاستقلال بمقدار ما تملك من العلم والثروة والكفاية السياسية . وكذلك يستقل الآحاد الراشدون فى حقوق التصرف والمعاملة فلا حجر عليه بحكم الشريعة ، وانما يصيبه الحجر أو يرتفع عنه اذا أصابه النقص فى قدرته أو عوفى من نقص القدرة بعمله وعمل سواه .

ان الأقوياء فى عصرنا هذا يحتاجون الى من هو أقوى منهم ، ومن هو أقوى منهم لا يسمح لهم ولا يقبل منهم أن يحتكروا الأسواق والميادين ، ولا يرى ضرورة لاحتكار الأسواق والميادين لنفسه لأنه قادر على المنافسة والمناظرة بغير احتكار ، وهذا هو دستور العلاقات الدولية الجديد بعد دستور الاستعمار القائم على الاحتكار بقوة السلاح . فلا مناص مع هذا الدستور الجديد من علاقة المشاركة كيفما كان اختلاف الأنصباء فيها وكيفما كانت قسمة الشريك من الغبن والخسارة أو من الربح والغنيمة .

طويت صفحة السلعة التى تباع وتشرى ، ونشرت بعدها صفحة المشاركة بين الأكفاء وغير الأكفاء ، وهى أشرف وأربح فى جميع الأحوال من الصفحة المطوية ، وهى — بعد حين — مرهونة بمصير التضامن العالمى الى التعاون على اضطرار أو التعاون على اختيار .

وسيجرى التعاون فى مجراه الذى توحيه ضرورات الحوادث ودراية الخبراء . وقد يهدينا تاريخ القرية الصغيرة فى ماضيها المعلوم الى تاريخ العالم الواسع فى مستقبله المجهول ، فان القرية قد تمثل لنا أطوار العالم فى مستقبله كما يمثل الجنين أطوار نوعه فى ماضيه على قول النشوئيين .

والقرية قد فرغت من تنظيم المبادلات بين أصحاب المال وأصحاب الحاجة فعالجتها فى سوقها الصغيرة بعلاجاتها المختلفة وهى :

« العملة ، أو المقايضة ، أو الرهن ، أو الضمان ، أو الخدمة سدادا للدين ، أو حساب الضائع والمفقود والاحسان . ثم لجأت أخيرا الى علاج يجمع بين مصالح الباعة والمشترين وهو جماعات التعاون التى يعتبر المشتركون فيها من البائعين ومن المشترين . ولا يحتاج العالم الواسع الى ابتداع علاج جديد غير هذه العلاجات التى طال عليها القدم ، ولكنه يحتاج الى الأساليب التى تمكنه من تطبيقها فى نطاقه الواسع ، ويحاول الآن شتى المحاولات فيهتدى حينا ويضل حينا ، ولن يزال ردحا طويلا بين الهدى والضلال .

« ومهما يكن من صواب الآراء التى توحى بتلك المحاولات فالتجارب العملية حيلة ضرورية لاتغنى عنها محاولة يختارها أصحاب هذه الآراء .

« فهذه التجارب العملية هى التى تهدى كل أمة الى اجتناب الجهود الضائعة فى تقدير لوازمها والموازنة بين ما تحتاجه من العالم وما يحتاجه العالم منها ، واستمرار الاحساس بالنقص والتعويض من هنا تارة ومن هناك تارة أخرى خليق أن يوقظ الغافل ويرشد الضال ويصحح المخطىء عن جهالة منه وعن لجاجة فى الباطل .

« واذا كانت المحاولات من أهل الرأى لا تغنى عن التجارب العملية فالأمر الذى لا شك فيه كذلك ان التجارب العملية لا تغنى وحدها عن محاولات أهل الرأى وعن اختيار الحلول التى تتمشى مع حلول الضرورة فتعجل خطاها وتقوم اعوجاجها ، وقد كان التساند بين ضرورات الواقع ومحاولات المدبرين والمتدبرين ديدنا طبيعيا يتكرر فى كل حركة من حركات التاريخ الكبرى ، ويصدق على أعمال الأفراد كما يصدق على أعمال الجماعات .

« فالهيئات الدولية — ولولم تكن لها سلطة عامة — تستطيع أن

تجمع الاحصاءات الدقيقة والبيانات الوافية ، وان تضع أمام المسئولين في كل أمة تقديرا نافعا يلاحظونه فى استخراج محصولاتهم ومصنوعاتهم فلا تضيع الجهود عبثا فى زيادة صنف لا يطلب أو نزارة صنف مطلوب .

« والحواجز المصطنعة التى تقام بين المعسكرين المتقابلين لا تثبت طويلا أمام الضرورات الحقيقية التى يحسها الناس فى أرجاء الكرة الأرضية ، والاخطار الملفقة التى يخلقها الحاكمون لحماية أنفسهم تتطلب من الأمم فوق طاقتها وتدفعها جميعا الى اخطار حقيقية يعجز الحاكمون عن اخفائها » .

« .. وليست العقبات فى طريق التعاون بين الأمم وليدة اليوم ولا هى مما يزول غدا كل الزوال ، ولكنها صحبت الانسان فى عمله لذات نفسه وعمله لأهله وقومه ولا تزال تصحبه حيث كان ، لا يصلحها ولا يخفف ضررها الا ما يخفف كل ضرر اجتماعى من تطور الأخلاق وتطور الضمانات التى تكف عدوان المعتدى وتكفل للمصاب بالضرر أن يدفعه عنه بقوة العرف والقانون أو قوة الاتحاد بين المشتركين فى المصاب الواحد ، وعلى هذه الوتيرة زالت عقبات كثيرة بالأمس وتزول غدا عقبات كثيرة لا مناص من زوالها مع تبدل الأحوال .

« ولنرجع الى مثل القرية التى عالجت شئونها فى مشكلات العملة والمقايضة والرهن والضمان وسائر ما هنالك من أشباه هذه المشكلات . فالتاجر الذى يملك فى القرية مالا يقرضه لأناس من أهلها ويشارك به أناسا آخرين فى الزرع والماشية يكسب بهذا المال جاها يستغله فى المشروع وغير المشروع من مآربه ولباناته . وقد يستغله فى ابتزاز الحقوق وهتك الأعراض وايذاء الأبرياء ، ولكنه لا يجعل هذا العمل قاعدة يعلنها ولا هو يعترف به اذا اتهمه به أحد ضحاياه ، ويختلف نصيب التاجر

من هذا الجاه باختلاف القرى واختلاف الآداب والعلاقات بين أهلها ، فيستطيع فى قرية ما يعجز عنه فى قرية غيرها ، وقد يصبح الجاه ضريبة فى عنقه يؤديها لمن يحترم جاهه ويقبل مكانته بين عشيرته ، وقد يصبح ولا جاه له بينهم اذا عرفوا كيف يستغنون عن تجارته وكيف يتبادلون البيع والشراء بينهم على سنة التعاون وتكافؤ المنافع والصفقات . وان هذه الأحوال العامة فى القرية لهى من معدن الأحوال العامة فى الدنيـا العريضة بما رحبت ، ولعلها هى هى بعد تكبير الأحجام وامتداد المسافات والأقوام ، والأعوام .. وقد كانت الدولة العظيمة قبل مائة سنة تسيطر — كتاجر القرية — على أسـواق الدنيا وتكسب بعدتها وعتادها جـاها يتيح لها أن تسخر شعوبها تسخير الأرقاء ، وأن تستفيد من حاجاتهم اليها ما يستفيده التاجر من حاجات العملاء . فأصبحت الدولة العظيمة وهى اليوم عاجزة عما كانت تقدر عليه قبل مائة سنة ، وقبل عشرين سنة ، وتغيرت أمور كثيرة فى الدنيا قبل أن يتم هذا التغيير : بعض هذه الأمور الكثيرة أن الدولة العظيمة أصبحت دولا عظاما تتنافس فيما بينها وتحد كل منها من ارادة غيرها كما تحد غيرها من قدرتها ، وبعض هذه الأمور الكثيرة أن القابضين على أزمة الدولة فى داخلها تغيروا وتغيرت مصالحهم فى حكم أنفسهم وحكم الشعوب التى دخلت فى حوزتهم ، وبعض هذه الأمور الكثيرة أن السيادة على الشعوب بالقوة والقسوة أصبحت من الصفقات الخاسرة التى تزيد كلفتها على غنيمتها ، وبعض هذه الأمور الكثيرة أن المغلوبين عرفوا حقوقهم وعرفوا حاجة الغالبين اليهم وعرفوا بينهم روابط من الشكاية المشتركة والمقاومة المشتركة لم تكن معروفة لأسلافهم . وجملة هذه الأمور تجيز لنا أن نوازن بين عوامل التضامن العالمى وعوامل الفرقة والشقاق فلا نبالغ اذا قلنا : ان الأولى راجحة على

الثانية ، لأن عوامل التضامن مقبلة متقدمة وعوامل الفرقة والشقاق مدبرة مترددة تنكص على عقبيها »[1] .

كانت القارة الأفريقية تسمى بالقارة المظلمة لأنها بقيت مجهولة على خريطة الكرة الأرضية يسكنها السود فيما عرف فى أطرافها ويحيط بها سواد من الظلام والخفاء .

وكانت تسمى أحيانا بالقارة المتنحية كأنها تركت ركب الانسانية يسير فى تاريخه الطـويل ولبثت فى مكانها كما كانت فى مجاهل ذلك التاريخ .

وليست هى اليوم بالقارة المظلمة لأنها تكشفت عن دخائلها وتسلطت عليها أنوار الاستطلاع فى جوفها ومن حولها فلم تبق منها زاوية مجهولة أو بقعة غير مطروقة .

وليست هى بالقارة المتنحية لأنها أدركت ركب العالم فى نهاية شوطه ويرجى أن تماشيه وتمده فيما يستقبله من مراحل حضارته .

وقد صدق من سماها فى السنوات الأخيرة بقارة الغد لأنها فى الغد تبدأ مصيرها الذى تختاره بعد أن تفاهم العالم الانسانى على حق الشعوب جميعا فى تقرير المصير .

وكل مصير لأفريقية لا يكون مصيرا مرضيا للافريقيين يخل بتضامن العالم ويعوق سيره الى التعاون والمؤاخاة . فلا تعاون بين الأمم فى عالم يتخذ من أفريقية مطية يسوقها الى مصير غير مصيرها الذى ترضـاه أو يتخذها ضيعة للمتغلبين المستغلين يبتزون ثمراتها ولا يتركون لأبنائها من تلك الثمرات غير فضلة الأجير المغبون .

ان سكان أفريقية ثلاث طوائف : أولها بطبيعة الحال أبناء أفريقية

(١) من مقدمة المؤلف على « رسالة التعاون الاقتصادى » بقلم ب . ج . وودز

الأصلاء الذين ولدوا فيها وولد فيها من قبلهم أسلافهم الى أزمنة مجهولة والطائفة الثانية هم المهاجرون من القارة الأسيوية وأكثرهم من العرب والهنود وأبناء الجزر الملاوية ، والطائفة الثالثة أوربيون مستعمرون، وليس للطائفة الثانية مشكلة عسيرة الحل لأنها تبقى وتندمج فى القارة أو تعود الى أوطانها باختيارها . أما المشكلة التى لا تحل بالحسنى فهى مشكلة المستعمر الذى يبسط سيادته على أهلها بغير أمل فى انتهاء هذه السيادة الا أن يظل الأفريقيون تابعين له مسخرين فى خدمته أو يثوروا عليه فيطردوه . ومهما يبلغ من سلطانهم على القارة فهو أضعف من الغاية التى يطمحون اليها والنية التى يبيتونها وهى نية الاصرار على استعباد مئات الملايين بغير أمل لهم فى خلاص قريب أو بعيد ، وتلك نية تعارضها الطبيعة كما يعارضها أولئك الملايين المصابون بها . وقد يتخاذل دونها سلطان المستعمرين يوما من الأيام فلا تجتمع كلمتهم عليه فى موقف الحسم حيث يحتاجون اليه ، ولن تصبح أفريقية وطنا للمستعمرين الا بوسيلة واحدة ، وهى أن يصبحوا أفريقيين كسائر الأفريقيين وأن يجيء اليوم الذى يقفون فيه مناضلين عن أفريقية كما فعل الأمريكى فى نضاله مع البريطان والأسبان .

وسيخرج الأفريقى الأصيل من القرن العشرين بفائدة أكبر من فائدة تقرير المصير ، اذا تعود فى السنين الباقية منه أن يلتمس الدراية التى تجعله يدا عاملة فى تعميم النفع بخيرات بلاده وينابيعها الغنية . اذ لا معنى لتقرير المصير بغير هذه الدراية التى يقعده عنها اليوم جهله وسقمه وما ينوء به من بقايا الخرافات وتقاليد السذاجة فى النظم الاجتماعية . ومما يبعث الأمل فى نهضة لالتماس هذه الدراية أن طلاب المصالح العالمية من أمم الحضارة محتاجون الى تعليمه والانتفاع بمعونته ، وهم يجدون أن التعاون معه

على فهم ورضى أيسر من تسخيره على الرغم منه أو الاستغناء عنه فى تدبير مرافق بلاده .

يقول الخبير الاقتصادى كلارانس راندال : « ان المارد النائم يستيقظ ، وان قلب أفريقية فى أسن والغرب وفى الشمال والجنوب يخفق بآمال جديدة ومطامح جديدة ، وان الأفريقيين مستعدون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وأن يقرروا مصيرهم بأيديهم . ان الروح الاستقلالية التى كانت سائدة بيننا فى عام ١٧٧٦ أصبحت الآن منتشرة فى هذه البلاد الشاسعة حيث تكونت من البرارى أمم جديدة لها نفس التصميم والجرأة اللذين امتاز بهما الرواد الأوائل من أسلافنا . وأفريقية التى كانت قارة عريقة فى القدم يوم ولد متوشالح قررت اليوم أن تندفع قدما الى حضارة القرن العشرين . وهى فى ميزان القوى موفورة الثراء فى الموارد الطبعية التى سيحتاج اليها العالم الصناعى ذات يوم ، ولاتحاد أفريقية الجنوبية مستوى عال من الرخاء القائم على أساس من مناجم الذهب والماس والأورانيوم ، ولاتحاد روديسيا ونياسالاند أعظم مستودعات النحاس والكروم فى العالم ، واكتشفت أنجولا النفط فى أراضيها ، وفى الكونغو البلجيكية معدن الكوبالت والأورانيوم وصناعة الماس ، وتستعد أفريقية الاستوائية الفرنسية لاقامة مشروع ضخم لخامة المنجنيز . وفى نياجرا الصفيح والكوبلت ، وفى ليبيريا وأفريقية الغربية الفرنسية خام الحديد ، وفى غانة تكثر أشجار الموجنة حتى لتصنع منها سلال المشروبات الخفيفة وتستعمل أخشابها فى الشئون العادية . وان أعظم موارد القوى الكامنة على كل حال لهى القوة الرائعة التى لا حدود لها : قوة توليد الكهرباء من مساقط الماء . ففى العصور الجيولوجية عندما تكونت القارة الأفريقية ألفى منحدر هائل من المحيط الأطلسى الى

داخل القارة مواز لسواحلها الغربية ، وعلى هذا المنحدر الذى يشمل معظم الجانب الأدنى من أفريقية تنساق الأنهار الكبرى الى الجريان فوق شلالات قبل أن تنصب فى المحيط الأطلسي . ولقد كانت هذه الشلالات حواجز منيعة فى وجه السفن البحرية ، تمنع اكتشاف ما وراءها .. ولكن هذه الشلالات والمساقط تعتبر الآن بالنظر الى أفريقية التى أفضت بأسرارها للطائرات عشرات من أمثال شلال نياجرا وهى تنتظر الترويض والاستغلال. وهناك مستودعان كبيران لتوليد الكهرباء من مساقط المياه فى طريقهما الى الظهور الآن . فنهر زامبيزى يقوم عليه خزان كاريبى الذى شارك البنك الدولى فى تمويله وسيمد المناجم والمصانع فى روديسيا بالقوى المحركة الوافرة ، ولسوف يكون للكاميرون الفرنسى قريبا خزان فى اقليم ايديا على نهر ساجانا . وهناك مشروع خزان أنجا على نهر الكونغو فى الكونغو البلجيكية ، وهو مشروع يبلغ من الضخامة أن تساوى القوى المولدة منه بعد تمامه خمس القوى التى تتولد فى الولايات المتحدة ، وعدا هذا وضعت الطبيعة الى جانب كل منطقة لتوليد الكهرباء على وجه التقريب مستودعات منجمية لا مثيل لها من البوكسيت الذى يكفى لتزويد العالم كله بمعدن الألمنيوم عدة أجيال . وقد حدث تطور لا بأس به فى وسائل المواصلات . فان خطوط الطيران التى تستخدم الطائرات الحديثة وتقدم أحسن الخدمات تعبر سماء القارة ذهابا وجيئة فى كثير من الاتجاهات ، ويقتحم شريط السكة الحديدية طريقها الى داخل القارة ، وأصبح فى مقدور سيارة نقل أن تبدأ رحلتها فى الشاطىء الشرقى عند موزنبيق وتمضى الى الساحل الغربى فوق طرق ممهدة يتصل بعضها ببعض خلال روديسيا وأنجولا ، وأنشئت فى كل مكان على كلا الشاطئين موانىء جديدة .. وتزداد الأجور زيادة مطردة لا سيما على طول الشاطىء وفى

مناطق المناجم كما تزداد الواردات من البضائع والسلع المستنفدة .. »[1].

وهذه الموارد التى ذكرها الخبير المطلع لا تستوعب جميع الموارد المعروفة ولا جميع الموارد التى يمكن أن تعرف من قبيلها ، وهى كلها موارد موجودة مهيأة للتثمير والاستغلال بأدوات المصانع العصرية ، ولكنها غير الموارد المدخرة للتثمير والاستغلال من ينابيع غير معهودة ولا مطروقة فى الصناعة العصرية ، ونريد بها موارد الثروة التى يمكن أن تستخرج من اصلاح الصحارى الكبرى واستخدام أجوائها وشواطئها لخلق المناخ الملائم والتربة الغنية بثمراتها الزراعية والصناعية .. فهذه اذن قارة مستوفية لعتادها على أهبة لمجاراة أغنى القارات وأرقاها فى تزويد العالم بمطالبه وضروراته ، لا تعوزها كيما تتم أهبتها الا أن يملك أهلها عدتهم من الحرية والدراية ، فهل يمر الزمن دون أن يقترب ذلك اليوم الذى يستوفى لها عتادها من حرية أهلها ودرايتهم كما استوفت عتادها من موارد الصناعة والزراعة ؟ وهل ترجع الى أمسها المظلم أو تتقدم الى مستقبلها ومستقبل العالم معها ؟ .. قبل أن ينتهى القرن العشرون ستعلم الدنيا المتطلعة مدى الخطوات التى تتقدم بها قارة الغد الى مصيرها ، وسترى أن تذليل مصاعب التقدم أهون جدا من الصعوبة التى تواجه العقل حين يتخيلها ناكصة على عقبيها مدبرة الى ما كانت عليه يوم كانت كهفا مغلقا أو فرقة متنحية عن مكانها من صفوف الأمم فى ركب الحضارة . ونحسب — على هذا — أن وصف القارة الأفريقية « بالتنحى » عن الركب ظلم لا تقره دعوى النشوئيين اذ يتتبعون أول خطوة خطاها البشر من حظيرة الحيوان الأعجم فيرجعون بها الى مجاهل

---

(١) من مقال ملخص عن ستردای ايفننج بوست نشرته مجلة المختار فى عدد ديسمبر ١٩٥٨ .

أفريقية في أقدم عهودها . فاذا صدق ظنهم لقد كانت هذه القارة أول من سبق الصفوف ، وكانت حركتها أعظم من أن يقاس بها مسير الحضارة من مبدئها الى منتهاها اليوم في عصر الذرة والطائرة الفلكية . ولقد تكون لها في الغد خطوة جديدة تضارع في نسبة الزمن خطواتها الأولى .

* * *

أما القارة الأسيوية فهي كالبرزخ بين أفريقية وسائر القارات ، كانت تقرن بأفريقية فتشملان مقاما يطلق عليه الشرق على سبيل التجوز أو من باب التسمية السياسية التي لا تتقيد بالحدود الجغرافية ، لأن هذا الشرق كان يخضع لحكم الأجنبي تارة وللامتيازات الأجنبية تارة أخرى . فكان نحو خمسمائة مليون من الهنود والأندونسيين وأبناء الجنوب الشرقي في آسيا يخضعون لحكومات أوروبية ، وكان نحو خمسمائة مليون آخرين في الصين وما حولها يخضعون لامتيازات دولية تمتزج فيها سيطرة السياسة بسيطرة الاقتصاد . ولكن آسيا اليوم لها شأن أفريقية في علاقة الشرق بالدول الكبرى ، وتكاد أن تكون قد فرغت من قضية الحرية والسيادة بينها وبين تلك الدول وتقدمت الى الفصل في قضايا الحرية والسيادة بينها وبين حكامها من صميم أبنائها ، فارتبطت هذه القضايا المعقدة بأشتات من قضايا النظم الاجتماعية ومسائل المعيشة وحقوق الرعايا المحكومين وسلطات الرعاة الحاكمين . وهذه هي القضايا التي تجعلها برزخا بين الأمس والغد كما جعلتها برزخا بين أفريقية وسائر القارات ، فهي من ناحية تنظر الى الغد لتعالج مشكلات المعيشة والحكم على أضواء العلم الحديث والحضارة الصناعية ، وهي من غير هذه الناحية تنظر الى ماضيها الذي أخرج للعالم في جميع القارات عقائده وأديانه وقدم له شرائع بوذا وكنفشيوس كما قدم له شرائع موسى وعيسى

ومحمد عليهم السلام ، فما من سؤال عن آسيا أهم وأسبق من السؤال عما تعتقد وبماذا تدين ، ويعاد هذا السؤال اليوم على مفترق الطريق ليسمع العالم جوابا جديدا نحو الايمان أو نحو الانكار ، والى الحياة الروحية السماوية أو الى الحياة المادية الحيوانية .. وأمل بنى الانسان أن تكون لآسيا — قارة الأمس — بقية من ميراث الروح تمدهم به فى بحثهم عن نور الهداية ، فماذا تملك آسيا من نورها الخالد فى عصر النور الذى تتطلع اليه كما يتطلع العالم فى جميع قاراته ؟ ماذا تملك من نورها بعد أن أصبح النور فى لغة العلم والدين رمزا لمعانى الحس ومعانى التجريد والتنزيه ؟

ان أربعين قرنا مضت لا تنتهى الى غير شىء فى هذه السنين الأربعين التى بقيت من القرن العشرين .

٩ – المجتمع

من أضر الآفات بنظام الاجتماع أن تكون الطبقة الوسطى فى الأمة محرومة من وسائلها لابلاغ صوتها واثبات حقها وتقرير مشيئتها .

فهذه الطبقة التى تؤدى للمجتمع معظم أعماله المتوسطة بين اقتناء الثروة والقيام بالصناعات اليدوية لا تملك المال والجاه كما يملكها العلية ولا تملك سلاح الاضراب والعمل المشترك كما يملكه أصحاب الأجور ، ولو ملكت معهما بعض ما ينبغى لها من المشاركة فى الرأى والنفوذ لاستحال قيام الحكم المطلق بسند من أصحاب المال والجاه أو بسند من أصحاب الأجور والصناعات اليدوية .

ان المجتمع المثالى هو المجتمع الذى تستطيع كل طبقة فيه أن تأخذ بنصيبها وتذود عن حقها بوسائلها ، ومثل هذا المجتمع لم يوجد بعد على تمامه ، ولكنه يوجد شيئا فشيئا كلما اتسع نطاق الصناعة الكبرى وتعددت مرافق المعاملات الاقتصادية ، وحالة الطبقة الوسطى هى أصدق المقاييس التى تقاس بها درجة المجتمع من الارتقاء والانتظام والعدل والحرية ، فلا سبيل الى استبداد فئة بغيرها فى مجتمع تتكافأ طبقاته وتتوازن فى القدرة والوسيلة . وانما ينجم الاستبداد حين تتغلب فئة على سائر الفئات وتعجز الفئات المغلوبة عن مقاومتها ورد عاديتها بسلاح من أسلحة المصلحة والكفاية .

فأصحاب الثروة قلة تعوض قلة العدد بوفرة الجاه والنفوذ ، وأصحاب الأعمال اليدوية كثرة تعوض الثروة بالقدرة على الاتحاد والاشتراك فى المطالبة ، وكلتاهما تستطيع أن تتحكم فى المجتمع الذى تقف فيه طبقته

الوسطى مشلولة الحركة محرومة من وسائل جمع الكلمة والاعراب عنها ولكنهما لا تستطيعان منفردتين أن تتحكما فى أمة تتوسطها طبقة غير قليلة العدد ولا محرومة من وسائل الاتحاد ، كالطبقة الوسطى التى تظهر بين الفريقين كلما اتسع مجال الصناعة وتعددت الأعمال الفنية وضروب التصرف فى التجارة والزراعة وجملة المرافق الاقتصادية .

ومن بوادر الأمل فى المستقبل أن المجتمع الحديث يتمشى الى هذه الغاية المثالية ، وان « الآلة » تعود فتظهر فى التاريخ أداة من أدوات النجاة كلما استحكمت مشكلات الاجتماع وتفاقمت من جرائها زعازع الفتنة والبغضاء .

فالثروة فى المجتمعات الصناعية لا تكفى وحدها للقبض على زمام النفوذ ، لأنها تحتاج أبدا الى خبراء الصناعة والادارة والاقتصاد ، وليس فى وسع صاحب الثروة أن يتخذ من المصنع الكبير سلاحا يملى به مشيئته على قومه ، لأنه — وهو يملك المال — يضطر الى معونة المهندس والمدير وخبير الاقتصاد ومتعهد الترويج والاعلان ، وربما جهل من شئون ثروته ما يعلمه هؤلاء ويقدرون على التصرف فيه .

وهذه الثروة التى كانت تنحصر فى يد واحدة أو أيد قليلة يستدعى نظام المعاملة فى مجتمعات الصناعة الكبرى أن تتفرق بين الشركاء والمساهمين على حسب الحصص والسهوم . فيحسب رأس المال بالملايين ويحسب مالكوه بالمئات والألوف ، ويصعب تقسيم المالكين فى هذه الحالة الى طبقات وفئات يقف بعضها من بعض موقف المغالبة والصراع .

ويسرى مع نظام المساهمة نظام التعاون بين البائعين والشراة على سنة المشاركة والتضامن فى الكسب والخسارة ، وقلما تتباعد المسافة بين الطبقات حيث تحسب الثروة بالحصص والسهوم بين المتعاونين والشركاء .

وقد كان العمل اليدوى خلوا من الفطنة والخبرة الفنية فى مصانع القرن التاسع عشر ، وكان العمال اليدويون هم الكثرة الغالبة بين أجراء الصناعة يزيد عددهم على عشرة أمثال الحذاق من الخبراء ومساعديهم الفنيين ، فتطورت الصناعة ولا تزال تتطور حتى اختلفت النسبة بينهم أبعد اختلاف ، وأصبح العمل اليدوى أقل الأعمال فى المصانع الكبرى وما يصاحبها من المصانع الصغيرة وأجهزة الصناعة فى البيوت والمكاتب وأندية الفن ومعاهد التجارة وحقوق الزراعة ، وتلاحقت الدرجات من أعلى وظائف الهندسة والفن الى أدناها فاشتملت على طبقات مشتبكة الأطراف يصعب التمييز بينها والفصل بين مصالحها عند تمييز الطبقات على النحو القديم .

وكل تطور ينمو بالمجتمع نحو التقارب فى الطبقات والتشابك فى المصالح والحقوق فهو خطوة ثابتة تنمو به نحو الاستقرار والحرية ، فلا يتأتى فى مثل هذا المجتمع أن تسطو فئة منه على الفئات الأخرى ولا هى بحاجة الى ذلك تلح عليها فتحرضها على السطو والثورة . اذ كان معظم أسباب السخط والتمرد انما ينجم من الهوة الفاصلة بين فئة وفئة أو من الظلم الواضح فى تقسيم الأقدار والأرزاق ، وما من داع الى الطغيان والاستبداد بالأمر فى مجتمع تقل فيه الفواصل وتكثر الروابط ويرجع فيه تفاوت الأقدار والأرزاق الى الدراية بالعمل النافع للجميع ولا يرجع الى التقاليد المبرمة والحواجز المفروضة بغير فارق معقول .

فالتعاون بين الطبقات هو التطور الملازم للصناعة الكبرى ، ولا استقرار قبل بلوغ ذلك الطور الذى يستعصى فيه على طبقة من الطبقات أن تستبد بغيرها ، ولا مفر من الاستبداد فى مجتمع تتغلب فيه احدى الفئات وتجور على سواها .

أما ثورة المحرومين فليست من لوازم الصناعة الكبرى وليست هى بالطور الأخير المحتوم الذى تنتهى اليه هذه الصناعة ، وانما تحدث هذه الثورة فى عهد الصناعة قبل اتساعها واستقرارها كما حدثت قبل عصور الصناعة فى التواريخ الغابرة ، ولابد أن تحدث مع الظلم والتفاوت كلما تهيأت لها بواعثها ومشجعاتها ، ومنها — بل فى مقدمتها على الدوام — أن تضعف هيبة الحكم القائم وأن يتيسر للمحرومين أن يتألبوا فى مكان واحد ، اما فى حالة كحالة الجند المنهزمين ، واما فى حالة كحالة العمال والزراع المحشودين فى جوار واحد بين المناجم والحقول .

حدثت أشباه هذه الثورات بعد زوال الدولة القديمة فى مصر قبل أربعة آلاف سنة ، فشوهدت فيها جميع أعراض الثورات التى يربطها بعضهم بصناعة القرن العشرين ويحسبها الطور الأخير من أطوار تاريخ الانسان الى نهاية الزمان ، فجاء فى محفوظات البردى التى تخلفت لنا من عهود الأسرات المالكة بعد السادسة أن العامة شكوا فى الدين وأضربوا عن الشعائر والقرابين ، وان أحدهم كان يقال له : تقرب الى الاله المعبود فيقول : لو عرفت مكانه لحملت اليه قربانه ، وان أواصر الأسرة قد انحلت فاستباح الأخ قتل أخيه واجترأ الولد على حرمات أمه وأبيه ، وان الزواج بطلت قداسته واستبيحت أعراض المصونات من كرائم البيوتات ، وان التى كانت تنظر وجهها فى الماء أصبحت تقتنى المرآة والحلية المنتقاة ، وان أصحاب السمت والوقار خلعوا سمتهم ووقارهم وتزلفوا الى الخدم وشذاذ الآفاق ، وان الضياع هجرت والقصور دمرت ، واستولى من استطاع على ما استطاع كما سولت له المآرب والأطماع .. وحدث هذا كله بعد حقبة جارت فيها علية القوم على سفلتهم وانحصرت فيها الثروة بين أمرائهم وسرواتهم ، وتوالت فيها

الغارات والقلاقل من خارج البلاد وداخلها ، وسيق فيها الألوف من الزراع والعمال حشدا بعد حشد لبناء الأهرام وتشييد الهياكل والتنقل من سخرة الى سخرة فى خدمة الرؤساء وولاة الأمر ، بغير أجر بل بغير قوت فى كثير من الأحيان غير الخبز القفار .

« وحدثت حركة الأرقاء فى اسبرطة قبل الميلاد بأربعة قرون ، وهم الأرقاء المعروفون باسم الهيلوت Helots أو باسم الضواحيين نسبة الى الضاحية Perioeci وكلهم من الفلاحين زراع الأرض بالحصة والمقاسمة فى الثمرات . وقد تجمعوا بالألوف على مقربة من المدينة وهزموا قادة اسبرطة وألجأوا هذه المدينة الحربية الصارمة الى طلب النجدة من جيرانها ، فلم تقدر على صد الأرقاء الثائرين الا بعد حوالى عشر سنوات .

« وحدثت حركة الأرقاء فى الدولة الرومانية بقيادة سبارتاكوس (سنة ٧٢ ق . م) الرقيق الذى تعلم المصارعة وتمكن من جمع زملائه فى الرق فحشد منهم قرابة سبعين ألفا ودوخ الجيوش الرومانية بحملاته القوية حتى استنفد جهود الدولة وكلفها أن ترصد له أكبر قوادها من طراز كراسوس Pompey وبومبى Pompey فلم يخمدوا ثورته الا بعد عناء شديد .

وحدثت حركة الأرقاء فى العصر الاسلامى بعد منتصف القرن الثالث للهجرة (وبعد منتصف القرن التاسع للميلاد) حين ثار زنج البصرة بقيادة على بن محمد بن عبد الرحيم ، وما برحت ثورتهم تحتدم وتخبو من أيام الخليفة المهدى بن الواثق الى أيام الخليفة المعتمد بن المتوكل ، وتمكن هؤلاء الزنج من التجمع لأنهم كانوا يعملون فى الموانىء وسكنى الشواطىء كما كانوا يعملون فى الزراعة ونقل البضاعة ، ولم يكن هؤلاء

الأرقاء ولا أرقاء (سبارتاكوس) أو أرقاء الهيلوت والضواحيين عمالا مسخرين فى صناعة كبرى أو صغرى ، بل كانوا فلاحين أو حفارين فى المناجم أو حمالين على الشواطىء ، جمعتهم أماكن عملهم ووحدت الشكاية ووحدة المصلحة بينهم ، فخرجوا فى تلك الحركات الاجتماعية قبل عصر الصناعة الكبرى بأكثر من عشرين قرنا فى الزمن القديم ونحو عشرة قرون فى زمن الاسلام .

« وعملت فى كل حركة من هذه الحركات الاجتماعية عواملها المشتركة التى لابد منها فى جميع العهود ، وهى عوامل الدعاية والقيادة والهزيمة أو سقوط الهيبة وظهور العجز عن تدبير الأمور من قبل الهيئة الحاكمة .

« ولا نعلم على التحقيق كيف كانت دعاية الثورة المصرية بعد عهد الأهرامات ، ولكن تفرق الدعاة والأسر فى الوجه القبلى على الخصوص ، مع شيوع الشكوى بين الفلاحين قد يدل على دخيلة الدعوة التى جذبت كل فريق من الثائرين الى زعيم من زعماء الأسر وطلاب العروش .

« أما ثورة الهيلوت فالمعروف عنها كثير ، ومن هذا الذى عرف عنها أنها رزقت القيادة الحسنة على يدى أرستومين Aristomene وأرستديمس Aristodemus وجاءتها دسائس الفتنة الخارجية من جانب الفرس مسخرين لها أناسا من الطامحين الى الملك على رأسهم القائد بوزانيوس Pausanius وأناسا من رؤساء العصابات كانوا على خطر دائم من فتك الشرطة الخفية المختصة بتعقب الأرقاء البارزين بين صفوف أبناء جلدتهم وكانت لهم خفية خاصة تترصدهم يسمونها الكربتية Krypteia وتشبه الخفية القيصرية قبل الثورة الشيوعية فى نظام التجسس وحبائل الايقاع والاستطلاع .

والمعروف عن ثورة الأرقاء على رومة أكثر من المعروف عن ثورة

الأرقاء على اسبرطة ، قياسا على اشتهار الأنظمة الرومانية واشتباكها بالأمم المحيطة بها ، فلا ينظر المؤرخ فى تفصيلات الحوادث التى انتهت بنشوب ثورة سبارتاكوس الا وجد فيها جميع العوامل التى تخلف هذه الثورات من الأزمات السياسية والاقتصادية الى هزائم الحروب وسقوط الهيبة الى تحريض الدعاية وامكان حشد الثائرين فى صعيد واحد .

« تعاقبت الغارات على رومة من برابرة الشمال فى القرن الأول قبل الميلاد ، وانقسم ولاء الجيوش الرومانية بين المشرق والمغرب وتضعضعت الحكومات القنصلية أو الشبيهة بالجمهورية ومهدت الطريق لقيام سلطان الاستبداد وظهور الحاكمين بأمرهم من القادة وزعماء العشائر ، وخابت آمال المصلحين فى برامج الاصلاح ، ومنها تقييد الملكية الزراعية ورسم الخطط الواسعة لتوزيع الأرض والثروة بين الملاك الكبار والصغار بالتدريج .

« وكان الاخوان طيبريوس وجايوس جراشى Gracchi قد استنفدا الحيل فى اقناع العلية وأعضاء مجلس الشيوخ باعادة توزيع الأرض العامة لزيادة عدد الملاك الصغار ، واستصدر أولهما من مجلس الشيوخ قرارا بالحد الأقصى للأرض الزراعية العامة فجعله ثلثمائة فدان (سنة١٣٣ق.م) ثم جاء أخوه فأراد أن يتوسع فى تعميم الحقوق السياسية وأنشأ طائفة من المشترعين دون طائفة الشيوخ وكل اليها الحق فى محاسبة الولاة السابقين ومن اليهم من رجال الدولة ، وكانت هذه المنازعات على الحقوق السياسية والحقوق المدنية بداءة الانقسام بين طوائف العلية من سادة المجتمع الرومانى القديم . واتفق هذا فى الوقت الذى تتابعت فيه غارات البرابرة الشماليين على تخوم الدولة ، فكان عجز الحاميات العسكرية عن صد المغيرين حجة مقنعة سوغت للقائد جايوس مأريوس

آن ينظم الجيش بقيادته ويستغل سمعته فى الحروب الأفريقية للاستئثار بالسلطة فى حروب الدفاع عن تخوم الشمال ، وجر هذا الاستئثار الى انقسام الدولة بين جيش الوطن بقيادته وجيش الولايات بقيادة كرنيلوس سولا ، ووقعت بين الفريقين معارك عنيفة لم تنحسم قبل انقضاء سنوات فى القلاقل والفتن والأزمات ، خرج منها (سولا) منتصرا على ماريوس حوالى سنة احدى وثمانين قبل الميلاد فدانت له الدولة بالطاعة حوالى سنتين ، ولم تنقض شهور على موت سولا (سنة ٧٨ ق . م) حتى تجددت المساعى الحثيثة التى تتجه من كل جانب الى هدم النظم الجمهورية واقامة السلطان المطلق بزعامة هـذا أو ذاك من القادة المتنافسين ، وفى هذه الفترة نشبت ثورة سبارتاكوس فوجدت لها أشياعا من أشتات الأسرى الذين جاءت بهم حروب الرومان فى تراقية — وطن سبارتاكوس — وبلاد الغال وسائر أرجاء الدولة الواسعة ، وكان منهم أناس لحقوا بالجيش وتدربوا فيه على الأعمال الحربية وأناس آخرون من رعـاة الجنوب فى ايطاليا ممن كانوا يحملون السلاح لحماية قطعانهم Latifundia ويشتبكون فى حروب كحروب العصابات كلما ضعف سلطان الحكومة القائمة . فانقاد — لسبارتاكوس — جيش كبير من المقاتلة والمصارعين بعضهم من الأرقاء وبعضهم من الشذاذ النافرين ، وتمكن من الانتصار على جيش الدولة بقليل من العناء (٧٣ ق . م) ثم هزم الجيوش التى جردت لقتاله بقيادة القناصل والولاة فى بلاد الغال ، واستشرى خطبه حتى كاد أن يحكم البلاد الايطالية فيما وراء العاصمة ، ولم تقدر عليه الحكومة بجيوشها التى تخلفت من أيام النزاع وانقسام الولاء بين القادة ، حتى تصدى للأمر رجل من رجال (سولا) الكفاة هو القائد كراسوس ، فجند لقتاله جيشا جـديدا تولى تدريبه وتنظيمه على يديه ، ودارت

الدائرة على سبارتاكوس فى معـركة أبوليا Apulia (٧١ ق ٠ م) .
وقد كاد أن يفلت بفلول جيشه على أسطول من السفن الصغيرة عنـد مسينا . ثم تبين أن الثائرين لم يكونوا جميعا من الأرقاء المملوكين لسادة معروفين وأحصى منهم نحو ستة آلاف لم يعرف لهم سادة يملكونهم ولم تكن لأكثرهم سابقة فى الرق ، وانما كانوا مع طائفة من الفلول الهاربين ثوارا على الظلم والخلل وطلابا للحرية والحقوق الانسانية ..

« والمعروف عن ثورة صاحب الزنج فى الدولة العباسية أكثر مما عرف عن ثورة الأرقاء فى الدولة الرومانية ، لأنها حدثت فى عهد تاريخى وافر المراجع والمآخذ قريب بالنسبة الينا فى أحواله وأوقاته ومصادر دعوته ودعواه . وقد كانت الدعوة والدعوى معا كأوهن ما تكون الدعوات والدعاوى من السخف والتضليل ، ولكنهما فعلتا فعلهما المعهود مع ضعف الدولة واحتشاد الثوار فى مكان واحد وسهولة انتحال الحجة التى يستند اليها الثائر على الدولة القائمة فى أعنف أوقات النزاع بين العباسيين أصحاب السلطان والعلويين أصحاب الحق فى عقيدة الأكثرين من أبناء الاقليم وما جاوره من الأقاليم .. ورواية أخبار هذه الثورة من وجهة نظر غربية أدنى الى التناسق مع أخبار الثورات من قبيلها فى تاريخ اليونان والرومان ، ولهذا نرويها هنا كما لخصها (سير وليام موير) Muir فى كتابه عن تاريخ اضمحلال الخلافة اذ يقول من أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة (٨٦٩ م) ما يلى :

ان فتنة الزنج أشاعت الذعر والفتك من حولها خمس عشرة سنة ، وكان زعيمها فارسيا انتحل النسب الى على بن أبى طالب ، فكان يدعو أول الأمر بهذه الصفة الى بعض الآداب الروحية ثم ما عتم أن كشف عن خبيئته فاذا هو متمرد منتفض يسرى عليه لقب الخبيث . وكان يحوم

فى شبه الجزيرة العربية قبل ذلك على غير طائل ، ثم رفع راية العصيان ونادى بالحرية لجميع المستعبدين ووعدهم بما لا حد له من الأسلاب والغنائم اذا التفوا برايته . واتخذ له شعارا آية من القرآن كتبها على الراية تبطل الرق وتلغيه « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن » .. وفسر الآية بأن الله اشترى الرءوس والأموال فلا يملكها أحد ولم يكن بالمستغرب من العبيد — الذين علمهم أن يهينوا سادتهم — أن يهرعوا اليه بالألوف ومعهم أهل البادية من طلاب الأسلاب والغنائم . أما اسم الزنج فمعناه الأثيوبيون من أوشاب القارة الأفريقية ، ومن هنا نسبت اليهم الفتنة فسميت بفتنة الزنج . وكانت سنة خمس وخمسين ومائتين بداءة عصيانهم ومجاهرتهم بالقتال وتلتها سنتان انتشروا فيهما بين جوانب وادى النهرين وشواطىء قزوين الى الأهواز ، فبسطوا أيديهم من ثم على هذه الأنهر وشجعهم النجاح فأغاروا فى سنة سبع وخمسين ومائتين (٨٧١ م) على البصرة واقتحموها وأعملوا فى الأهلين كل منكر وفظيعة ، ثم نادوا بالأمان غدرا فقتلوا كل من اغتر بأمانهم من جمهرة السكان المخدوعين ، وهدموا المسجد الكبير وأشعلوا النيران فى المدينة كلها . وقد راع الخليفة مقتربهم من عاصمة الخلافة فأنفذ الموفق على رأس الجيش لقتالهم ، فنشط للقتال نشاطا قويا ولكنه لم يظفر بهم الا قليلا فى المعارك الأولى لاضطراره الى وقف القتال حينا بعد حين واشتغاله بدرء المخاطر فى مواقع أخرى من الدولة ، ولقى موسى وغيره من القادة مثل هذا الفشل سنة بعد سنة ثابر الزنج خلالها على الغارة مع ما كانوا يمنون به من الهزيمة فى بعض المعارك ، وجعلوا يغيرون على العراق وخوزستان والبحرين عصابات متفرقة أو جموعا

مصفوفة ، فنهبوا الأهواز واتخذوا (واسط) معسكرا يشنون منه حروب التخريب والتقتيل ، وانقضت على البلاد تسع عشرة سنة من الشقاء والفزع ، ثم فرغ لهم الموفق بعد الخلاص من الأعداء الخارجيين ، فوحد الجيوش تحت قيادته وقيادة ابنه المعتضد ، ودارت الدائرة من ذلك الحين على جموع الأرقاء ، فطردوا أولا من خوزستان ودفعوا الى الجانب السفلى من النهر حيث استعصموا بالمواقع الحصينة واحتموا بالأقنية والجداول المحيطة بها ، ولا تزال أخبار المعارك التى تلت ذلك نحو خمس سنوات محفوظة تروى بتفصيلاتها المسهبة المملة ، وأجلى العدو من مواقع كثيرة ولكنه لبث بعد جلائه عن تلك المواقع ثلاث سنوات مستعصما ببعض الحصون لانقطاع الحصار فترات متوالية من جراء اصابة الموفق بجراح أقعدته عن العمل السريع ، وأخذ الثوار يتسللون زرافات زرافات الى الموفق فيتقبل منهم التوبة برفق وسماحة ، وبلغ من رفقه وسماحته أنه أعلن العفو عن المسىء الأكبر فأعرض عنه هذا بصلف وقحة . ثم سقطت القلعة وعاد كثير من النساء السبايا الى ديارهن ووقع الخبيث فى الأسر وهو يمعن فى الهرب فقتل وحمل رأسه حيث رفع على مشهد من الجموع المتكوفة فخروا سجودا يشكرون الله على النجاة من شره .. » .

.. وتلخيص موير هذا لفتنة الزنج يصدر عن نظرة تاريخية على الحيدة بين الداعية والدولة التى يثور عليها ، فلا يمتزج بالغضب الدينى الذى يشعر به المؤرخ المسلم وهو يتكلم عن فتنة من فتن المروق والاباحة والافتراء على الحضرة النبوية ، وهى — فى رواية موير — على نسق تام مع الثورات التى من قبيلها وان تفاوتت أبعد التفاوت فى الأزمنة والأمكنة وأجناس الثوار ومطالبهم وعقائدهم التى يأخذون بها أو ينتقضون عليها.

فكلها ثورات حصلت لأنها أمكنت ، وكلها ثورات أمكنت لأنها ثورات أناس من أصحاب الشكايات الاجتماعية أو المنتفعين بالقلاقل والفوضى حيث كانت ، تجمعوا فى صعيد واحد واستضعفوا السلطان لما منى به من الهزيمة والعجز فاستخفوا بأمر الخروج عليه ، ولا يلزم من ثوراتهم هذه أن يكونوا من الفلاحين أو الصناع أو العاطلين ، ولا أن تتقدم ثوراتهم أو تتأخر حسب الأطوار التى يرتبها المفسرون الماديون للتاريخ » [1] .

* * *

وقد تكررت فى أوائل عصر الصناعة الكبرى ظواهر اجتماعية من قبيل ما سلف فتكررت فيها الثورات التى تفرقت فى أنحاء الزمن ولم يختص بها عهد من العهود ، ولوحظ فى كل ظاهرة منها تكرر حديثا أنها تأتى فى أول أطوار الصناعة الكبرى كأنها مفاجأة غير مألوفة تعترى المجتمعات التى لم تتهيأ لتوسيع مجال الصناعة والتوفيق بينها وبين مرافقها ومصادر ثروتها ، فهى عرض من أعراض المفاجأة وليست نتيجة خاصة مدخرة للصناعة الكبرى فى آخر أطوارها ، ولا هى من الطوارىء المعلقة وراء حجاب الزمن الى أن يحين حينها وتدور بها أدوارها .

أما الثابت من مراقبة الحوادث بعد تمكن الصناعة الكبرى التى استوفت أطوارها فهو الاستقرار الذى تقل فيه المفاجـآت ويقل فيه انتظارها وتوقعها ، لأن زيادة الثروة من اتساع مجال الصناعة الكبرى تصاحبه كثرة المالكين وكثرة أنواع الأعمال وكثرة الروابط التى تقضى بالتضامن بين أعضاء المجتمع الواحد فى المنافع والأضرار .

وسوف يتسع مجال الصناعة الكبرى فوق اتساعه فى هذه السنوات الوسطى من القرن العشرين ، وقد يقصر المدى قبل نهايته دون استقامة

(١) من كتاب الشيوعية والانسانية للمؤلف من فصل « اتباع المذهب »

هذا المجال فى أرجاء العالم ، ولكن الأوضاع التى يبلغها التطور قبل نهايته كافية لتصحيح الآراء عن علاقة التطور الصناعى بنهاية الطبقات ، جديرة بتعليم الناس أن العاقبة للتعاون بين طبقات المجتمع الواحد ، وان الاستقرار والحرية مفقودان حيث تسطو فئة من المجتمع على سائر فئاته ، رهينان بتعدد الطبقات وتعدد الكفايات وتعدد أنواع الأعمال ، ومن هذا التعدد يخلق الترياق الواقى من الأثرة والطغيان ، فانهما خرق لنظام الحياة العامة لا يستطاع ولا يحتاج اليه حيث تتقارب الأقدار والحقوق وتتداخل المصالح والعلاقات .

١٠ — الأسرة والمرأة

بدأت قضية المرأة على حق يشوبه الغلط ، ولم يكن لها بد من البدء على الحق المشوب بالغلط والا تأخرت ، أو جمدت ، فلم تبدأ على وجه من الوجوه .

بدأت فى معمعة المطالبة بالحقوق : رعايا يطلبون حقوقهم من ملوكهم، وعبيد يطلبون حقوقهم من سادتهم ، وأجراء يطلبون حقوقهم من أصحاب الأموال ، وشعوب مغلوبة تطلب حقوقها من شعوب غالبة ، بل أبناء يطلبون حقوقهم من الآباء ، وعباد يطلبون حقوقهم من المعبود .

فلما جاء دور المرأة فى هذه المعمعة كانت مطالبتها بحقوقها خصومة جديدة فى معترك الخصومات الكثيرة ، خصومة مع الرجل أو خصومة بين الجنسين ، وهذا هو موضع الغلط فى قضيتها التى بدأت على حق لا ينكره ولا يجدى نكرانه بعد الانتباه اليه ، وكثيرا ما يبتدىء الانتباه اليه من الرجال قبل النساء .

فمن الحق أن المرأة كانت مظلومة مسخرة قبل عصــور المعرفة والحرية ، ولكن الغلط فى وضع قضيتها أن يكون هذا الظلم خصومة بينها وبين الرجل ، أو خصومة بين الجنسين . فان الجنسين معا كانا ضحية لعدو واحد لم يعرفاه الا على مهل وبعد ضلال بعيد عنه وعن منافذ الخلاص منه .

كان الرجل ضحية جهله يوم كانت المرأة ضحية جهلها وجهله .

وكان الرجل مظلوما يوم كانت المرأة مظلومة ، وكانت مسئولة مثله عن هذا الظلم — أو غير مسئولة — فهما على الحالين مستويان .

وكان كل ما تشكوه المرأة من مساوىء الاجتماع يشكوه الرجل مع اختلاف فى الدرجة واختلاف فى القدرة على الشكاية ، وربما صمتت الشكاية باختيار متفق عليه بين الرجال والنســاء . وقد يقف الرجال والنساء معا فى حظيرة الاتهام أمام ضحية أخرى لا هى بالخصم ولا هى بالطرف المعقول فى موقف من مواقف الخصومة ، وتلك هى ضـحة الطفولة المظلومة من البنين والبنات ، قبل أن يصبحوا مع الزمن رجالا ونساء وآباء وأمهات .

فما من شك فى ظلم الطفولة يوم كان الرجال مظلومين والنســاء مظلومات ، وما من شك كذلك فى مصاب الجميع بجرائر هذا الظلم : مصاب الظالمين والمظلومين .

كم ظلمت الأم فى العصور الغابرة من وليد تحبه ووليدة تحبها ؟ وكم ضاع هذا الظلم بين تبعة لا تعرف وتبعة تعرف على جهل وضلالة ؟

ومن المسئول عن الجهل والضلالة ؟ ... قل على حد سواء انهـم البنون والبنات ، كما تقول انهم الآباء والأمهات ، أو تقول انهم الرجال والنســاء .

فاذا قيل ان قضية « تحرير المرأة » قضية حق فى نشأتها ، فذلك صدق لا جدال فيه . ولكنها توضع موضع الغلط حين يقال انها قضية خصومة بينها وبين الرجل ، وان الفصل فيها انما هو انتصار طالب على مطلوب ، أو صلح بين ضدين يكسب أحدهما بمقدار ما يخسر غريمه فى هذه المقاضاة .

انما توضع قضية المرأة فى موضعها الصحيح يوم يقضى فيها على أنها علاقة بين شريكين يتوزع بينهما العمل على حسب اختلاف الوظيفة والاستعداد ، وكلاهما خاسر مغبون اذا أخل بحق شريكه ونازعه فى عمله

وكفايته ، وكلاهما رابح اذا عرف أين يعطى وأين يأخذ من قسمة الخلق بين الجنسين .

ليس فى الطبيعة ظاهرة محسوسة يتجلى فيها توزيع العمل وتتمثل فيها هذه الشركة كما نراها فى المقابلة بين وظائف الجنسين ، فكل مخلوق انسانى انما هو شاهد فى تكوينه على هذه الوظائف المتقابلة فى تركيب بنية الذكر وبنية الأنثى ، ومن ضحالة الفهم أن يسبق الى الظن أن هذا التقابل فى تركيب الجنسين ينتهى عند أعضاء الجسد ولا يستدعى معه تقابلا فى استعداد العاطفة والفكر والبديهة الخفية التى نحسها أحيانا وتحتجب عن الحس أحيانا أخرى ، لعلها أعمق وأقوى مما ندركه نحن — رجالا ونساء — من هذه المحسوسات .

والمسألة — بعد — ينبغى أن تخرج من أفق التنازع على الحقوق والكفايات الى أفقها الذى تدور فيه الى مستقرها ، كيفما كان القرار .

ومن الغلو فى الأمل أن نترقب حلها فى البقية الباقية من القرن العشرين ، ولكننا نتحدث عن أمل قريب — ان لم يكن أملا محققا فيما نراه اليوم — اذا رجونا أن توضع قضية المرأة موضعها الصحيح بعد جيل أو جيلين ، فينقضى الدور الذى بدأ بالخصومة بين المرأة والرجل ، ويتبعه دور يعملان فيه عمل الشريكين اللذين يتقاسمان الواجب كما يتقاسمان الحق ، ويحذران الخسارة لأنها خسارة فى الحصتين .

* * *

ولا شك أن حالة الأسرة أدل من حالة الطبقة على نصيب المجتمع من السلامة والاستقامة . اذ كنا نطلع من حالة الطبقة على أوضاع اجتماعية واقتصادية قلما تتخطاها الى ما وراءها الا على سبيل الاستطراد ، فى حين أننا نستلهم من حالة الأسرة حكمة الطبيعة فى تقسيم الجنسين ونهتدى

منها الى أخلاق الفرد والجماعة ونستشف منها بداهة النوع فى احتياله للمحافظة على بقائه ونموه ، ولا يفوتنا حين نطلع على تكوين الأسرة أن نلم بأحوال المجتمع فى علاقاته الاقتصادية والسياسية .

ونحن نستلهم حكمة الطبيعة فنعلم أن المجتمع يبتعد من السلامة والاستقامة كلما ابتعد بالمرأة عن الأسرة ونحّى بينها وبين وظيفة الأمومة وتربية الجيل المقبل وتدبير البيت لتسكن اليه وتسكن اليه الأسرة موئلا للعطف والراحة من تكاليف السعى والمعيشة .

وليس مدار البحث هنا أن نعلم مدى الحقوق السياسية التى تنالها المرأة فى أمتها ، ولا عدد الوظائف التى تشغلها والدراسات العلمية التى تتلقاها ومراكز الأعمال العامة التى تتولاها . فاننا لا نواجه خطرا مقبلا اذا استغنت المرأة عن هذه الأعمال ولا يئود المجتمع أن يولى الرجل كل ما تتخلى عنه المرأة يوم تكتفى بوظيفة الأم وسياسة الأسرة فى الحياة البيتية .

ولكننا نواجه الخطـر المحقق اذا تخلت المرأة عن حيـاة الأسرة ولوازمها ، ونبتعد عن حكمة الطبيعة فنفهم أن المرأة والرجل كليهما يعملان فى مجتمع بعيد من السلامة والاستقامة ، وينبغى أن تتوخى فى الاصـلاح الاجتماعى رد المجتمع اليهما وتثبيط الدوافع التى تحفز الناس — نساء ورجالا — الى الشطط عن سواء الطبع فى توزيع الأعمال بين الجنسين .

ومن اللجاجة أن تنقلب هذه المسألة الحيوية الى منازعة على كفاءة الجنسين فى شئون العلم والعمل . فالأمر الذى لا منازعة فيه أن المرأة خلقت للأمومة وصلحت لتربية عواطف الأسرة ، فلا يحسن بالمجتمع أن يضطرها الى التخلى عن مكانها فى الأسرة ، وأن يلجئها الى التضحية

بالبيت سعيا الى الرزق أو اشتغالا بأعمال يغنى فيها الرجل عنها .

وليس لنا أن نتجاهل الحقيقة الواقعة وننسى أن المرأة تضطر فى الحضارة الحديثة اضطرارا الى هجر البيت والتضحية بلوازم الأسرة فى سبيل لوازم المعيشة . الا أن الحذر من تجاهل هذه الحقيقة لا يوجب علينا أن نغتبط بها ونقيم قواعد المستقبل عليها ، وانما نعترف بها لنعطيها حقها من معاذيرها واعتباراتها ، ونسعى الى اصلاحها وتثبيط الدوافع التى تضطر النساء والرجال اليها .

وقديما اضطر الفقراء — وغير الفقراء — الى تسخير القاصرين واهمال تعليمهم فى سن الطفولة الباكرة فيما يشق عليهم ويضر بأجسامهم وعقولهم ايثارا للانتفاع بأجورهم على احتمال نفقتهم ، فلم نجعل هــذه الضرورة قاعدة تقام عليها تربيتهم وتفريج الضائقة عن ذويهم ، واعترافنا بهذه الحقيقة لنصلحها ونغنى المضطرين الى تسخير أبنائهم عن هــذه السخرة الشائنة ، فاستغنى عنها الكثيرون منهم وأنفوا منها بضمائرهم وقلوبهم بعد أن تعودوا مع الزمن أن يتجنبوها خوفا من العقوبة وطاعة للشريعــة .

ولا يبدو الآن أن الضرورات التى تصرف المرأة عن حياة الأسرة يمكن أن تعالج بهذه السهولة فى الجيل الذى نحن فيــه ، وأكبر الظن أنها تستعصى على العلاج فى الجيل المقبل أو الذى يليه ، ولكننا نأمل فلا نغلو فى الأمل أن يتكفل القرن العشرون قبل انتهائه بوضع هذه القضية الجلى فى موضعها الأمين ، فيختتم صفحة الخلاف عليها كأنها خصومة بين الرجل والمرأة ، ويتركها للأجيال المقبلة شركة يتعاون فيها الجنسان كما يتعاون الزميــلان .

١١ — الفن والعلم

ولعلنا نختم هذه الظنون والنبوءات بخبر من أخبـار المستقبل لا حاجة به الى ظن ولا نبوءة ، وقد يكون أوثق من أخبار الماضى الذى تتضارب فيه الرواية .

ان القرن العشرين سوف يصفى قبل نهايته حساب البدع الفنية التى نشأت فيه ، وهذا هو الخبر الذى لا يحتاج الى الظن والنبوءة . اذ تحمل البدعة فى طياتها نبوءة مصيرها ، وتأتى البدعة ثم تمضى كما تأتى أزياء الثياب والحلى زيا بعد زى ثم تمضى باختيار من يبدعونها ويولعون بها ، ولولا هذا التقلب السريع لما فكر أحد فى ابتداعها .

وقد كانت ذخيرة القرن العشرين من بدع الفنون أوفر وأعجب من ذخيرة سلفه القرن التاسع عشر ، ومن ذخائر أسلافه فى العصور الحديثة التى أولع فيها الناس بالجديد ثم ازدادت سرعتهم فى تغييره والتبرم به الى أن بلغت شأوها الأخير فى هذه السنوات الأخيرة ..

ويرجع الاقبال على البدع فى القرن العشرين الى جميع أسبابه التى تغرى به وتحرض عليه : الى الجرأة على التقاليد المرعية ، والى شيوع الطرافات العلمية التى يتداولها الفنانون وجمهرة المتحـدثين بالعلوم والفنون ، والى اتساع ميادين النشر من طباعة واذاعة وصور متحركة ومسارح عرض وتمثيل .

والجرأة على التقاليد المرعية قديمة منذ عصر النهضة وعصر الاستنارة وما تلاهما من عصور الثورات العلمية والسياسية . الا أن الجرأة على التقاليد كانت تصدر فيما مضى من جانب واحد باسم المجددين الثائرين

على المحافظين ، أو باسم اليسار المنتقض على اليمين ، فلما تقدم القرن العشرون جاءت الغارة على التقاليد شعواء ذات اليسار وذات اليمين .

فأنصار الدعوة الاجتماعية من الماديين يحطمون التقاليد الماضية لأنهم يهدمون كل بناء قام فى الماضى على قواعد الطبقات من غير طبقة الأجراء ، وأنصار الدعوة الفردية ينكرون طغيان الجماعة على حرية الفرد فيعارضون الدعوات الاجتماعية التى تلغى الفرد من أجل الجماعة ، ولكنهم — على مذهب بعض الوجوديين — يبيحون للفرد أن يستقل برأيه وهواه ويثبت وجوده بالخروج على العرف واقتحام الطريق الذى يروقه على غير اكتراث بالأصول والعادات فى مسائل الذوق على الخصوص ومنها الفنون .

أما شيوع الطرافات العلمية فهو فيما نعنيه هنا شىء غير شيوع المباحث العلمية التى يمحصها العلماء ويمتحنونها على أصول التجربة والتطبيق الأمين . فهذه المباحث العلمية تفيد الفن والفنان وتؤدى الى قيام المدارس الفنية التى تثبت فى تاريخ العلم والثقافة ولا تظهر ثم تغيب كما تغيب البدع والأزياء .

ان الطرافات العلمية شىء غير هذه المباحث والدراسات . فانها لا تعدو القشور التى تستهوى النظر العاجل ويتخطفها المتندرون فى الأندية لما فيها من غرابة تجرى فى نسق واحد مع غرابة الأقاصيص والبدوات ،ومنها ما يحسن فهمه ويساء تطبيقه لسوء التمييز بين موضوع العلم وموضوع الفن ، وبين مسائل التفكير ومسائل الشعور والخيال .

وأشهر هذه التطبيقات الخاطئة فى بدع الفنون دعوة المدرسة الطبيعية فى القرن التاسع عشر Naturalism وهى من أصح المدارس الأدبية فى نظرتها وأسرعها إلى الخطأ فى تطبيقاتها لسوء التمييز بين أساليب العلم وأساليب الآداب.

كان مبعث هذه الدعوة أن أصحابها أرادوا أن يميزوا أنفسهم على غيرهم من الكتاب والشعراء بالتزام الأمانة العلمية فى وصف أحوال الناس والتعبير عن عواطفهم وعلاقاتهم الاجتماعية ، وقالوا ان الكاتب ينبغى أن يتجرد من أهوائه وآرائه عند الكتابة كما يفعل العالم عند دراسة الظواهر الطبيعية ، وان تعبيره عن الحقائق الاجتماعية والنفسية ينبغى أن يصاغ فى قالب كقالب التعبير العلمى أو قالب المسائل الرياضية .

ومن الحسن ولا شك أن يلتزم الكاتب أمانة العلم اذا كان المقصود بهذه الأمانة أن يتجنب الزخرف الكاذب والأباطيل الخرافية . ولكنه لا يكون أمينا بمعنى الأمانة العلمية ولا الفنية اذا عبر عن نفسه تعبيرا آليا يتجرد من الملامح الشخصية ، لأن الفن كله قائم على وجهة نظر الفنان وملكاته الشخصية التى لا تتشابه بين كاتب وكاتب ولا بين شاعر وشاعر ولا بين مصور ومصور ، ولا تأتى مقرراتها متشابهة أبدا كما تتشابه مقررات العلماء ، ولهذا كانت الصورة اليدوية مفضلة على الصورة الشمسية بالغة ما بلغت هذه من الصدق والاتقان . ولو كان المقصود بالأمانة العلمية مطابقة الصورة لأصولها المحسوسة لكانت الصورة الشمسية أرفع شأنا من كل صورة تبدعها ريشة الفنان الصناع .

ولكن الأمانة العلمية فى الفنون شىء غير الأمانة الآلية ، لأن العلم يقول لنا ان الآلة غير الانسان ، فلا يجوز لنا أن ننتظر — باسم العلم — تصويرا انسانيا يشبه صناعة الآلات ، ولا تتحقق أمانة العلم وأمانة الفن معا بغير هذا الاختلاف ، بل يصدق هذا على الفرق بين الصورة الشمسية الممتازة والصورة الشمسية المجردة من المزية . فاننا اذا أعجبتنا صورة شمسية بارعة لمسنا على الأثر براعة المصور الذى التقطها فى اختيار الموقع واختيار الوجهة واختيار الألوان والظلال واختيار اللمحات

البادية على الوجوه وعلى صفحات الأشياء .

ومن الواجب أن نفهم معنى الأمانة العلمية حين نطبقها على بدائع الفنون . فهى لا توصف بوصف الأمانة الا اذا حسبت حسابا للفارق بين عمل الآلة وعمل الانسان .

ويهون سوء التطبيق فى الدعوة الى المدرسة الطبيعية اذا قيس الى التطبيقات السيئة التى ابتليت بها دراسات علم النفس بين الحربين العالميتين ، فتسربت الى الفنون والآداب من كلمات الوعى الباطن ومركبات النقص والعقد النفسية وما شابهها من مصطلحات فقدت معناها لكثرة استعمالها فى غير مواضعها ، وخلقت من أفانين الأوهام ما لم تخلقه خرافة من الخرافات التى ماتت قبل أن تبلغ القرن العشرين .

وقد نسى دعاة البدع التى نبتت من كلمة الوعى الباطن أن هذا الوعى الباطن لم يخترعه فرويد ولم يزعم أن الفنانين من قبله جهلوه وأهملوه ، بل قرر غير مرة أنه يعتمد فى تفسيره على أعمال أولئك الفنانين وأقوالهم من كتاب وشعراء ومصورين ، وما من أحد ذى بصر ينظر الى صورة من صور الأقدمين ومن تلاهم فى عصر النهضة وتلاميذهم المبرزين من أبناء العصور الحديثة الا أدرك لأول وهلة أنهم أحسوا الوعى الباطن من وراء الظواهر وعرضوه لنا على قسمات الوجه وحركات الأعضاء ، ودلوا على قدرتهم بهذا العرض الذى يرينا الخفايا كما يرينا الظواهر بلمسة من لمسات الريشة وخفقة من خفقات النور واللون ، وتركوه لنا نفسره كما يفسر كل سر من أسرار النفس البشرية قد ينطوى عن صاحبه كما ينطوى عن الناظرين اليه ، ولذلك كان وعيا باطنا ينقله الفنان القدير على غموضه أو جلائه نقل الأمانة الملهمة والادراك الخفى والحس المشترك بين الوضوح والغموض ..

وينسى هواة الطرائف العلمية أن علماء النفس لم يكشفوا الوعى الباطن ليلغوا به الوعى الظاهر ويبطلوا به عمل الحواس . لأن معرفتنا بعقولنا الخفية لا تمنعنا أن ننظر بأعيننا ونسمع بآذاننا بل تساعدنا على محو الضلالة والتثبت من حقائق المنظور والمسموع .

والمصورون ممن يدعون تصوير الوعى الباطن ينسون أنهم تعلموا فن الرسم والشكل ولم يتعلموا الكهانة والتنجيم ، ولو كان فنهم كله قائما على تخمين الظنون عن العقل الباطن لتساوى المصورون وغير المصورين ، وتساوى كذلك الشعراء وغير الشعراء والفنانون وغير الفنانين فيما يتعاطونه من الوصف والتعبير . اذ كان التخمين عملا نستطيعه جميعا ولا يتقاضانا غير الحدس والاسترسال مع الخيالات ، ولا يصح أن يستأثر فيه صاحب وعى بما يتوهمه دون أصحاب الوعى من الناظرين والفنانين . فقد يتفق عشرات الألوف فى البصر والسمع ولا يتفق اثنان فى الخفايا الباطنة ولو كانا أخوين أو عشيرين مدى الحياة . وما دام الوعى الباطن مختلطا مرتبكا غير مشهود ولا مفهوم فليس فى الدنيا من يعجز عن محاكاة الاختلاط والارتباك على نحو من الأنحاء .

ومن فكاهات هذه الدعوات أن المنتحلين لها يتخطفون أطرافها على عجل ثم ينقطعون عنها ولا يعرفون ما طرأ عليها فى مباحث أصحابها الأولين وروادها المبتكرين . فقد عدل فرويد فى أيامه الأخيرة عن مغالاته بدعوى الوعى الباطن أو العقل الباطن ورأى أن العبارة فى تركيبها متناقضة لا تستقيم فى التفكير . فليس بالعقل شىء لا نعقله ولا بد من تعبير أصح من هذا التعبير للدلالة على الفوارق بين طبقات السريرة الانسانية من أعماقها المستورة الى ظواهرها المكشوفة ، ولهذا أهمل فرويد مصطلحات

الوعى الباطن واللاوعى وما اليها فى أخـريات أيامه واسـتبدل بها ال (ايـد Id) أو الطـوية وال (ايجـو Ego) أو الـذات وال (سوبر ايجو Super-Ego) أو الذات العليا ، ولم يفصـل بين دوافع هذه القوى الثلاث الا فى حالات المرض والاختلال أو حالات الارتباك التى تعترى الأصحاب فى حالات الكرب والشدة فلا يستقر لهم قرار الى أن تزول . وقد تراجعت مصطلحات فرويد الأولى الى الصفوف التالية فى مباحثه الأخيرة ولما تزل تشغل الصفوف الأولى فى أعمـال الفنانين الذين تلقفوها بالسماع ولم يفهموا منها أولا وآخرا غير ما فهمه ثراثرة الأسمار ..

* * *

ومن المألوف أن تعزى كثرة الخوض فى النفسانيات بين الحربين العالميتين الى قلق الأفكار وتوتر الأعصاب فى هذه الفترة من جـراء الأزمات والشكوك التى تنتاب أبناء العصر فترهقهم وتلجئهم الى التنفيس عن صدورهم بهذه الأحاديث كما تلجىء العلماء والمفكرين الى البحث فى أعراضها ووسائل علاجها . ويشبه أن يكون هذا هو الواقع فى تعليل كثرة الخوض فى العوارض النفسية ، لولا ما نعهده من أخطائنا المتكررة عند المقارنة بين الحاضر والماضى فى مسائل الشعور والعاطفة ، فما حضر أشد عندنا مما غبر فى مسائل الحر والبرد ومسائل السرور والألم ومسائل العافية والمرض ، ولا يبعد أن تكون أزمات القرن التاسع عشر أشـد وقعا على أبنائه من أزمات المحدثين بين الحربين العالميتين ، لأنه لم يخل من قلاقله وشكوكه وثوراته وحروبه ومفاجآته وصـدمات الخيبـة لأصحاب الآمال العامة والخاصة من أبنائه ، فاذا كانت أحاديث العقد النفسية لم تتردد فى فنون القرن التاسع عشر كما ترددت فى فنون القرن

العشرين فليس من المحتم أن يرجع ذلك الى ندرة الأزمات النفسية فيما مضى وكثرتها فيما حضر ، بل يجوز أن كثرة الحديث عنها انما ظهرت مع ظهور العلوم النفسية تبعا لتقدم العلوم فى جملتها ، وانها وجدت متسعا من ميادين النشر وحرية التصريح بالآراء فى الزمن الأخير لم تجده فى أول عهدها بالظهور قبل بضعة أجيال .

وقد مضى الآن على ابتداء اللهج بالعلل النفسية أكثر من جيل كامل وضحت فيه مصادر هذا اللهج الطارىء من أعمال الفنانين وأعمال أدعياء الفنون ، فلم يعسر على نقادهم أن يميزوا بين سمينهم وغثهم وبين الجد والهزل فى أعمالهم وأقوالهم . فهم بين طائفتين تتميزان جدا بعد هذه السنين التى عرضت لنا من ثمراتهم ما يكفى لمعرفتهم : طائفة جادة فى شعورها وتعبيرها تصور لنا دخائل النفوس وعللها كما يصورها الفنان الملهم فى كل آونة ، وطائفة مصطنعة متكلفة تعرض لنا فنا مصطنعا متكلفا هو نفسه عرض من أعراض الأمراض النفسية . والفرق بين الطائفتين هو الفرق بين المعبر عن المرض وبين المصاب بالمرض الذى نفهم مرضه من حالته ولا نفهمه من مبتكراته وأقاويله . ولا يشق على نقاد الفن أن يدلونا على الآية التى تميز كلا من الطائفتين تمييزا يدفع اللبس والاشتباه. فكل نتاج فنى يلغى القواعد وينطلق مع الفوضى فهو ظاهرة مرضية وبدعة موقوتة لا تدوم الا ريثما تنسخها بدعة من قبيلها ، وكل نتاج فنى يقوم على قاعدة مفهومة فهو تعبير صحيح وان جاءت هذه القاعدة على نسق جديد يخالف ما اطردت عليه فنون الأقدمين . ولابد من التفرقة بين القواعد والقيود فى الأعمال الفنية على اختلافها . فان القواعد هى قوام الفن الذى لا ينفصل عنه ولا يمكن أن يخلو منه بحال . وما عرف الناس لعبة من لعب الكبار والصغار — فضلا عن الفنون العليا — يمكن

أن تلعب بغير قاعدة مرعية عند الطرفين ويجوز للاعب أن يتحرك فيها بغير ضابط معلوم ولا خطة مقررة . فلا قوام للفن بغير القاعدة ، ولكنه قد يقوم على أحسنه مع زوال القيود التى يحده بها العرف ويتناولها التغيير والتبديل فى كل جيل .

ولم يمض على ظهور البدع الفنية — بدع الفوضى والاباحة — بضع سنوات بعد الفترة بين الحربين حتى أمكن التمييز بينها وبين الفنون المعبرة بوحى الالهام والبداهة الصادقة . فمن البدع الزائلة كل دعوة تنم عن المرض النفسانى كما تنم عليه أعراضه وأماراته ، ومن الفنون الصادقة كل فن يعبر عن المرض وهو غير مريض ، وينفس عنه وليس هو بضحية من ضحاياه . ولكل منها علاقة بالدراسات النفسية غير علاقة الآخر بها . فان البدع لا تستفيد من الدراسات النفسية ولا تتعلم شيئا منها ، ومثلها فى علاقتها بحقائق علم النفس مثل المريض فى علاقته بالطب الذى لا يعرفه . وعلى خلاف ذلك يكون الفن الصادق فى علاقته بالدراسات النفسية ، فانه يستفيد من العلم بها ويصحح بها أخطاء الحس والرأى والشعور ، ويعتمدها فى نقد أعمال الأقدمين وتوجيه أعمال المحدثين .

* * *

منذ أواخر القرن الماضى بدأت مشاركة العلم فى نقد تاريخ الفنون ولا سيما فنون التصوير والنحت والمخطوطات الكتابية . فتمكن علماء التاريخ والكيمياء من تحقيق أوقات التحف الفنية وتصحيح نسبتها الى أصحابها وعهودها ، اما بالمقابلة التاريخية بين الأساليب والتوقيعات وأنواع الورق والمداد ، أو بالفحص الكيمى عن التفاعل بين الأصباغ والأنسجة وبين عوارض الجو والتربة ، وكانت لهذه المساهمة العلمية

قيمتها النفسية فى التحقيق والتمحيص من الوجهة التاريخية التى تنتهى عند تصحيح النسبة الى هذا الفنان أو ذاك وتبيين الفرق بين أساليب عصر وعصر وأنماط مدرسة ومدرسة . ولكن النقد العلمى لم يتمكن من المشاركة فى التمييز بين الفن السليم والفن السقيم وبين أسباب الدقة فى الأداء وأسباب الخطأ والانحراف فيه الا بعد التقدم الحثيث فى علم البصريات وما يرتبط به من طب العيون والأعصاب . فان علماء البصريات وأطباء العيون قد أمكنهم أن يميزوا بين الخصائص التى كانت تحسب فى عداد المدارس والأساليب الفنية وبين الخصائص التى تنشأ من أمراض البصر ويضطر اليها الفنان لخلل فى تركيب عينه يحجب عنه بعض الألوان أو يعرضه لطـول البصر أو قصره أو للزيغ عن النظـر المستقيم الى ما يواجهه من أمامه ، ففى هذه الحالات يبالغ الفنان فى توكيد لون من الألوان وتخفيف ما عداه ، وتتراءى صوره أقرب الى الاستطالة أو أقرب الى الاستدارة ، وفيها بعض الميل من جانب وبعض الاقحام من جانب آخر ، على حسب الاختلاف بين تركيب عينيه وبين تركيب العيون عند صاحب النظر السليم . وكان النقاد الأسبقون ينظرون فى هذه الخصائص فيحسبونها من بدع الاختيار والابتكار ومن فوارق الأساليب المقصودة والمدارس التى يدور البحث فيها على تعدد الآراء والأذواق ، وما هى الا نظرة فاحصة من عالم البصريات حتى ينجلى له أن الأمر لا يرجع الى اختلاف الآراء والمذاهب ولا الى الرغبة والاختيار ، وان مرجعه كله الى عيب فى البصر يمثل الأشياء لصاحبه على صورة غير سوية ويوقعه فى ذلك الخطأ الذى لا حيلة له فيه . وقد يظهر من المقابلة بين صور الفنان الواحد أن بعضها ينم على انبساط الحدقة وبعضها ينم على بصر سليم ، فيتبين من النقد التاريخى أنه يحاكى أسلوب غيره فى الصور المثالية أو

الصور المقدسة لأن ذلك الأسلوب قد أصبح فى زمانه بمثابة الزى المصطلح عليه لتمثيل « الشخوص » المحوطة بهالة من القداسة والرعاية المثالية ، ولكنه يثوب الى بصره فيعتمد عليه فيما يرسمه من المناظر اليومية والشخوص التى لا يحيطها بتلك الهالة من القداسة والتبجيل ، وهذه وسيلة من وسائل التمييز بين الأنماط والأساليب وبين أسباب الاختيار فيها والاضطرار لم تكن معروفة قبل ارتقاء علم البصريات وأدوات الفحص عن وقع المسافات والمرئيات فى النظر المنحرف والنظر السليم .

ويؤخذ من بحث لطبيب جراح من أطباء العيون أن نسبة الحسر فى طلاب التصوير أكبر من النسبة العامة بين غير المصورين : « ففى احصاء للتلاميذ والأساتذة فى مدرسة الفنون الجميلة بباريس عند أوائل القرن العشرين ظهر أن المصابين بالحسر أكثر من ستين من مائة وثمانية وعشرين ، وان نسبة طول البصر فى المدرسة كلها سبعة وعشرون فى المائة ، على حين أن نسبتهم فى عموم الناس ثلاثة أمثال المصابين بالانحسار » .

قال الطبيب : « ومما يدعو الى الدهشة كثرة المصابين بالحسر بين أساتذة المدرسة التأثرية أو الاحساسية Impressionists فمن المرجح أن مونيه Monet كان محسورا ، ولكن الحسر محقق عند سيزان Cezanne وديجاس Degas ومفهوم على وجه يكاد أن يكون أكيدا عند رينوار Renoir الذى يحكى فولار Vollard أنه كان فى الرابعة والستين يقرب الأشياء من بصره ليتثبت منها وهى السن التى لا يستطيع غير المحسورين أن يتثبتوا فيها من رؤية قريبة بغير نظارة محدبة . وقد كان بيسارو Pissaro محسورا أيضا مع اضطراب فى القرنية أصيب به فى طفولته من أثر القروح . وكذلك كان ديران Derain وبراك Braque وماتيس

Matisse ودوفى Dufy ودع عنك الآخرين ممن لا يبلغون مبلغ هؤلاء فى الشهرة من أمثال ماتيجكو البولونى Matejko الذى حفظت نظاراته فى متحف كراكاو Cracow »[1] .

مثل هذا النقد العلمى — وان شئنا فلنسمه بالكشف الطبى — يرد أخطاء الفنون الى عللها الأصلية ويلم شعث الأفكار المهدرة فى مناقشات لا طائل لها بين النقاد حول أمور يحسبونها مذاهب مقصودة وهى من ضرورات النقص والخلل التى لا حيلة للفنان فيها ، ومنهم من يستنبط من الهباء فلسفة خاوية عن معنى تفضيل هذا اللون واهمال ذلك اللون فى لوحات بعض المصورين ، وقد يبحثون أسرار التشبيهات فى قصائد الشعراء على هذه الوتيرة فيذهبون بها الى ما وراء الطبيعة وينحلونها من المقاصد والتأويلات ما لم يخطر لناظميها على بال ، فاذا اشترك النقد العلمى والنقد الفنى فى تعليل تلك التشبيهات فأول ما يجنى من ذلك أن تصان أوقات الناس وأذواقهم من التخبط على غير جدوى فى تيه من الأوهام والأضاليل ، اذ تنكشف علل الأخطاء الفنية والأدبية فيتقبلها من وافقته على علاتها أو يرفضها ويتنبه لأسباب رفضها فينظر فى مداواتها بما يصلحها ويشفيها .

والعلوم النفسية لم تتقرر بعد فى تحقيق العلة والعلاج كما تقررت علوم البصريات ومباحث الكيمياء والطبيعة ، ولا نخالها ستبلغ فى يوم من الأيام هذا المبلغ من اليقين والوضوح ولكنها — على ما هى عليه الآن — كفيلة بالتمييز بين البدع السقيمة والمذاهب الجدية فى مدارس الفن والأدب ، فكل ما هو انطلاق بغير قاعدة ، واختلاط بغير بنية ، واساءة للفهم فى تفسير المبادىء العلمية — فهو من العلة والسقم ، وكل

(١) نشر هذا البحث فى مجلة ليسنر Listener بتاريخ ٦ نوفمبر ١٩٥٦

ما يقام على قاعدة مفهومة — ولو أقيم على قاعدة مهدومة من قبل — فهو مذهب من مذاهب التحديد يضيف الى ثروة الفن والأدب ويصلح للبقاء الى حين .

وستغنم الانسانية كثيرا من هذا الفيصل الصادق بين أعراض السقم فى الآداب والفنون وما ينشأ فيها من المذاهب المطبوعة والمدارس الجدية. فما من شيء أضر بالأذواق والعقول من أن تساق اليهم أعراض المرض كأنها فتح من فتوح التقدم يتهافتون عليه ويروضون أذواقهم وعقولهم على محاكاته، وشر ما يبتلى به مريض النفس والذوق أن يغتبط بدائه ويتمادى فى تمكينه ، وهو — لولا ذلك — خليق أن يأسف له ويبحث عن دوائه . ونحن منذ اليوم نحس أن غواية البدع السقيمة تنهزم سنة بعد سنة أمام حقائق العلم ودراسات الطبائع والأخلاق . فاذا انتهت كشوف القرن العشرين فى هذا الباب بالتمييز بين فوضى الفن وقواعده فأنعم به من ختام لا تنقضى حسناته ومزاياه .

خاتمة في سطور

١٢ — خاتمة فى سطور

اذا أخذنا بالمقدمات التى رتبها الثقات فى احصاءاتهم وآرائهم — وهى جديرة أن يؤخذ بها — فنحن أمام نتيجة منتظرة نلمحها من وراء السنين عند نهاية القرن العشرين وبعد القرن العشرين ، ولا نقول اننا أمام أمل مشروع وحسب ، فان الأمر هنا الى الحساب أقرب منه الى الرجاء .

وزبدة هذه النتيجة فى سطور : ان موارد العالم كافية لسكانه ، وان التكافؤ بين عدد السكان ومقادير المؤن والازواد مستطاع بفضل التقدم فى العلم والصناعة وأحوال الاجتماع ، تعترضه عقبات قابلة للتذليل الا أن تكون عقبة الحرب العالمية التى يخشى أن تعاجل العالم قبل استيفاء مطالبه من التقدم والكفاية فلا يؤمن أن تطيح بجميع ما وعاه من حضاراته الماضية ومن حضاراته الصناعية القائمة أو المرجوة . ولا عصمة للانسان من تلك الحرب المحظورة الا أنها — كما يعلم — أخطر الأحوال التى يخشاها ، وانها الهول الذى لا يخشى بعده هول ولا يبقى بعده من يخشى .

فاذا انتفع بهذه العصمة فالعالم ماض فى طريق الصلاح والأمان : تتعاون أممه وأجناسه ويبطل النزاع بين الطبقات فى الأمة الواحدة ، وتئول « الشخصية الانسانية » مع تعاون الأمم والطبقات الى حياة منزهة من سموم العداء وضغائن المنافسة ، متفتحة لأشواق النفس الرفيعة وأمثلتها العليا ، فيمضى النوع الانسانى فى جملته الى غاية كماله ، ويبلغ الانسان الفرد ما فى وسعه أن يبلغه باجتهاده وتيسير بيئته ، مالكا

لزمام فكره وعاطفته ، بنجوة من طغيان الجماعة عليه .

واذا انتقلنا من هذه النتيجة المرتقبة الى الأمل المشروع فمن الأمل المشروع ، أو من التفاؤل الحسن ، أن تؤمن بمصير الانسانية الى ايمان بالحق يعززه العلم ويلتقى فيه عالم المادة بعـــالم الغيب فلا يتنازعان ولا ينشطر بينهما الضمير الانسانى شطرين يورثانه مرض النفس ويبتليانه فى قرارة وجدانه بفصام دخيل ، يخيل اليه أنه الايمان ، وهو نقيض الايمـــان .

ونترخص فى الأمل ، دون أن نجاوز به آفاق الأمل المشروع ، فنقول: اننا خلقاء ألا نيأس من الأزمات التالية بعدما شهدناه من عواقب الأزمات الماضية : وقد سمحت لنا حربان عالميتان أن نقول مرة : « ان الصراع الأكبر الذى نشهده اليوم سينتهى أيضا الى عاقبة فيها بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، لأنها تناقض القوة العمياء : قوة الحديد والنار ، وتشايع القوة البصيرة ، قوة العدل والحرية » .

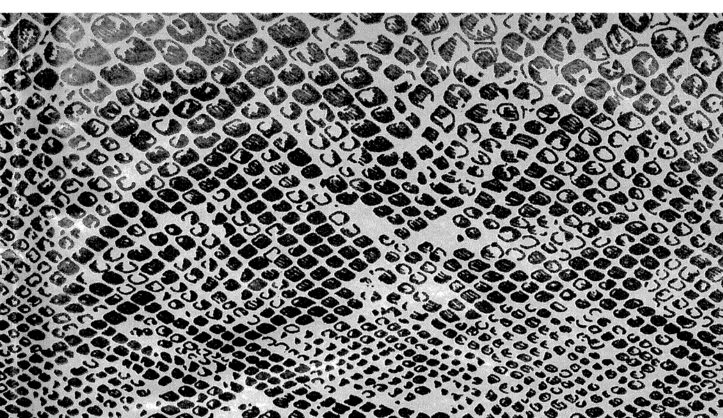
وسمحت لنا أن نقول قبل ذلك : « أينما وجدت نفس تحسن أن تدرك فثم حقائق تدركها ، ولن تظمأ حاجة من حاجات النفس ومواردها — من تلك الحقائق — باقية . اللهـــم الا تلك الحاجـــة المحكوم عليها بالظمأ الأبدى ، والتى تموت ان رويت : وهى الحاجة الى الكمال ، وبها تتم الحاجات جميعا ومن قبلها يجذبنا زمام الغيب القدير ، وهذه ينابيع الانسان التى يعول عليها : كلما أضاع أملا أخرجت له أملا جديدا ، وكأنها خزانة الجدة العجوز تتربص بالأبنـــاء المسرفين حتى يقنطوا ويضيقوا ذرعا فتفرج أزماتهم وتسرى عنهم وتزودهم بالنصائح الموفقة لهم ، وهذه الجدة العجوز لا تبض لك بأمل وعندك أمل خلافه ولا تفتح لك بابها وأمامك باب سواه ، وتقنعك كل مرة بأنك تحرز الأمل الأخير ،

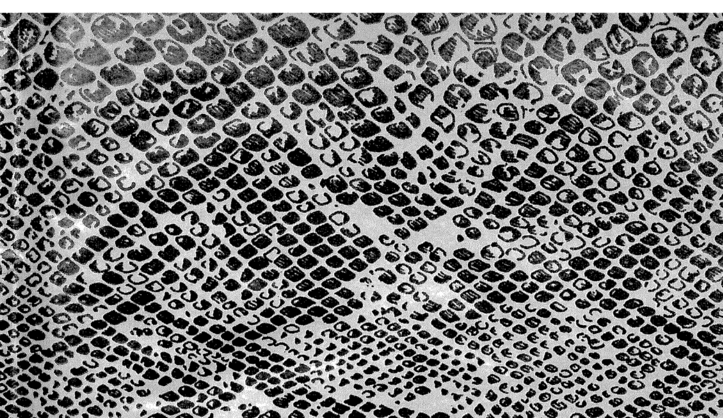
فلا تكاد تصدقها حتى يتبين لك أنها خزانة لا تنفد ، وكنز ذو أوان ، يفتأ يتجدد ولا يتبدد »[1] .

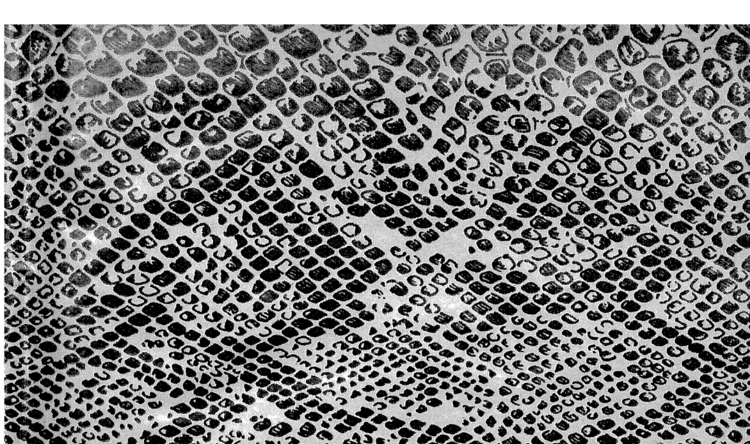
ولقد كان انسان الأمس كفئا لأزماته ، ولا يئوده الغـد أن يلقى عظائمه بما هو أعظم منها ، أفقا بعد أفق ، وقمة فوق قمة ، ومصيرا وراء مصـير .

عباس محمود العقاد

(١) من رسالة للمؤلف باسم « مجمع الاحياء » كتبت فى أثناء الحرب العالمية الاولى ، وتممت فى أثناء الحرب العالمية الثانية .








Bibliotheca Alexandrina
03354949